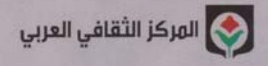
حجي جابر



مَرسى فاطمة

روايـــة



حجي جابر



مَرسى فاطمة

رواية



المركز الثقافي العربي

حجي جابر

مَرسى فاطمة

الكتاب

مَرسى فاطمة

تأليف

حجي جابر

الطبعة

الأولى، 2013

عدد الصفحات: 256

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-646-2

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

إلى جابر . .

أعتذرُ إليك، فلا تزال كل الأماني مؤجلة . .

«الوطن كذبة بيضاء. . يُروّجُ لها البعض دون شعور بالذنب، ويتلقفها آخرون دون شعور بالخديعة».

ح ج

مَرسى فاطمة

(1)

لم تكتمل فرحتي بقدوم الحافلة حين وجدتُها مختنقة بالركاب.

لوّحتُ بيأس، فقابلتني إشارة رفض لا مبالية.

تمرُّ الحافلة المنهكة على مهل، بينما تتعلّق بي عيون ركابها الملتصقة بالزجاج.

ستغضب سلمى..

من بعيد أرقب أخرى تسير بتثاقل. أُلوّح بكلتا يدي، وأنا أمنّي النفس بحظ أفضل هذه المرّة.

تتوقف الحافلة على بعد أمتار. أُهرول نحوها، ينفتح بابها الخلفي لتتدحرج من بين الأجساد المتزاحمة عجوز تنوء بحقيبة جلدية مهترئة، أنتظر خروجها بنفاد صبر، وقبل انزياحها من أمامي تماماً، تنزرع فتاة في كامل زينتها لتشغل الفراغ الذي خلّفته العجوز، ويُغلق الباب.

لم يخفّف من حنقي إلا تخيلي لمنظر الفتاة بعد وصولها لوجهتها دون كل تلك الزينة.

لكنّ سلمى ستغضب..

أخيراً وجدتُ مكاناً في الحافلة التالية.

مضى الوقت ثقيلاً، وأنا محشور بين الباب وجسدين لم أتبين ملامح أصحابهما لفرط التصاقهما بي. لحظة وحيدة ارتحت فيها من هذا العناء، حين توجّب عليّ النزول لأسمح بخروج راكب وصعود آخر، ثم سرعان ما عدت إلى حالتي تلك.

وصلتُ أخيراً إلى «إندا ماريام»، حيث نزل معي معظم الركاب.

أسرعتُ نحو مَرسى فاطمة، وأنا أتخيل وجه سلمى الغاضب، وأرتّب أعذاري بينما أمرُّ وسط مجموعة راهبات.

بالكاد قبلتْ عذر البارحة، حين تسمّرتْ وحيدة في انتظاري، بينما كنتُ واقفاً في شارع مجاور مع فتاة منتقلة لتوّها من قريتنا إلى العاصمة. أخذتنا حكايات القرية وأخبار أهلها، وسلمى يلعب بها القلق، إلى أن رأتنا معاً، فاستحال قلقها غضباً حارقاً لم تخلّصني منه إلا أيمان مغلظة بإخلاصي لها.

كنتُ وحيداً إلا من بضعة طلبة حين بلغتُ مكاننا المعتاد خلف الكنيسة ووسط شارع تتوسطه مدرسة أسمرا الثانوية.

ولم أجد سلمى..

حاولتُ سؤال العم بطرس، لكنه كان مشغولاً بزبائنه. عدتُ إلى المكان، وعيني تتوزع بين مدخل الشارع والمتجر.

خلا الشارع تماماً فعدتُ إلى الرجل، لكنّه لم يكن متأكداً ما إذا كان قد لمح سلمى وسط ضجيج الطلبة.

اقتربتُ من باب المدرسة فوجدته موصداً، تأكدتُ حينها أن سلمى غادرتْ غاضبة.

(2)

كانت لا تزال غاضبة.

اقتربتُ منها، فخطتْ خطوة إلى الأمام، عاودتُ الاقتراب، فلم تتحرَّك هذه المرة، شعرتُ أنه الإذن لي بالكلام:

«سامحيني. . عاد الحاج بعد الصلاة على غير عادته، فانتظرته حتى يغادر. . لم أكن لأفوّت لقاءك دون قاهر»

كانت لا تزال تدير ظهرها لي.

شعرها وحده بدا مرتاحاً لوجودي. كان يتراقص بغنج، وكأنه يعيد غزل ما تنقضه سلمى.

دون وعي وجدتني أستجيب لهذا الاستدراج الساحر. مددتُ يدي ولامستُ شعرها بلطف. بدأتُ من الأعلى نزولاً. غاصتْ يدي في عمق شعرها دون إرادة مني، شعرتُ أنها ذهبتْ بعيداً، تورطتْ أكثر من اللازم، حاولتُ سحبها، التوقف على أقل تقدير، لكنها كانت تغوص أكثر. كل هذا وسلمى غارقة في صمتها. مددتُ يدي الأخرى كي أوقف انجرافي في شعرها، لكنّ الأمور تعقدت أكثر، فبدأت الخصلات تلتف حول أصابعي بإحكام، استحالت خصلات شعرها إلى دوائر لا متناهية العدد. هنا شعرتُ بالخطر، صرختُ، بدأتُ بالبكاء، لكنّ سلمى ظلت على حالها، لم تلتفت حتى لتخلّص شعرها وتخلّصني، بينما الدوائر تتناسل داخل شعرها لتفرّخ

دوائر أكثر وأكثر. بدأ صدري يختنق تحت وطأة ما يجري، فنهضتُ مذعوراً وسعالي يتلاحق مع أنفاسي المتقطعة.

مضى بعض الوقت وأنا ساهم في سريري أستعيد تفاصيل الحلم وأحاول تفسيره. حتماً كان هذا غضب سلمى لحقني حتى غرفتي. في المرّات القليلة التي أغضبتُها، عرفتُ فداحة ذلك. كان غضباً مرهقاً ومكلفاً، لكنها كانت ترضى في النهاية، وهذا ما أتمناه بمجرد أن يُنهي هذا الليل زحفه البطيء ويغادر.

أخيراً اخترتُ الخروج إلى السوق قبل حلول الفجر كي أعجّل بقدوم النهار. بلغتُ المحل مع آذان الفجر وهو يبدد عتمة أسمرا. عقب الصلاة قدِم الحاج برهان، وبدأت المحال فتح أبوابها تدريجياً. مع ضوء الصباح بدأ صخب السوق يطغى على كل شيء عدا ضجيج رأسي، وانتظاري لصلاة الظهر، موعد لقائي بسلمى.

جاهدتُ كي لا يلحظ الحاج قلقي. لم أكن جاهزاً لأي طارئ آخر يمنعني من لقائها، إلى أن جاء الخلاص:

«أراكَ بعد العصر، سيأتي سايمون لأخذ بضاعته، لا تطلب منه شيئاً فقد دفع مقدماً»

لوهلة شعرتُ بالورطة، غير أن ابتسامة جبريل الماكرة أنقذتني. غادر الحاج برهان، فتركتُ بضاعة سايمون لدى جاري، وانطلقتُ إلى مَرسى فاطمة.

هذه المرة وصلتُ في موعدي. كان الشارع مكتظاً. بقيتُ في مكاني المعتاد. رمقتني طالبة بوجل وغادرتْ، كانت إحدى صديقات سلمى. اكتفيتُ بابتسامة عجلى وعدتُ ببصري إلى الحشود.

يمرّ الوقت بطيئاً دون أن تظهر سلمى. أشعر بنفسي كإناء مثقوب، يستنزف الانتظار صبري، مهما حاولتُ التجمُّل بالصبر. من جديد بقيتُ وحدي في مَرسى فاطمة. كان سؤال العم بطرس كتلك المحاولات اليائسة التي نقوم بها مع يقيننا بعدم جدواها، وقد كان.

عدتُ إلى المحل باكراً، كانت هذه إحدى المرات القليلة التي أقضي فيها الظهيرة في السوق منذ عرفتُ سلمى. أعاد لي جبريل بضاعة سايمون، وملامحه تحمل سؤالاً عن عودتي السريعة.

«لم أتأخر هذه المرّة، ومع هذا لم تأتِ. لا أعرف كيف لم ألمحها وقد مررتُ ببصري على كل الوجوه. لا بد أنها غاضبة».

بملامحه الهادئة حاول جبريل إخراجي من حالة الخيبة التي تملَّكتني. رغم تقارب أعمارنا، اعتدتُ على دوره الأبويّ هذا منذ قدمتُ إلى أسمرا. كان هذا منذ أربعة أعوام حين غادرتُ قريتي الصغيرة قرب «قِنْدَع» بعد وفاة أمي، وتحت إلحاح خالي، حين اشتدت وطأة الأمن على العاملين في معهد قندع الديني.

الانتقال من قريتي الجبلية الوادعة، حيث الوجوه المألوفة والحياة الرتيبة، إلى ضجيج أسمرا، كان يشبه الولادة من جديد. لم يكن سهلاً أن أنزع رداء معلّم الخلوة، لأغرق في سوق المدينة كبائع في متجر للأقمشة. طيبة الحاج وعطفه خفّفا من صدمة هذا التحول الكبير، قبل أن يأتي جبريل ويمنحني فرصة التأقلم مع أسمرا، مع أضوائها، وناسها، وحكاياتها التي لا تأتي متشابهة أبداً.

على خلاف ما يحدث هنا، كان الوقت في القرية يمضي على

مهل. أبدأ يومي الطويل عقب صلاة الفجر في بيتي بتعليم الصبية اللغة العربية التي تعلّمتها على يد والدي، وأتقنتها في المعهد الديني. أطوف بعد ذلك على تخوم القرية بعشر غنمات هي كل ما تركه والدي قُبيل استشهاده في حرب الاستقلال، لأعود بعد العصر حيث ينتظرني الصبية على باب البيت من جديد. كان كل شيء يمضي بالرتابة ذاتها كل يوم دون أن أشعر بالحاجة إلى فعل شيء جديد، أو إلى فعل الشيء نفسه بطريقة مختلفة.

حدثٌ وحيد زلزل قندع، وامتدت آثاره إلى قريتي والقرى المجاورة، فبدّد حالة الرتابة وأبدَلها بأجواء لاهبة. كان ذلك حين اختفى معظم مدرِّسي معهد المدينة الديني بين ليلة وضحاها، واحتاجت المنطقة إلى وقت حتى تُدرك السبب.

تحولت الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة إلى حلم بالنسبة إلى الشباب المتدين في قندع، بخاصة بعد عودة أوائل مَن التحقوا بها وقد ظهر نبوغهم في علوم الدين واللغة. بدأتْ أفواج الشباب تغادر قندع إلى «المدينة»، وكلما عاد خرّيج التحق بالمعهد الديني كمدرِّس، حتى تحول المعهد بدوره إلى وجهة يقصدها طلبة العلوم الدينية من كافة مناطق إرتريا.

بدأ دور المعهد يكبر ويظهر أثره المتعاظم مع كل حفل تخرُّج. كنّا نتقاطر رجالاً ونساء على ساحة الاحتفال من كل القرى المحيطة بقندع، لنشاهد عروضاً في الفنون القتالية، ونستمع إلى أحدث الأناشيد الجهادية القادمة من السعودية.

لبيك إسلام البطولة كلنا نفدي الحمى

لبيك واجعل من جماجمنا لعزّك سلّما

في المقابل كانت أسمرا تضجّ بصحفيين يحذِّرون من تحوُّل المعهد إلى كوّة تنفذُ منها الوهابية إلى البلاد.

لم يمر وقت طويل، حتى أصبح الطلاب على غياب جماعي لمعلِّميهم. بحثوا عنهم، سألوا الشرطة، سألوا حاكم المديرية، لا أحد يعلم. توقّفت أنشطة المعهد، غابت مظاهر الوهابية، شعر الصحفيون في أسمرا بالزهو. طُويت صفحة المعهد الديني للأبد، ولحقته الصحافة التي طال أصحابها الاعتقال، وأصبح مجرد السؤال عن المختفين في الجانبين جريمة، فعادت قندع، قسراً، إلى رتابتها المعتادة.

هذه الرتابة وضعت أسمرا حداً لها. جبريل أيضاً لم يكن من أبناء أسمرا، جاء إليها من «كَرَن»، لكنه تآلف معها سريعاً وأنهى غربته قبل أن تبدأ. نقل والده تجارته في الأقمشة من المدينة الصغيرة إلى العاصمة، حين بدأتْ في الكساد، وكان طبيعياً أن يتشرَّب الشاب المهنة كونه الوحيد بين إخوته مَن لازَم أباه لحصوله على إعفاء من التجنيد.

اعتدتُ على خدمات جبريل التي لا تنتهي. أتذكر كيف علّمني قيادة السيارة فكان ذلك فتحاً عظيماً بعد أن كنتُ لا أقود إلا غنماتي. مؤخراً أصبح اهتمامه بالمحل في أثناء لقائي بسلمى لا غنى عنه، قبل أن يصبح شاهداً على أعظم حكاية في حياتي.

خطر لي القيام بشيء مختلف هذه المرة.

تركتُ لجبريل تدبّر أمر الحاج برهان وتوجهتُ فجراً صوب مَرسى فاطمة. لم يكن الشارع قد استيقظ بعد.

اخترت مكاناً مختلفاً عما اعتدنا عليه. أردتُ مباغتة سلمى التي ولا شكّ تتجنب لقائي. لم أنتظر كثيراً حتى بدأت الحركة تدبُّ في الشارع، وأفواج الطلبة تفدُ من أماكن مختلفة. كنتُ بأكملي عين ترقب مجيئها.

مجدداً لمحتُ صديقتها. كانت تنظر إليّ، وفي عينيها نصف رغبة في الحديث. أشرتُ لها فتوقفتْ، أدركتُ أنها أكملت النصف الآخر فتقدمتُ نحوها:

«أين سلمى؟ لم أرها منذ يومين. . أعرف أنها غاضبة. . لكني بحاجة إلى الحديث معها. . لشرح. . ».

«سمعتُ أنها رُحّلتْ إلى ساوا. . »

بلعتُ ريقي، وأنا أُحاول التأكُّد مما سمعتْ، قبل أن تُكمل:

«يُقال. . إن المدير استدعاها بعد أن تكرَّر رسوبها، لتجد في انتظارها موفداً من لجان الأحياء المسؤولة عن ترحيل الشباب إلى ساوا».

«لكنّ الرسوب في الصف الثاني أمر يشترك فيه معظم الطالبات. . لماذا سلمى بالذات؟ كيف تُقبل في ساوا وهي. . »

أوشكتُ على فضح سرّنا بسؤال آخر، لكني عدلتُ في آخر لحظة. أجابت الفتاة عن سؤالي الأول:

«كان واضحاً أنها تتعمد الرسوب كي لا تُكمل سنتها الأخيرة في ساوا، هي متفوقة كما تعلم، ولهذا ألزمَتْها الإدارة بكتابة تعهّد بعدم الرسوب هذه السنة، لكنها رسبت مجدداً».

غادرت الفتاة مسرعة بعد أن صبّت في أذني كلماتها الحارقة.

بقيتُ في مكاني واجماً أرقبُ خطواتها حتى توارتْ خلف باب المدرسة الكبير. انتقل ثقل ما أخبرتني به إلى قدمي التي شعرتُ بها عاجزة عن حملي. لوهلة خطر لي أنّ الفتاة تكذب برغبة من سلمى، غير أني صرفتُ عني الفكرة حين تذكرتُ أنها لا تحبّ هذا النوع من الحيَل المؤذية. كما أني لم أفعل شيئاً يستوجب هذا القدر من الترويع.

يا الله.. لا أستطيع تخيل أن تغادر سلمى إلى ساوا، بعد أن كانت ترتعب لمجرد نطق الاسم.

كثيراً ما كانت تتمنى أن تكون وحيدة والديها مثلي كي تنال إعفاء من «قولقلوت». كنت أشاكسها ببرودي، لكنّ قلبي كان يرتجف لخوفها.

«خلا بيتنا إلا مني وأختي الصغيرة، التحق إخوتي الأربعة بساوا، وتركوا أمي بلوعة فراقهم وهم أحياء. لا يمرّ يوم دون أن يهدّها الخوف من أن يلاقي أحدهم مصير والدي الذي استشهد في حرب «الوياني».

أتذكر كلمات سلمى الأولى. كانت تقطر خوفاً، رغم أننا كنّا للتو نشرِّع نافذة حكايتنا بعد أشهر من عاطفة صامتة.

أذكر تماماً يوم جاءت إلى المحل أول مرة برفقة والدتها، لم أنم ليلتها وأنا أسترجع ملامحها، وتلك الابتسامة التي خصّتني بها دون مقدِّمات. كانت المرة الأولى التي ينتزعني فيها شيء من تفاصيل تجارة الأقمشة، وربكة حياتي في أسمرا، وحنيني الدائم لقريتي الصغيرة.

كانت تقف إلى جوار والدتها في المحل المقابل، ساهمة في البعيد، وأنا ساهمٌ فيها. أطوّقها بنظراتي، أحرسها كقفص يسكنه طائر مهادن لا ينوي الفكاك. غيّرت مكاني قليلاً ما أن حلّت فتاة بيني وبينها. اضطررتُ لتغييره من جديد، مع حركة مباغتة من الفتاة. كمن أحسّت بنظراتي التفتتْ إليّ سلمى بشكل مفاجئ. ارتبكْت، لكنّ ابتسامة حانية منها بددتْ ارتباكي، ابتسمتُ، فعادت الفتاة حائلاً بيننا، هذه المرة وابتسامتها تغطي وجهها بالكامل. حاولتُ تفاديها، لكنها بدأت تطاردني، كانت تطوقني بنظراتها، تحرسني كقفص يسكنه طائر متمرِّد ينتظر الفكاك.

لم أنتبه قبل هذه اللحظة لهذه الفتاة التي ظنَّتني أبتسم لها. كنتُ أراها شيئاً يعوق بصري عن مساره الساحر نحو سلمى، لكني الآن مضطر للانتباه لها، وقد شتِّتْ انتباهي عن سلمى. ابتسمتُ لها بفتور، وصرفتُ نظري. ظننتُ أنها أشاحتْ نظرها، لكني وجدتها على حالها بمجرد أن عدت.

لم ينقذْني إلا سلمى، وهي تغيّر مكانها. ابتسمتْ من جديد، فابتسمتُ. أدركت الفتاة أنها في المكان الخاطئ، قبل أن تغادر تماماً بمجرد أن قدمتْ سلمى إلى محلّي، وأنارته.

في تلك اللحظة كانت لي أمنية وحيدة: أن تبقى سلمى طوال وجودي في المحل. وكنتُ في المقابل لا أملك المغادرة طالما ظلّت فيه. كنتُ أبحث عن لحظة خالدة.

لم أكن أُدرك ما يجري، غير حالة قلق استبدّتْ بي في انتظار أن تأتي الفتاة مجدداً.

كنتُ أتحايلُ كي أمنح نفسي فرصة رؤيتها مرة بعد أخرى. أُبدّل متعمداً بين بضاعة أمها وأخريات. أضرب لهما موعداً وهمياً لقدوم بضاعة جديدة. أعدهما بفترة تخفيضات وشيكة، وكانت سلمى تقابل ذلك كله بالابتسامة ذاتها التي تطرد النوم من عينّي.

ثم بدأتْ في الكلام، لأجد نفسي مأخوذاً ببدء حياة مختلفة في أسمرا:

«لديّ بعض الوقت بعد خروجي من المدرسة، قد يكون هذا أنسب من إرهاق والدتي بحيَلك المفضوحة»

منذ ذلك الوقت انتقلتْ حيَلي مع والدة سلمى إلى الحاج برهان الذي كان لا يفوّت قيلولة الظهيرة، وكنت مثله لا أفوّت الظهيرة وإن لسبب مختلف.

تحضر الآن كل أسبابي للتمسك بسلمى، للتشبث بحياتي معها وبها، وقد صارت حياة حقيقية.

أخذتني خطاي إلى بيتها. لم أكن أعرف ما الذي أريد فعله بالتحديد. كنت محتاجاً للاقتراب من أقرب نقطة تعنيها. لم يكن ممكناً سؤال والدتها التي لا تعرف بعلاقتنا. بقيتُ قبالة البيت دون تفكير في خطوتي المقبلة. تخيلتها تخرج عبر هذا الباب الأخضر، تبتسم لي ابتسامتها الصافية فتمسح هذا الكدر عن جبيني. تُخبرني أنها أوقعتني في حيلة مُحكَمة تجعلني أفكّر ألف مرّة قبل التأخُّر عن موعدها. بقدر ما عشتُ أمنيتي هذه وجدتني أبتسم دون وعي، لكني سرعان ما عدتُ إلى حالة الكدر.

اقتربتُ من نافذتها الخشبية، فانثالتْ عليّ ليالي نهاية الأسبوع

حين كنتُ أنتظر خلو «كزَبَندا طليان» من المارة لأخلو بصوتها الدافئ:

«بلنيتا. . نايكي أنا. . بلنيتا

لا لبكَ اندا فتيني. . انت قِلمّي تريمنّي

فتيكوكي من تبل. . عقب يديبا أو كِجل

بلنيتا. . نايكي أنا . . بلنيتا».

تتماهى سلمى مع «هيلين مِلّس»، مطربتها المفضّلة، فتُشرَع النافذة على حدائق من السحر. حين تغنّي سلمى لا يعود يشغلني شيء غير ألق يشعّ من عينيها ليملأ روحي بالبهجة. حين تغنّي يتسرب غناؤها إلى الماء والأشجار وحجارة الطريق، فيتشرّب كَزَبندا طليان فرحاً لا ينتهي.

«أنا لكِ».

أقولها منتشياً، فتخفض سلمى عينيها. أرجوها أن تواصل الغناء فتمتنع عقاباً لي، لكنّي أجد في صمتها نافذة أخرى أطلُّ منها على ملامحها الآسرة.

«لا مهرب منك يا شقيّ».

تقولها بغنج فيفور داخلي. أطلب منها الاقتراب أكثر، فتقطّب حاجبيها بغضب مصطَنَع لا يخفي لهفة عينيها. أقتربُ خطوة فتفرد ذراعيها وتمسك بطرفي النافذة دون أن تغلقها، أقتربُ أكثر فلا تتحرك. أقتربُ، فتغمض عينيها وتسافر في عطشي.

لكنّ نافذة سلمى الآن صمّاء بلا ذاكرة.

مع خروج رجل من المنزل المجاور تقدمتُ نحوه وأنا أسأل عن منزل أمّ سلمى التي طلبتْ مني أقمشة مستوردة. نظر الرجل في يديّ الفارغتين، وهو يشير إلى المنزل، ثم همّ بالمغادرة، شعرتُ أني لم أستفد شيئاً من سؤالي، فأضفتُ سؤالاً آخر عما إذا كان الوقت مناسباً لطرق الباب. وجد الرجل سؤالي غريباً دون أن يمنعه ذلك من الإجابة:

«أظنها تمر بوضع صعب، فقد اختفت ابنتها، وراج في الحي أنها رُحّلت إلى ساوا، وإن كنتُ أعتقد أن هذه كذبة أرادت بها العائلة صرف الأنظار عن هرب ابنتهم إلى السودان».

بدا الرجل في جملته الأخيرة وقد استجمع حالة حنق لم يستطِع إخفاءها وهو يتحدث عن أمّ سلمى، خاصة حين أتبعها بجملة أخرى:

«هذا تصرف غير وطني اشتهرتْ به هذه العائلة، كيف يحرمون قواتنا المسلحة من أحد أفرادها بهذه الأنانية؟»

تمنيتُ الردّ عليه بما قدمته هذه العائلة من تضحيات، لكني تنبهتُ أن ذلك سيفضح أني أكثر من مجرد بائع للأقمشة.

غادر الرجل، وتبعته هائماً في شوارع أسمرا. كانتْ سلمى تتبدى في الطرقات فتصبغها حزناً وكدراً، تصرخ بي بعد أن استحالت مخاوفها واقعاً لا فكاك منه. أمرُّ بشوارع فسيحة، غير أن ضيق روحي يجعلها خانقة. أهرب منها إلى الساحات العامة، لكنّ شعوري يبقى على حاله.

«لماذا أحببتني؟»

لا تملُّ سلمى من طرح هذا السؤال. كنتُ أتفننُ في الرد عليه بإجابة مختلفة كل مرة. وكانت تبتسم حياء وترجوني التوقف، لكنها تُعيد سؤالها في اليوم التالي فأعود بإجابة جديدة:

«كلما أحببتكِ، كلما شعرتُ بوجودي أكثر، بطعم الأشياء وحضورها البهي، بالسماء، بالأرض، بالناس، بأصواتهم، وملامحهم. حُبّكِ وحده قادرٌ على منح كل ذلك صفاته الكاملة».

وكإجاباتي المختلفة، كان وجه سلمى قادراً على منحي شكلاً جديداً للبهجة كل مرة. كان يكفيني النظر في وجهها مرة ليمدّني بما أحتاجه لبقية العمر، وكنتُ لا أُفوّتُ النظر كل مرة.

في وجهها يستوطن بهاء قديم لم تحرمه الأيام نضارته الأولى. ومن وجهها ينضح عطر سماويّ يشبه ما يمنحه المطر لتراب الأرض. وعند وجهها تتزاحم حكايات الحُسن، وقد تخلّتْ عن نهاياتها الحزينة.

عُدت إلى السوق قبل الظهر. وجدتُ الحاج برهان أمامي، لم أكن أعرف بماذا برّر جبريل غيابي، غير أن الحاج كفاني ذلك:

«لماذا جئت؟ يبدو عليك التعب بالفعل. لماذا لا تعود إلى البيت وترتاح؟ سأتولى أمر المحل في غيابك»

شكرتُ الحاج وأخبرته أني أتحسن، لم يقتنع بسهولة، وذهب وهو يرجوني المغادرة في حالة اشتداد مرضي. اقترب مني جبريل قلقاً، سألني عمّا جرى، فجَرَتْ على لساني إجابة يتيمة:

«سلمى في ساوا، وسألحق بها».

(3)

على عتبات كاتدرائية القديس جوزيف في كمشتاتو، انتظرتُ فراغ الشارع من المارّة. كانت هذه وصفة جبريل بعد محاولاته الكثيرة لثنيي عن قراري، وبعد أن أصرّ على تكرار البحث عن سلمى دون أن نخرج بنتيجة مختلفة.

«كيف تُقبل في ساوا وهي حامل؟»

لم أكنْ أملك إجابة عن سؤال جبريل الذي يعرف سرّنا، غير أني خمَّنتُ أنها أخفت ذلك خوفاً عليّ، خصوصاً أنها في بداية الحمل. هزّ جبريل رأسه باقتناع.

عند منتصف الليل خلا كمشتاتو تقريباً، فصرتُ أترقب «الكَشِّة».

لم أكن معنياً في السابق «بالقولقلوت»، كانت بطاقتي الشخصية تفيد بإعفائي من خدمة التجنيد الإجبارية، فقط كان يتناهى إلى مسامعي أن فلاناً أُقتيد إلى هناك، وآخر عُوقب لأنه حاول الفرار، لكنها في النهاية كانت حكايات عابرة لم أكن يوماً طرفاً فيها.

لكني اليوم في مواجهة حكايتي التي سيتعامل معها الآخرون ربما كحكاية عابرة، لن يستوقفهم الشاب الذي قدِمَ من قريته إلى

العاصمة، ثم اختار بملء رغبته أن يذهب إلى ساوا، سيضيفون قصته إلى آلاف القصص التي يعرفونها ثم سرعان ما ينسون. لن يصبح في نظرهم بطلاً، أو مناضلاً كامل الوطنية، لأنهم سيعرفون لاحقاً أنه ما فعل ذلك إلا للّحاق بحبيبته، فلا شيء في أسمرا، يبقى سراً إلى الأبد.

لوهلة خطرَ لي أن أتراجع، أن أؤجل خطوتي هذه على أقل تقدير، أن أمنح نفسي فرصة أكبر للتفكير في عواقب قراري. استرجعتُ حديث جبريل:

«هل تعلم أنك بقرارك هذا تحكُم على نفسك بحياة أبدية في إطار العسكرية؟ هل تُدرك أنك لن تعود إلى حياتك الطبيعية هذه أبداً، بل ستقضي عمرك في ميادين التدريب متنقلاً بين حمل السلاح، ومواد البناء؟»

تطرقُ أسئلة جبريل في رأسي وكأني أسمعها للتو. كأني صحوتُ الآن بعد غيبوبة طويلة كنت لا أرى ولا أسمع فيها إلا قرار اللحاق بسلمى.

ولكن ماذا عن سلمى؟ ماذا عن الفتاة التي اختارتْ أن تمنحني حياة لم أعِشْها من قبل؟ ماذا عن قلبي الذي ضبط نبضاته على إحساسها، وابتسامتها، وحتى غضبها؟

باتت رأسي ساحة حرب لأسئلة متناقضة، لا ينتصر فيها طرف إلا بهزيمة الآخر.

لم تُخرجني من استغراقي هذا إلا عربة شرطة تتجه نحوي. تضيقُ المسافة بيني وبين قراري النهائي، بين اللحاق بسلمى أو

البقاء في انتظارها، بين أوجاعي في مطاردتها وأوجاعي دونها.

توقفت العربة أمامي تماماً، ولم أصل بعد إلى خطوتي التالية. كانت بطاقتي الشخصية في جيبي، مجرد إبرازها سيُنهي الأمر وأعود إلى بيتي، لكنّ وجه سلمى أيضاً كان أمامي، مجرد النظر إليه يعيدني إلى غيبوبة القرار الواحد.

ترجَّل شرطيان من العربة، اتجها نحوي، لم أتحرك، كانت الحركة تضجُّ في رأسي. سألني أحدهما عن بطاقتي الشخصية، أغمضتُ عيني، تمنيتُ لو أختارُ جواباً عشوائياً تلعب الصدفة فيه الدور الأكبر، ثم أفاجأ به وأرضى بحظي، تمنيتُ لو يُدخل الشرطي يده في رأسي ويعبث بأفكاره المتناقضة قبل أن ينتزع فكرة وحيدة، تصبح هي قراري النهائي.

أعاد الشرطي سؤاله بلهجة حازمة. فتحتُ عيني، نظرتُ في عينيه تماماً وقذفتُ بجوابي:

«لا أملك بطاقة شخصية».

في المقعد الخلفي لعربة الشرطة ووسط ضجيج جهاز اللاسلكي، بدأ الدوار يتسلل إلى رأسي الدامي نتيجة هراوة نزلت عليّ بمجرد أن أتممتُ جملتي تلك. معظم البلاغات تتحدث عن حالة فوضى في «وارساي». التفتَ إليَّ أحد الشرطيين وسألني إن كنت سكران، أجبته بالنفي، لكنه مدّ يده وأمسك فكي بعنف، جذبني إليه حتى كدت ألامس وجهه، قبل أن يقذف بي بشدة إلى الوراء.

تحركت العربة ببطء، بينما كان شعوري بالدوار يزداد،

أغمضتُ عيني لبعض الوقت لكني انتبهت فزعاً إلى صوت أحد الشرطيين وهو يطلب من صاحبه التوقف. كان عدد من الصبية والفتيات يتمايلن وسط ضحكات عالية في شارعٍ جانبي. فتح الشرطيان الباب وانطلقا صوب المجموعة، قبل أنْ يعودا ومعهما فتاتان وصبيان مكبّلان. كنتُ أراقب المشهد من مقعدي دون حراك، مالَ عليّ الشرطي فظننته سيضربني مجدداً، لكنه كان أقل فظاظة:

«لماذا لم تهرب؟»

لم أجد إجابة تناسب وضعي فاخترتُ الصمت. فتح الباب بهدوء وطلب مني النزول، احترتُ كيف أشرح له رغبتي في البقاء، كنتُ أنظر إليه ولساني عاجز عن النطق، كان الشرطي الآخر ينهال بالضرب على المجموعة، قبل أن ينظر إليّ بحنق:

«هيا انزل، لا تتّسع العربة لكم جميعاً».

انطلقت السيارة مسرعة وتركتني وحيداً من جديد.

جلستُ على مدخل إحدى البنايات منهكاً بعد أن ملأ الدم قميصي، بقيتُ أسترجع محاولتي التي لم أجنِ منها إلا تلك الهراوة الصلبة. خلعتُ القميص وربطتُ به رأسي. خطر لي العودة إلى البيت والبحث عن طريقة لتكرار المحاولة في الغد، لكني عدلتُ بمجرد أن تذكرتُ «وارساي»، وبلاغات الشرطة التي كانت تطالب بسرعة التوجه إلى هناك للقبض على سكارى مثيرين للفوضى.

بعد ساعة من السير بلغتُ المكان. لم أجد غير أصوات الموسيقى الصاخبة، والحانات المتراصة إلى جوار بعضها وقد أحالتْ أضواؤها المكان إلى نهار. لم يسبق لي زيارة المكان من

قبل، ولم أكن أعرف كيف سأتصرَّف كي أتفادى ما حدث معي في كمشتاتو.

اقتربتُ من إحدى الحانات. فكّرتُ في الدخول وافتعال مشكلة ما، غير أني تذكرتُ تلك الهراوة التي شجَّت رأسي دونما سبب. وبينما أنا مشغول بتردُّدي، سمعتُ صراخاً وأصوات عراك على مدخل حانة منزوية. لم أكد أتبيَّن الموقف حتى علتْ أبواق عربات شرطة، أدركتُ وقتها أنّ فرصتي في اللحاق بسلمى قد حانت بلا شك.

مع قدوم العربات كنتُ قد توسطتُ العراك، تلقيتُ لكمة مفاجئة أطاحتْ بي، عاودتُ النهوض في انتظار الشرطة، كنت جاهزاً تماماً بعد أن أصبحتُ طرفاً في المشكلة دون عناء. كنتُ أشعرُ بالنشوة رغم إحساسي بالألم. ترجّل رجال الشرطة وهرولوا باتجاهنا، فرَّ الجميع في اتجاهات مختلفة، بينما اخترتُ التحرك نحو الشرطة والابتسامة تغطي وجهي.

تجاوزني أول شرطي، ومثله فعل الثاني، وحين أراد الثالث التوقف عندي صرخ به زميله:

«اتركه.. هذا مجنون».

دون تفكير أمسكتُ بالشرطي، وكأني أتشبث بفرصتي الأخيرة للقاء سلمى، صرختُ به أني بكامل وعيي، لكنه رفع في وجهي هراوته فتراجعتُ أمتاراً وأفسحتُ له الطريق. عاد الهدوء إلى وارساي، لكني بقيتُ على قلقي وأنا أسترجع كلمات جبريل:

«إذا كنت مصرّاً على رأيك فيجب أن تستعجل في اللحاق بها قبل أن تبتلعها ساوا بألويتها وتشكيلاتها العسكرية المعقدة».

ماذا أفعل وقد استنفدتُ طاقتي وحيَلي؟

تسير أقداري عكس ما أرجوه، وكأنها تميل بثقلها لترجّح كفة البقاء في أسمرا، وترْك سلمى لمصيرها الغامض. قد يأتي اليوم الذي أشرح فيه لسلمى كم تألمتُ لفراقها، ستعرف كيف عاندتني الظروف للحاق بها، ستقدّر ذلك ولا شك.

أخذتني هذه الأفكار باتجاه البيت، كلما خطوتُ خطوة كان قرار البقاء يكبر داخلي، شعوري بالإنهاك خفّف إحساسي بالذنب، واستبدله بأفكار أخف وطأة: سأرسل مالاً لسلمى، سأرعى والدتها وأقوم على خدمتها، سأكون في انتظارها حبيباً مخلصاً مهما مضى من عمر.

أدخلتُ المفتاح في ثقب الباب، لا أعرف لماذا شعرتُ أنّ مجرد الدخول إلى منزلي لن ينهي ليلتي هذه فقط، بل حياة كاملة عشتها بكل تفاصيلها. عدتُ إلى خوفي. لم أكن مستعداً تماماً لطيّ صفحة عامرة بالسطور، لإغلاق نافذة تطلّ على عمر منتظر، لوأد أحلام في مقتبل البهجة. لم أكن مستعداً تماماً لدخول حياة جديدة لا أملك فكرة عما ينتظرني فيها.

«أصبحتُ أخاف منكَ، من مجيء يوم تتخلى فيه عن حبّي بسهولة».

«لن تجدي عاقلاً يضع نهاية مفجعة لحياة سعيدة، كيف أُطوّح بالعمر القادم من أجل لا شيء؟ بل أنا من يخاف أن يتخلى حبك عنّي بسهولة».

سحبتُ المفتاح وأرجعته إلى جيبي بمجرد أن تذكرت حواري

ذاك مع سلمى، بقيتُ هكذا أمام الباب واضعاً مسافة دون هذا القرار المصيري. يا الله ما أقسى أن تصبح كل القرارات مصيرية إلى هذا الحد، أن يكون مقبضها حاداً لا يكفّ عن وخز يدي العارية.

فكرتُ أني خلف هذا الباب سأضع تعبي جانباً، لكني سأرتدي تعباً آخر قد يلازمني إلى آخر العمر. سأنسى ليلتي هذه، لكني سأتقلّب ليالٍ في ذاكرة حارقة. سأعيش دون سلمى، أو بالأحرى، سأموت دونها.

سلمى..

كالملدوغ تراجعتُ خطواتٍ أخرى، ابتعدتُ عن البيت أكثر، لم أكن أملك وجهة غير تلك التي تُبعدني قدر المستطاع عن الباب، عن الحد الفاصل بين عالمين، أحدهما مجهول، والآخر جنة تتسرب من بين يديّ.

كنتُ قد بلغتُ الطريق المؤدية إلى «الانتركونتيننتال»، استوقفني على رأس الشارع مركز شرطة وحرّاسه يملؤون مدخله. اتجهتُ صوبه وقد دبّ النشاط في دمي ونسيتُ آلامي.

«أريد الذهاب إلى ساوا».

لم يُعِر الضابط حديثي اهتماماً، رمقني من تحت نظارته قبل أن يعود إلى ملفٍّ بين يديه. أعدتُ جملتي، فوضع الملف جانباً وتفحصني. تابعتُ كلامي:

«لستُ سكران ولا مجنوناً، أنا مواطن وأريد تأدية القولقلوت، حاولتُ شرح هذا لدورية شرطة لكنهم تجاهلوني».

طلب الضابط بطاقتي الشخصية فترددتُ في إخراجها، أعاد طلبه، فقدّمتها إليه على مضض.

كان لا يزال على صمته وهو يقلّب بطاقتي، بينما دقّات قلبي تتعالى مع كل لحظة صمت تمضي، إلى أن سألني بنبرة جافة:

«هل تسعى للحصول على بيت بسعر مخفّض؟»

«لا. أُريد فقط الذهاب إلى ساوا»

عاد الضابط إلى صمته المُربك بعض الوقت، قبل أن ينطق أخيراً وقد تبدّلت ملامحه قليلاً:

«هذا عمل نبيل منك تجاه وطنك، سأكتب هذا في ملفك ليمنحك فرصة أكبر للترقي في مراتب الجيش. من النادر أن نجد معفياً من التجنيد يتقدّم طواعية إليه. املأ هذه الورقة، وكن جاهزاً للذهاب إلى ساوا بحلول اليوم العظيم».

«ومتى هذا؟»

«بعد أسبوعين»

ساوا

(1)

مع حلول الفجر كانت ساحة مسكرم التي ينتهي عندها شارع كمشتاتو، قد بلغت ذروتها في الازدحام. حشود الشباب والفتيات برفقة عائلاتهم ملأت الساحة الكبيرة، جنباً إلى جنب مع شاحنات تابعة للجيش.

بحقيبة وحيدة كنتُ أسير بصعوبة وسط كمٍّ هائل من الأمتعة تناثرت بشكل عشوائي. كنتُ أتفحّص ملامح الناس، وتخترق أذني أحاديثهم الصاخبة التي تدلُّ على قدومهم من مناطق مختلفة.

صعد ضابط يحمل ميكرفوناً على إحدى الشاحنات، فخفَتَ الضجيج إلى أن حلّ محله صمت مطبق. حيّا الضابط المجنّدين وأسرَهم، وذكّرهم بشرف الانضواء إلى لواء القوّات المسلحة:

«. . أنتم شرفاء، لستم كأولئك الخونة الذين يتهرّبون من الخدمة الوطنية. لا معنى للحياة بعيداً عن العسكرية، وبعيداً عن حماية الوطن الذي يتربّص به الأعداء من كل جانب».

صفّق المجنّدون بحرارة قابلها الضابط بزهو، قبل أن يخبرنا أنّ كلّ شاحنة تحمل قائمة بأسماء ركّابها. بدأتُ كالآخرين أبحثُ عن شاحنتي قبل أن تستوقفني حالة بكاء جماعية بدأت تسري في الحشود. كان عناق الأمهات لأبنائهن حاراً وكأنه الوداع الأخير،

بينما كنتُ وحيداً بعد أن أحطْتُ قراري بالكتمان، إلا عن جبريل الذي ودّعته بالأمس.

وجدتُ اسمي أخيراً على شاحنة امتلأتْ بالمجنّدين وحقائبهم. صعدتُ بصعوبة وحشرتُ نفسي في إحدى زواياها. بدأت الشاحنات في التحرك فعَلا نحيب الأمهات. شاحنة تلو أخرى كانت تغادر الساحة وسط حراسة أمنية، وأنا ساهِمٌ في وجوه المودّعين. فجأةً ظهر لي من بين الجموع جبريل، وهو ينقّل بصره بين الشاحنات. لوّحتُ له فهرول نحوي مسرعاً وتعلّق بالشاحنة المتحركة، ظننته يحاولُ مصافحتي فمددتُ له يدي، لأجده يدسُّ فيها مظروفاً ويقفز عن الشاحنة، ثم ظلّ يلوّح لي حتى تلاشتْ ملامحه بين الوجوه.

فشلُ جبريل خلال الأسبوعين الماضيين في ثنيي عن قراري جعله يحاول مساعدتي مادياً، ويبدو أنه لم يشأ أن يخرج خاسراً في كلتا المحاولتين. بدوري كنتُ قد اعتذرتُ للحاج برهان عن مواصلة العمل متعللاً بعودتي إلى مهنة التدريس التي أحبّها في ضواحي أسمرا، ورجوته ألا يُخبر خالي كي لا يغضب.

ضواحي أسمرا التي اخترعتها لم تكن في الحقيقة إلا مَرسى فاطمة. فقد كنتُ أقضي معظم النهار في الشارع الذي جمعني بسلمى. وجدتُ فرصة أكبر للتعرف على تاريخه وناسه بعد أن كنتُ لا أرى فيه إلا مواعيد الظهيرة.

«مَرسى فاطمة اسم أطلقه «الجَبَرتة» على هذا الشارع تيمناً باسم جزيرة مباركة قرب مصوع سكنتها امرأة صالحة من نسل الصحابة،

ليحلّ محل اسم الإمبراطورة «مِنِّنْ» زوجة «هيلاسلاّسي»، والتي اختارته دون سواه ليحمل اسمها»

كان العم بطرس يسترسل في تاريخ الشارع كلما فرغ متجره من الزبائن:

«هنا يسكن مسلمون ومسيحيون ولادينيون، ولعلك لاحظتَ أنّ الشارع يبدأ بكنيسة إندا ماريام وتنتهي تفرعاته عند جامع الخلفاء الراشدين، وقد بناه الإيطاليون بأموال تاجر يمني استوطن أسمرا. هنا تتجاور بيوت الأغنياء والفقراء، وكذلك قلوبهم. هنا أيضاً لا تجد أسرة لم تفقد حبيباً في حرب الاستقلال. مَرسى فاطمة يمثّل وطناً رحباً لكل سكانه»

لم أكن قبل ذلك منتبهاً لكل هذه التفاصيل، أو بالأحرى لم أكن معنياً بها. كنتُ أحاديّ النظرة والوجهة والقصد. كانت سلمى هي مرساي تتجاور فيه كل رغباتي دون أن تجد مكاناً أكثر إغراءً، كانت جزيرتي المباركة تتفتّح في جنباتها سلالات القديسين، وكانت وطني الرحب تنتظم فيه تناقضاتي بتناغم ساحر.

«يتوارث الأهالي البيوت هنا دون أن يفكروا في الرحيل إلى مناطق أخرى. لا يترك الواحد منّا وطنه ما لم يقم الوطن بذلك أولاً. وهذا لم يحدث أبداً في مَرسى فاطمة».

كان العم بطرس حادّاً في جملته الأخيرة، لكنني أردتُ أن أخبره أنّ ثمة أوطان تغادرنا رغماً عنّا وعنها، فلا نملك إلا أن نلهث خلفها. تمنيتُ لو أخبره أن وطني بهيٌّ كوطنه غير أن حظنا العاثر اختار أن يقف بيننا.

عدتُ عن شرودي لأجد الشاحنات المكدّسة بالمجنّدين وقد

انتظمت خلف بعضها فبدتْ كثعبان يتلوى مع انحناءات الطريق باتجاه الشمال الغربي.

اجتزنا بضع قرى في ضواحي أسمرا والأهالي يصطفّون على جانبي الطريق لتحيتنا، قبل أن نصل إلى «لُب تغراي»، وهو الطريق الحلزوني الذي يهبط بنا من علياء أسمرا الشاهق، وقد اخترق العديد من الجبال الصمّاء. كانت المرة الأولى التي أعرف فيها أنّ مَن أطلق على هذا الطريق «قلب تغراي» كان يعني صعوبة الاطمئنان لما تحمله قلوب الإثيوبيين المتقلّبة!

مررنا «بعد تكليزان»، ثم «عيلا برعيد»، حتى بلغنا كَرَن فعاد وجه جبريل وحكاياته الكثيرة عن مدينة طفولته. تذكرتُ حديثه عن السهل الواسع المحاط بالجبال من كل جانب:

«كَرَن في لغة قومية البلين تعني الحَجَر في إشارة لما تحيط بها من صخور ضخمة، كانت تسمى «سنحيت» في عصور سابقة. على أرضها تجرّع الإيطاليون هزيمة نكراء أمام الحلفاء في الحرب العالمية الثانية».

مررنا بمقبرة الإيطاليين فاستعدتُ ما كان يحكيه عن حجم خسائرهم، سرنا قليلاً فتبدّتْ قلعة قديمة تتوسط هضبة سمعتُ أحد المجندين يقول إنها البنيان الوحيد المتبقي من فترة حكم المصريين للمدينة.

اخترقت الشاحنات سوق المدينة فرأيت الأهالي وقد اصطفوا أيضاً لتحيتنا، لكني لمحتُ هنا عدداً من الجنود ينظّمون وقوفهم على جانبي الطريق.

تجاوزنا كرَن مع الظهيرة فتوقفت الشاحنات في معسكر

للجيش في منطقة «قلاس»، حيث كان الجنود يمرّون على الشاحنات ويقذفون بأرغفة خبز مع أكياس حليب صغيرة. لم يطل بقاؤنا في المكان كثيراً إذ سرعان ما تحركت الشاحنات باتجاه «حقاز»، ثم «أغوردات» التي بلغناها بعد نحو ساعتين. وعلى خلاف كرَن لم ندخل المدينة، بل مررنا بمحاذاتها فبدتْ مئذنة جامعها الكبير من بعيد.

على طول الطريق السهلي المنبسط مرّ الوقت رتيباً فعدتُ للانشغال بسلمى، بلقائي المنتظر معها، بالدهشة تملأ ملامحها وقد لحقتُ بها إلى ساوا. تخيّلتها تبكي ثم تضحك ثم تصرخ دون أن تكون قادرة على التعبير عن فرحتها بوعي مكتمل.

لم يُخرجني من تأمّلي هذا إلا أحد المجندين وهو يشير إلى ساوا. التفتُّ فلم أرَ إلا جبالاً قبل أن يكمل الشاب:

«خلف هذه الجبال تنتظرنا أقدارنا، أهلاً بكم في حياتكم الجديدة»

كانت الطريق تمتد عبر جبلين وتنتهي عند أرض جدباء مُحاطة بالجبال. على المدخل كثيف الحراسة بدتْ لافتة كبيرة:

«أهلاً بكم في معسكر ساوا.. مصنع الرجال وحامي الوطن».

شعرتُ بسلمى ترحِّب بي. تفرد ذراعيها على امتداد المدخل الكبير، دون أن تحتوي ظمأي. شعرتُ بها تضع نهاية رحلة اللحاق بها، وبداية مشوارنا الأبدي.

ما أجمل النهايات حين تكون كما نشتهي. ما أجملها حين تُشرِّع نوافذها على بدايات مُبهجة.

بعد المدخل اصطفتْ حاويات معدنية ضخمة يقف على أبوابها حراس أمن. لمحتُ عربة تتوقف عند إحدى البوابات التي خرج منها جندي يقتاد شاباً مكبّلاً، التقتْ عيني بعين الشاب الذي توقف للحظة قبل أن يدفعه الجندي بغلظة إلى داخل العربة. تبادل المجنّدون نظرات مرتبكة قبل أن يشغلهم ملعب بمدرّجات صخرية بُني على هضبة تطلُّ على الحاويات، بادر أحد المجندين:

«هذا بلا شك هو الملعب الكبير الذي سمعنا عنه، هنا تُقام أجمل الحفلات».

تقدمنا قليلاً فظهرتْ أمامنا بناية حديثة من عدة طوابق، كان وجودها غريباً وسط هذه الفراغ، وقد امتدّ بعد ذلك لعدة كيلومترات دون ظهور أي أثر، إلى أن بلغنا ساحة كبيرة على جنباتها نُصبت خيم واسعة.

سمعتُ حواراً بين مجندَين كان أحدهما يستعرض معرفته بالمكان:

«هذه المنطقة القاحلة كانت خضراء تماماً، وهي من أخصب المناطق في إرتريا، لكن بمجرد أن تمّ تهجير «الهدندوة» و«النارا» منها، حتى تمَّ تصحيرها بالكامل».

توقفتْ شاحنتنا إلى جوار الشاحنات الأخرى، وبدأنا بالنزول.

بلغنا ساوا إذن.

كنتُ أحدّث نفسي بفرح. انشغل المجنّدون بجمع أمتعتهم، بينما كنتُ مشغولاً بالبحث عن سلمى. كنت أتنقّل ببصري في كل الاتجاهات، علّها تخرج كواحة وسط هذا الجدب المترامي، كغيمة

حنون تدرأ عني غضب المكان وجفوته، كسنديانة تظلّل روحي الهائمة في قيظ لا ينتهي.

كنتُ أتمنى ظهور سلمى كأول الأماني وآخر المعجزات، كلحظة برء مفاجئة من أسقام الفَقْد وفواجعه، كنهار يمحو كل ما سبقه من أزمنة العتمة، كضحكة صافية تبدّد حُجُب الهمّ والحيرة.

طُلب منّا التجمّع في صفوف طويلة، وتكرَّر ما حدث في إندا ماريام، حيث تحدث إلينا ضابط مُرحِّباً، قبل أن يرشدنا إلى أسمائنا المعلّقة على مداخل الخيم:

«بعد أن تتعرفوا على أماكنكم سيمرُّ عليكم «مراحي قانتا» ليخبركم بجدول الغد، هذا الأمر متعلِّق بالشباب، أما الفتيات فعليهن العودة إلى الشاحنات لنقلهن إلى خيامهن».

في انتظار وصول قائد الفرقة الذي سيُخبرنا بجدول الغد، وضعتُ حقيبتي في المكان الذي خُصِّص لي، كنّا عشرة مجندين في خيمة واسعة ضمن اللواء السابع. بدا أنّ آخرين يشاركوننا المكان من حجم الأغراض المتناثرة في كل مكان.

شرَع المجندون في إخراج بعض ما تحويه حقائبهم: مذياع، لحاف، قداحة وسجائر، كانت حقيبتي خالية من كل ذلك. جلبتُ معي ملابس تكفي لأسبوع واحد، فكّرتُ أنه أقصى ما أحتاجه من وقت كي أجد سلمى. لم أشغل نفسي بما سيَليه في هذا المكان. فكرتُ أني حين أجد سلمى سأرتدي فرحي، وسيتغير كل شيء، كل شيء.

قُبيل الغروب تناهى إليّ ضجيج قادم من بعيد، خرج

المجندون لاكتشاف الأمر فلحقتهم، كانت مجموعات كبيرة من المجندين تركض في اتجاه الساحة الكبيرة. حين أصبحوا أمامنا تماماً اصطفوا في طوابير وأطلقوا صرخة مشتركة ثم توزعوا على الخيام ومنها خيمتنا التي لم يعد فيها متسع لمجند إضافي.

بدأ المجندون القُدامى في سؤالنا عما جلبناه، كان بحثهم منصبّاً على السجائر. لم أعد مثار اهتمامهم بمجرد أن عرفوا أني لست مدخناً. لم يخفف من حالة الهرج التي سادت الخيمة إلا دخول مجند نحيل بشعر أجعد كث، احتجتُ إلى بعض الوقت حتى أتبين أنه الشخص نفسه الذي رأيته مقيّداً على مدخل ساوا. توجّه الشاب بهدوء ودون أن يكلّم أحداً إلى فراشه الذي لم يكن بعيداً عني، بينما تبعَته عيون بقية المجندين بوجل.

لم يمر وقت طويل حتى دخل ضابط الخيمة فنهض الجميع لأداء التحية العسكرية، ومثلهم فعلنا نحن المجندون الجدد، عرّف بنفسه: مراحي قانتا منجوس. لاحظتُ أن الشاب النحيل ظلّ في فراشه وكأن شيئاً لم يكن، الضابط أيضاً لاحظ ذلك، لكنه تظاهر بالعكس، وسرعان ما أخرج ورقة وأخذ يقرأ منها قوانين ساوا:

«لا يحقُّ لأي مجند رفض تعليمات قادته مهما كانت قاسية. عصيان الأوامر سيعرِّضكم للعقوبة. هذا المكان بمثابة ساحة الحرب، لا مكان فيه للتراخي وتجاهل التعليمات..»

استمر الضابط في تعداد قائمة الممنوعات، بينما انشغلتُ عنه بمراقبة الشاب المتمدد على فراشه وقد غيّبته سيقان المجندين. كان يطالع كتاباً لم أتبين عنوانه من مكاني، فجأة التفتَ إليّ وكأنه شعر

بنظراتي، فصرفتُ نظري باتجاه الضابط الذي كان لا يزال يهدد ويتوعد:

«تذكروا جيداً: لا إنجاب في ساوا. مَن يتورط في هذا الأمر سيواجه أقسى العقوبات».

«عُلم»، صحنا جميعاً. أشار الضابط لأحد معاونيه الذي سارع لفتح كيس بحوزته، وبدأ يوزع علينا «أبو سلامة»، بينما سمعتُ أحد المجندين القدامى يهمس لصديقه:

«لا شيء مجاني في ساوا، سوى الواقيات الذكرية».

غادر الضابط وعاد الجميع إلى أماكنهم، بينما عدتُ بدوري إلى الشاب المنهمك في كتابه، قبل أن يقتحم الخيمة أربعة من الجنود بطريقة مفزعة، ظننتهم في البدء متَّجهين نحوي، لكنهم تجاوزوني إلى الشاب نفسه وكبَّلوه بعنف قبل أن يقتادوه إلى الخارج، لم يجرؤ أحد على اللحاق بهم لاستيضاح الأمر، بينما فهمتُ من تمتمات مجند مجاور أن «كداني» لن يتأدب حتى يلقى حتفه في ساوا.

(2)

انطلقتْ صافرة مدوّية، فنهض الجميع من حولي فزعاً.

لم أنَمْ ليلتي الأولى في ساوا. كنتُ ألمُّ شتات صور المكان وتفاصيله الغريبة عليّ، أسعى جاهداً لأطرد ارتباكي، أحيّده على الأقل. لا أريد الغوص فيما يجري هنا، سأمنحه جسدي، وأحتفظ بعقلي وروحي لمهمة وحيدة: إيجاد سلمى. هكذا كنتُ أحدِّث نفسي.

سأعيش على الهامش، على قارعة الأحداث، بينما تظلّ حياتي الحقيقية هناك، حيث سلمى فقط، أما صخب ساوا هذا فمن شأنه أن يحرف بوصلتي، ويشغلني بأمور كثيرة لا تعنيني.

كنتُ أفكّر في أقصر الطرق لسلمى، وقد فاجأني امتداد المعسكر وترامي مساحاته. أفكّر في طريقة الوصول إلى مخيم الفتيات وقد تبيّن أنه في منطقة أخرى غير التي أسكنها.

قبيل انطلاق الصافرة الثانية كان معظمنا قد أخذ مكانه في الطابور، وبيده دلو من المطاط قضينا جانباً من المساء نقتطعه من إطارات تالفة. قلةٌ تأخرتْ قليلاً فأشار لهم قائد الفرقة منجوس بالوقوف جانباً. بدأ جندي برتبة عريف في إحصاء الحاضرين:

«19/ 107 - 19/ 423 - 19/ 102»...

تتعالى أصوات المجندين لتأكيد حضورهم، إلى أن جاء دوري: 19/ 205.

كنتُ مدركاً أنه رقمي، لكنّ شيئاً بداخلي لم يستطِع التوافق معه، الانصياع له. شعرتُ بمسافة تفصلني عن هذا الرقم/ الاسم. كنتُ بحاجة إلى بعض الوقت حتى أستوعب هذه العلاقة الشاذة بيني وبين الرقم مئتان وخمسة.

كرَّر العريف نداءه بلهجة أكثر حزماً، كان كمن يُنذرني بانتهاء الوقت، بنفاد فرصي للإفلات من قدري الجديد، بدخولي طريقاً جديدة، باتجاه واحد، ومسار واحد، وخيار وحيد.

«حاضر».

نطقتُ بها بقوة. أخرجتها حارقة قبل أن تحرقني. تخلصتُ منها حتى لا أبقى أسيراً لها أكثر من ذلك. كرهتُ هذا النوع من الحضور وقد ملأني بالغياب، لكني كنتُ مرغماً عليه.

قنعتُ بأني ومنذ هذه اللحظة ينبغي عليّ التعود على تعريفي الجديد. مئتان وخمسة رقمٌ سيختزلني، سينوب عن اسمي ولقبي، سيكون كافياً للدلالة عليّ، على تاريخي، وربما مستقبلي.

انطلقتْ صافرة جديدة، فهروَلنا باتّجاه الحمّام الذي لم يكن سوى فضاء مفتوح. غَرَف المجندون من خزان ماء يقف عليه جندي ثم بدأوا في خلع سراويلهم. ترددتُ في القيام بالشيء نفسه، قبل أن أسمع اعتراضاً معلناً:

«ايش هادا. . كده،ما يصير وربي».

ضحك المجندون من تعليق الشاب، قبل أن ينصاعوا لصراخ

جندي ويكملوا ما بدأوه. كنتُ لا أزال في حيرتي حين انطلقت صافرة أخرى، فرفع المجندون سراويلهم وهرولوا باتجاه قائد الفرقة، دون أن يتمكن بعضهم من لمس الماء، بينما عاد الشاب ليصرخ بقرف:

«لاااااا»

عدنا إلى الطوابير، كان منجوس يخاطبنا بالتغرنية:

«إلى اليمين دُر».

بكل حماس دار المجند المستاء من الحمام في الاتجاه الآخر فاصطدم وجهه بوجه زميله. تعالت بعض الضحكات، سرعان ما أخرسها منجوس، وهو يشتم المجند:

«جلفاف».

طأطأ المجند رأسه خجلاً. شعرتُ بالتعاطف معه، وبقسوة قائد الفرقة الذي شبّهه بالنساء، لأنه ينحدر من منطقة ترتدي الجلابيب.

بدأنا الركض، بينما تولّى عريف معاقبة المجندين المتأخرين. كنّا نركض في مجموعات وإلى جوارنا يسير الضابط منجوس في عربته المكشوفة، تتبعه عربة أخرى لمرؤوسيه من الجنود. لم يكن هناك خطّ للنهاية، كنا نركض ونركض دون توقف، بينما يسجّل قائد الفرقة في مذكرته المتخلفين تعباً وإعياء.

بدأتُ أشعر بالتعب، لكنَّ نظرات منجوس الغريبة أبعدتْ فكرة التوقف عن ذهني. كنتُ أشعر به يراقبني، يحصي أنفاسي، بينما تعبي يزداد. كلما ركضتُ أكثر تمنيتُ أن يأتي قرار التوقّف. بدأ

ركضي في التباطؤ، صرتُ أتراجع مع الوقت حتى أصبحتُ ضمن المجموعة الأخيرة. بيني وبين التوقف لحظات، يكاد يشلّني الإنهاك. سأتوقف، سأتوقف، بدأ الصوت يعلو بداخلي أكثر وأكثر. قررتُ التوقف، لكنّ قراري جاء مع صافرة منجوس.

سقط معظمنا على الأرض من شدة الإعياء، بينما أخذ قائد الفرقة يكرِّر كلمة واحدة:

«برافو.. برافو».

ارتحنا لدقائق تناولنا خلالها الإفطار، شاياً وخبزاً يابساً، اصطففنا للحصول عليهما من صندوق عربة منجوس. كنتُ طوال هذا الوقت أجول ببصري بين المجندين بحثاً عن كداني الذي لم يظهر منذ اقتاده الجنود بالأمس.

بدأتْ حصة الرماية. كانت في انتظارنا بنادق مثبتة بأسطوانات مجوَّفة بحيث لا نستطيع انتزاعها أو حرفها عن مسارها كثيراً. كانت المرة الأولى التي ألمس فيها سلاحاً. بدأتُ التعرُّف على الكلاشينكوف. لاحظتُ نقشاً في كعب البندقية الخشبي على شكل حلقتين متداخلتين. عرفتُ فيما بعد أن البنادق تعود لشهداء.

كان شعوراً غريباً أن تؤول إليّ هذه البندقية وهي محمّلة بهذا الإرث الثقيل. تخيلتُ صاحبها، أيامه ولياليه برفقة بندقيته. فكرتُ فيها وقد أصبحتْ وحيدة. تضاعف شعوري بالعبء. تحسَّستُ النقش، لم أفهم معناه، لكنه حتماً كان يعكس شيئاً من مزاج ذلك الشهيد في ذلك الوقت، من أحلامه وآماله، من غضبه وإحباطاته.

بدأ منجوس يشرح أجزاء البندقية واستعمالاتها:

«ايه كي 47، سلاح روسي صُنع أثناء الحرب العالمية الثانية، لكنه اليوم يُستخدم من قِبل أكثر من 40 جيشاً حول العالم، كما استطاعت دول عديدة تصنيعه، فأصبح لدينا كلاشينكوف صيني، وآخر بلغاري، وثالث سوداني، إلى آخر تلك الدول. . .»

«وهل هناك كلاشينكوف إرتري؟»

بدا الارتباك على قائد الفرقة وهو يُجيب أحد المجندين باقتضاب، ثم أكمل شرحه:

«قريباً. . قريباً جداً. هذه البندقية هي المفضلة لدى حركات التحرر والجيوش الثورية، فهي مفيدة جداً في حروب الشوارع، بسبب سهولة استخدامها، وفاعليتها، وقلة أعطالها».

«هذا يعني أن ثورتنا المجيدة اعتمدت على هذا السلاح؟»

على عكس السؤال السابق بدا منجوس هذه المرة مرتاحاً للسؤال الجديد، أوقف شرحه، وأسهب بفخر ملحوظ حول دور الكلاشينكوف في انتصار الثورة:

«نعم بالتأكيد. صحيح أننا بدأنا ثورتنا ببندقية «أبو عشرة» المتواضعة، لكنّ هذا السلاح الروسي كان فعالاً جداً في أيدي ثوارنا البواسل. .»

لا أعرف لماذا خطر على بالي ما أجابني به الحاج برهان حين أخبرته أنني كنت معلماً بارعاً:

«لا تستند كثيراً إلى ماضيك. إذا لم يكن لك حاضر مماثل، فكلّ ذلك لا معنى له»

انتهى درس الرماية، فانتقلنا إلى التثقيف السياسي الذي كان

متاحاً بعدّة لغات، دون أن يُسمح لمن يُجيد التغرنية بأن يختار لغة أخرى. كان ستة ضبّاط في انتظارنا، بدأ أحدهم في الحديث، بينما توزع الباقون على أجزاء الخيمة، دون أن نفهم دورهم.

مجدداً كان الحديث عن الثورة الإرترية، كيف بدأتْ، وكيف أصابها العطب في منتصف الطريق إلى أن جاءت «الشعبية» فأعادت إحياءها ووصلت بها إلى الاستقلال.

كان واضحاً أن الضابط ناقمٌ على التنظيمات الإرترية الأخرى، فرغم أن الثورة قامت ضد المستعمر الإثيوبي، إلا أن حديثه الغاضب كله انصب على تلك التنظيمات، وخصوصاً «جبهة التحرير» التي اتهمها بالعنصرية والطائفية وخطف الثورة.

لم أفهم جملته الأخيرة، فرفعتُ يدي بهدوء:

«ممّن خطفتْ جبهة التحرير الثورة، إذا كانت هي منْ أطلقها في الأساس؟»

«خطفتها بعنصريتها وطائفيتها، لولا الشعبية لما جاء الاستقلال».

هززتُ رأسي بامتنان، وكأني حصلت على الجواب، بينما كنتُ مدركاً في داخلي أن ذلك لم يحصل، وإنما كرّر الضابط كلامه السابق.

لساعتين استمرّ حديث الضابط حتى أصابنا بالنعاس، وهنا اتضح دور الضباط الباقين.

قطع الضابط حديثه تحت وقْع صفعة عنيفة تلقّاها جندي غلبه النوم، وأوقعه حظّه العاثر في مرمى نظر أحد الضباط، الذي ما إن

انتهى من صفعه حتى أخرج ريشة وأخذ يعبث بأنف المجند، حتى عطس. كانت هذه هي الطريقة التي يعتمدها الضبّاط لتجديد نشاطنا. بعد ذلك لم تعد الريشة تفارق جيوب المجندين الجدد.

بمجرد أن فرغنا من التثقيف السياسي، وُزّعتْ علينا معاول وبدأنا رحلة سير طويلة انتهت بأحد جبال ساوا. توقفتْ عربة منجوس عنده، فتوقفنا في انتظار أن يُصدر أوامره. كنتُ أظنّه سيأمرنا بالحفر في سفح الجبل، لكنّ طلبه كان أكثر تعقيداً:

«هيا ابدأوا في إزاحة هذه الصخور. أريد محو هذا الجبل من مكانه».

تسمّر الجميع في ذهول، غير أنه صرخ فينا فبدأنا مهمتنا العسيرة. كنتُ أضرب بكل قوتي فلا يتطاير إلا جزء يسير من الصخرة، وهو ما كان يحدث مع الآخرين، بينما كان منجوس يتوعدنا بالعقاب إن لم نزح أكبر عدد من الصخور الكبيرة عن مكانها.

بعد ساعة من الطَّرق المتواصل، بدأتْ صخور في التزحزح عن مكانها قليلاً. تلقينا إشارة بالتوقف فظننتُ المهمة انتهتْ وبدأتُ التفكير في طريق العودة الطويل وأنا بهذا القدر من الإنهاك، إلى أن جاءت مفاجأة منجوس الثانية:

«اتركوا المعاول واحملوا هذه الصخور، يتوجب عليكم نقلها إلى تلك المنطقة».

أشار منجوس إلى منطقة غير معلومة في فضاء ساوا، فعرفتُ أن المسافة رهن مزاجه تماماً كحصّة الركض. حملتُ صخرة

صغيرة، لكنه صرخ فيّ وهو يشير إلى أخرى كانت أكبر بثلاثة أضعاف.

كنتُ أسير خطوات ثم أُفلتُ الصخرة لأستغل الوقت قبل حملها من جديد في بعض الراحة. قطعتُ عدة أمتار لم أستطع بعدها إلا دحرجة الصخرة. كنتُ أنظر إلى الآخرين فلم يكونوا أحسن حالاً.

فوجئنا بأحد المجندين وهو يصرخ بشكل هستيري رافضاً الاستمرار في حمل الصخرة، فأشار منجوس بيده لينقضّ عليه عدد من الجنود ويقتادوه بعيداً. عاد بعدها الضابط يوزعّ صراخه على المجندين بقدر إنهاكهم، ولم يتوقف إلا حين توقفنا جميعاً ولم نعد قادرين على التقدم خطوة واحدة إلى الأمام.

عدنا إلى الخيمة مع الظهيرة ونحن نجرُّ أقدامنا جرّاً. تناولنا غداءنا، الخبز اليابس نفسه، لكن مع قليل من العدس هذه المرة. بعدها استغلّ معظم المجندين ساعة الراحة في النوم استعداداً لحصة أخرى من الركض الطويل. وحده الشاب الذي اعترض على قضاء الحاجة جماعياً، كان يحاول التسلل بعيداً، ربما للغرض نفسه، لكن جندياً اعترضه وأعاده من جديد. وقتها عرفتُ أن الحمام ليس مسموحاً إلا مرتين في اليوم، ولم تكن الثانية قد جاء موعدها بعد.

«أين يقع معسكر الفتيات؟»

رمقني مجنَّد إلى جواري بنظرة غريبة قبل أن يجيب عن سؤالي بآخر:

«تقصد اللواء الثالث، ماذا تريد منه؟»

لم أكن جاهزاً بإجابة بديلة عن هذا السؤال البديهي، وحدها الحقيقة كانت على بالي. صمتُّ وكأني لم أسمع السؤال حتى جاءني الجواب أخيراً:

«إنه على بعد ثلاثة كيلومترات من هنا، لكن لا يُسمح لنا بالذهاب إلى هناك، إذا كنت تودّ الالتقاء بفتاتك عليك الانتظار حتى مساء السبت حيث الحفل الذي يُقام مرة كل شهر في الملعب الكبير»

شعرتُ بالقشعريرة تسري في جسدي حين نطق المجند بكلمة «فتاتك»، كنتُ مفضوحاً أكثر مما ينبغي، لكني في المقابل شعرتُ أني أقترب من سلمى، إذ لا تفصلني عنها إلا هذه الكيلومترات القليلة.

انتهت الساعة سريعاً لنعود إلى منجوس الذي أمرنا بإعادة الصخور إلى مكانها السابق. بدا أنه يستمتع بإنهاكنا الذي امتدّ حتى الغروب دون أن يجرؤ أحد منّا هذه المرة على الاعتراض.

في المساء، حلّت ساعة الحمام الثانية، فكان الشاب المحصور أول المنطلقين، دون أن يجد حرجاً من الباقين، خاصة حين اقتربتُ منه وأعطيته ظهري كغطاء عن الباقين. شكرني وهو يردّد اسمه:

مازن.. أنا مازن.

بعد وجبة العدس، ارتمى كثير من المجندين في أماكنهم وراحوا في نوم عميق، بينما وجد آخرون بعض الوقت قبل الخلود إلى النوم، فأخرج كل واحد منهم مذياعاً وضبطه على موجة مختلفة.

اختارت الأغلبية الإذاعة الإرترية، بينما قلة كانت تستمع إلى إذاعة بي بي سي العربية، لكنّ صوتاً آخر كان يتردد وإن بشكل خافت، إنها الإذاعة الإثيوبية. حاولتُ معرفة مصدر الصوت، لكني لم أنجح، فقد كان بعض المجندين يستمع للمذياع وقد دسّ نفسه تحت غطائه. وحده مازن كان قد انتصب يصلي في مكانه.

تركتُ ضجيج الخيمة، وخرجتُ وأنا لا أفكّر إلا في سلمى. تجنبتُ الطريق الرئيسة وسلكتُ أخرى محاذية. كانت الطريق مظلمة إلا من بقعة ضوء بعيدة أصبحتْ وجهتي ودليلي. مع انتصاف الطريق بدأتُ ألحظ كثرة العربات المكشوفة كتلك التي يملكها منجوس وهي تتجه صوب اللواء الثالث.

بلغتُ المكان فوجدتُ حراسة على المدخل. بينما أوصدتْ هضاب مرتفعة الطريق التي كنتُ أسلكها. كان لا يزال الحرّاس يرفعون التحية لأصحاب العربات المكشوفة. تمنيتُ لو أملك واحدة من تلك العربات، فقد بدت الوسيلة الوحيدة لدخول المعسكر دون عناء.

عدتُ أدراجي قانعاً بالانتظار حتى مساء السبت، وأنا أمنّي نفسي بمرور الأيام الستة سريعاً، مهما بدتْ ثقيلة.

وجدتُ الخيمة كما تركتها. تمددتُ على فراشي. على مقربة مني، كانت «هيلين ملّس» تصدح بأغنيتها العذبة «بلنّيتا»:

«قُلها لي.. أنا لكِ.. قلها

إذا كان قلبُكَ يحبني، لماذا تختار البعد؟

لا عيب أو خجل في الاعتراف بالحب

قلها لي . . أنا لكِ . . قلها» .

كانت سلمى تعشق هذه الأغنية وتغنّيها لي، وكنتُ بدوري أعشق كل ما تعشقه سلمى .

انتهت الأغنية سريعاً، تمنيتُ لو جلبتُ معي مذياعاً، وكل تلك الأغنيات التي تحبها سلمى . كنتُ أشعر بالنشوة لمحاولتي الاقتراب من مكانها، لمشاركتها الهواء والعتمة ذاتهما . تعاظمت النشوة فاستحالت تفاؤلاً طاغياً، أحسستُ بليلتي هذه كتلك الليالي الماطرة عادة ما تخلّف نهارات غارقة في الفرح .

بينما أنا مشغول بالتقاط ما تبثه الإذاعات، عاد كداني إلى الخيمة . خفتتْ كثير من الأصوات لبعض الوقت قبل أن تعود إلى صخبها . كنتُ أتابع كداني ببصري حتى وصل إلى فراشه، كان بادياً عليه الإعياء، لكنه ظلّ ساهماً في سقف الخيمة . اقتربتُ منه وحييته فلم يرد . اقتربتُ أكثر :

«لا أريد إزعاجك، لكني لاحظتُ انعزالك عن البقية، هل يمكنني مساعدتك؟»

كنتُ في الحقيقة أطلب مساعدته . شعرتُ بمدى سطوته في المكان، وأنا لا أزال أعيش ارتباك البدايات . التفتَ إلي، تمعّن في ملامحي قبل أن يبتسم ويشير لي بالجلوس .

«لماذا تقدمتَ إلى ساوا، إذا كنت لا تريدها؟»

لم أعرف عن أي جزء من سؤاله أرد، كيف عرف أني أتيت متطوعاً؟ وكيف عرف أنني مضطر لذلك؟ كانت الدهشة تملأ وجهي، فاتسعتْ ابتسامته، وهو يواصل حديثه :

«المجنّدون الذين انضموا إلينا في الخيمة وأنت منهم، معظمهم تقدم بطلب الالتحاق بساوا بشكل طوعي لأن موعد قدومهم يصادف اليوم العظيم، أمّا البقية وأنا منهم، قدمنا قبل أعوام إما من طريق الكشّة أو لأسباب أخرى. ولا تسألني عن رغبتك من عدمها لأن عينيك المرتبكة تفضح ذلك».

أغاظني بروده بعض الشيء وهو يتحدث عن ارتباكي:

«وماذا عنك؟ لماذا تبدو متعجرفاً وأنت لا تختلف عن بقية المجندين؟»

من جديد عادتْ إليه ابتسامته الباردة. تجاهل سؤالي، وعاد إليَّ بسؤال مباشر:

«لماذا أتيت؟»

شيء ما في سؤاله دفعني للإجابة بصدق، فنسيت غيظي:

«من أجل سلمى».

تعالتْ ضحكة كداني بشكل مفاجئ حتى لفتتْ أنظار بقية المجندين في الخيمة. كان الجميع يحاول فهم ما جرى بالنظر إلى كداني تارة، وإليَّ تارة أخرى.

«عُد إلى مكانك، لديّ ما هو أهم».

شعرتُ بصفعة ساخنة تطيح بكرامتي، خاصة أن كداني رفع صوته وهو يطلب مني المغادرة. تسمّرتُ في مكاني. كانت أمامي لحظة كي أقرِّر طريقة الانتقام لشخصي، بدا أن عدداً من المجندين يترقبون ذلك أيضاً. فكرتُ في شتمه، في صفعه وتأديبه. كان هو

أيضاً ينتظر ردة فعلي. بدا الكون كله في تلك اللحظة ينتظر خطوتي المقبلة.

نهضتُ بهدوء وعدتُ إلى مكاني.

آثرتُ تجنب القيام بأي رد فعل. كان مجرد الغضب حرباً هامشية لا تعنيني، وأنا القادم من أجل حربي المقدسة: سلمى.

ترك تجاهلي لكذاني ارتباكاً لمحته في عينيه، فعاد لي بعض توازني. فكرتُ أنه من الصعب على الآخرين أن يفهموا ما تعنيه سلمى لرجل معدم مثلي، وهي الثرية حُسناً وبهاء، أن يلمسوا هذا الضياء الذي ينبض في عروقي بعد أن كانت العتمة تطوقني.

شعرتُ بكلّ تعب النهار يحطُّ على رأسي مرة واحدة. لم أنتظر خفوت أصوات الإذاعات المتداخلة، واستسلمتُ للنوم.

(3)

لم أكد أغمض عيني حتى صحوت على صراخ مازن الذي كان يتلوى من الألم، وسط تأفف مجندين من حوله. اقتربتُ منه قبل أن يلحق بي كداني.

«خذه إلى الطبيب، لو حملته أنا سيهملونه نكاية فيّ».

شرعتُ في تنفيذ ما قاله كداني دون أن أردّ عليه. بالقرب من الخيمة اعترضَنا جندي حراسة، وما إن أدرك ما نريد حتى أشار بلا مبالاة إلى خيمة بعيدة قال إنها العيادة. كان مازن بالكاد يقوى على السير، بينما يربكني الإمساك به بيد وبالمصباح بيدي الأخرى.

«انتظر دورك».

تراجعنا أمام فظاظة جندي يقف على باب الخيمة، ولم نكنْ وحدنا. ارتمى مازن على الأرض إلى جوار مجندين آخرين كانوا يشاركونه التأوّه، حتى بدا المكان حفلة للألم. كنتُ أؤمّل مازن بقرب دوره كلما خرج مجند، دون أن يخفف ذلك من وجعه، حتى بدأ يلاحظ المرضى من حوله، مستعيناً بالضوء القادم من الخيمة.

كانت الغالبية تشتكي من آلامٍ بدت مبرحة بين فخذيها، بينما

آخرون مصابون بالرمد، وقلة كان منهم مازن، يشتكون آلاماً في المعدة.

خفت صوت مازن وهو يتابع مجنداً إلى جوارنا يصرخ من شدة الألم. سألتُ المجند عن حالته، ففهمت بصعوبة أنه ومعظم المرضى يعانون من تقرحات حادة في أعضائهم التناسلية نتيجة قلة الاستحمام. ترجمتُ لمازن ما سمعتْ فتوقف تماماً عن الشكوى، وامتلأتْ عيناه بالذعر.

«هيا اخرج».

كان الصوت الغاضب واضحاً، قبل أن يتبعه خروج مجند من الخيمة وهو يتألم. سأله أحد المجندين، فعرفنا أن الطبيب يظنه يتحايل كي يحصل على راحة من التدريبات.

أشار لنا الجندي الواقف على مدخل الخيمة أخيراً، فعاونت مازن على النهوض وهممتُ بالدخول معه غير أن الجندي منعني، حاولتُ إقناعه فرفض قبل أن يسأل الطبيب الذي جاء رفضه وهو يصرخ.

دخل مازن وحده، وعدتُ إلى حفلة الألم، والمرضى الذين لم تكن أعدادهم تقلّ أبداً.

«بطني تعورني».

نهضتُ على صراخ مازن، بينما دخل الجندي الخيمة وعاد مسرعاً يطلبني. بدا المكان كئيباً، وهو يحتضن طاولة عليها مجلد ضخم، ويجلس خلفها أربعيني تلتفّ حول رقبته سماعة طبية، وإلى جواره أوانٍ زجاجية معتمة، بينما حُشر سرير مهترئ في المساحة المتبقية من الخيمة.

«قول للسربوت هادا بطني تعورني».

التفت إليّ الطبيب ببلاهة، وهو ينتظر ترجمة الشكوى. أخبرته، فضحك وهو يسأل مازن إن كان جديداً. أجبته دون أن أسأل مازن.

«ايش يقول ابن اللبوة هادا؟».

مجدداً كان الطبيب ينتظر الترجمة. ترجمتُ له، فسألني إن كان هذا كل ما قاله مازن، هززتُ رأسي بالإيجاب.

أدخل الطبيب يده العارية في إحدى الأواني إلى جواره، وأخرجها ممتلئة بمسحوق أبيض نثره على ورقة صحيفة، ومدها إلى مازن:

«اخلطه بالماء وتناوله 3 مرات في اليوم. لا حاجة إلى أيام راحة».

خرجنا على صوت الطبيب يصرخ طالباً دخول التالي. لم نكد نغادر الخيمة حتى جاء ثلاثة مجندين يحملون مريضاً أدخلوه إلى الخيمة دون استئذان، ثم سرعان ما خرج الطبيب يطلب عربة لنقله إلى المشفى. سمعتُ جانباً من حوار الطبيب مع المجندين، فاتضح أن المجند جاء بالأمس، وخرج بعلاج سريع لم يحسّن من حالته. شرحتُ لمازن ما جرى، فكرَّر كلمته:

«ما قلت لك سربوت».

ملتُ عليه أسأله إن كانت الكلمة نوعاً من الشتيمة، فابتسم بلؤم مغالباً وجعه. أدركتُ حينها أنها شتيمة معتبرة.

(4)

مرّت أيام أخذتُ معها أستوعبُ وضعي في ساوا شيئاً فشيئاً.

تحمّلي أخذ في التحسن فلم يعد الركض يوصلني إلى درجة الإنهاك، وجدتُ طرقاً كثيرة للتحايل في حمل الصخور، تآلفتُ مع الكلاشينكوف الثقيل، وتعودتُ على الخبز اليابس. لم يعد يستفزني شتم جبهة التحرير في دروس التثقيف السياسي. تعودتُ أيضاً على الاستيقاظ ليلاً لدرس قراءة النجوم الذي ابتكره منجوس نكاية فينا، كي لا تعالج الراحة ليلاً إنهاكنا النهاري.

حتى مازن بدأ يتعود على الزيارتين اليتيمتين للحمام المفتوح، ولم يعد العدس المغشوش يُرهق معدته. كما تعوّد على جمع صلوات اليوم كله دفعة واحدة قبل أن يرتمي كقتيل في فراشه.

حكى لي أنه استأذن للصلاة أثناء أول درس له في التثقيف السياسي، فسمع محاضرة طويلة عن «أفيون الشعوب». حين سألته عن اسمه الغريب، حكى لي قصته كاملة.

كان للتو قد قدِم من جدة التي وُلد فيها، ولا يعرف مكاناً سواها. أُطلق عليه هذا الاسم، تيمناً بأحد أصدقاء والده السعوديين. مات «الكفيل»، ورفض ابنه أن تنتقل الكفالة إليه،

فاضطرت العائلة بأسرها للعودة إلى أسمرا، ولم يمضِ أسبوع حتى قدِم إلى ساوا، وقبِل أن يتعلم التغرنية.

مازن الذي يُتقن أكثر من لغة، اختار أن يواجه جهله بالتغرنية، وسَيْل الشتائم التي يتعرض لها، بشتائمه الخاصة، فتعلمتُ منه إضافة إلى سربوت، كلمة سرسري، ورمّة، وتلّيك، إلى آخر القائمة التي كانت في معظمها من نصيب قائد الفرقة منجوس.

كان مازن يتدرّع بلسانه، ويحتمي من غربته الجديدة بلهجته الجدّاوية، كسلحفاة لا تملك إلا صدفتها، في مواجهة الأخطار. لم يبدأ التعود على ساوا، إلا حين جلب جدة معه، وكأنها جواز سفره وأمانه إلى أكثر الأماكن وحشة.

«وايش هرجة الحفلة الليلة؟».

كان مازن يفوقني حماساً لحضور الحفلة قبل أن يتذكر موعدها الذي يتعارض مع وقت صلواته. تركته منشغلاً بالتوفيق بين الأمرين، وانطلقتُ إلى خيمة قائد الفرقة الذي استدعاني. لم تكن الخيمة تختلف كثيراً عن خيمتنا من الخارج، لكنها من الداخل كانت أكثر ترفاً.

«كيف وجدتَ أسبوعك الأول؟»

توقعتُ شيئاً كهذا، فكانت إجابتي جاهزة. أخبرته أن كل شيء على ما يرام، لكنه باغتني بردِّه:

«أنا أخالفك الرأي. لقد تابعتك جيداً، وقرأتُ ملفك المشرّف، أنت الوحيد من بين كل الذين تقدموا لساوا لم تكن لك مصلحة في ذلك، البقية قدّموا طلباتهم مقرونة بطلب الحصول على

مساكن بأسعار مخفضة. أرى أن بالإمكان الاستفادة منك بشكل أفضل».

لم أفهم حديثه بالضبط، بدا لي غامضاً، قبل أن يُكمل:

«سأجعلكُ سائقي الخاص، مللتُ من حماقة السائق الحالي. هذا الأمر سيعفيك من أمور كثيرة هنا».

«موافق».

لم يكن قائد الفرقة يستشيرني، ومع هذا نطقتُ بالكلمة سريعاً. كنتُ قد توقفتُ عند «سائقي الخاص»، لم أسمع بقية الكلام. على الفور تبادر إلى ذهني اللواء الثالث ودخوله السهل بالعربات المكشوفة. شعرتُ أن الأقدار بدأتْ في الالتفات إليّ، في الاستجابة لرغباتي، في الانتباه لها على أقل تقدير.

بدأتُ أنسج أحلامي على وقع العمل مع منجوس: ألتقي سلمى في الحفل، أزورها في معسكرها كل يوم، تستحيل هذه البقعة القاحلة إلى جنة حب خضراء.

كانت الخيمة مثلي، غارقة في النشوة.

كان الجميع مشغولين بالاستعداد للمساء. سمعتهم يتحدثون عن حفلة الشهر، عن «توماس»، أفضل المطربين الشباب، والمنطلق كالبرق في الشهرة. جهّز مجندون أفضل ملابسهم، آخرون تناوبوا على الحلاقة لدى مجند قديم تعلّم المهنة على رؤوس رفقائه، فريق ثالث اختار النوم كي يأتي المساء وقد تخلص من تعب الصباح. استمتعتُ بأجواء الفرح هذه، شعرتُ بالمكان

يشاركني البهجة، كل شيء بدا مثالياً للقاء سلمى، وكأن الفرح يتجمّع سحباً فوق رأسي قبل أن يمطرني بالعشق حتى أرتوي.

لاحظ كداني ابتهاجي. قرأتُ في عينيه سؤالاً لكني تجاهلته، كما تجاهلتُ محاولاته لاسترضائي خلال الأيام الماضية. لم يكن مستعداً فيما يبدو للاعتذار بشكل صريح، لكنّ إحساساً بالذنب كان بادياً عليه، وفشلتْ محاولاته في التعويل على الوقت لإعادة الأمور إلى طبيعتها.

مع الغروب، كنتُ وسط الجموع أسابق روحي نحو الملعب الكبير. المجندون يفدون من ألوية المعسكر المختلفة. زحفٌ بشري لم أرَ مثله من قبل. بدأت الفتيات في الانضمام إلى الحشود، تكبرُ أعدادهن شيئاً فشيئاً، حتى بدا لي أنهن أكثر من الشباب.

خفّفتُ من خطواتي. بدأتُ عملية البحث عن سلمى قبل الوصول إلى الملعب. كنتُ أتفحص الوجوه، أمرُّ عليها كمن ضيّع عمره بين ملامحها. لوهلة انتبهتُ أني كنتُ قد توقفتُ تماماً، وتركتُ سيل المجندات يغمرني. هذا جعلني قريباً جداً منهن، من وجوههن التي لا تشبه سلمى حتى الآن.

لا بأس، قلتها لنفسي وأنا أسرع من جديد نحو الملعب. مررتُ بالحاويات المعدنية التي شاهدتها لحظة قدومي إلى ساوا، تذكرتُ كداني. لا أعرف إن كان سيلحق بنا وقد بدا غير مكترث بالحفل. مررت بالبناية الحديثة، يخرج منها ضباط كبار وتقلّهم العربات باتجاه الملعب.

ضخامة الملعب أصابتني بالخيبة وصعّبت مهمتي. امتلأت المدرجات بالمجندين والمجندات، كان واضحاً أن الجميع مستمتع بالرفقة، بينما كنتُ وحيداً إلا من هاجس البحث عن سلمى.

انطلق الحفل صاخباً من البداية، فنزل الجميع إلى الساحة الكبيرة التي تنتهي بمنصة الفرقة الموسيقية. عطش المجندين للرقص كان طاغياً، شعرتُ بهم يُفرغون رهق ساوا تحت أقدامهم التي تنتظم على إيقاع الموسيقى. بدأتْ زجاجات البيرة تنتقل من يد إلى أخرى، ومعها المجندات. تعاظم شعوري بالوحدة بعد أن اكتشفتُ أنّ كل مجند يحظى بصديقة من اللواء الثالث، خطر لي أنه لولا هذا اللواء لماتتْ بقية الألوية من العطش.

هل هي برفقة أحدهم الآن؟

أصابتني هذه الفكرة بالدوار فطردتها سريعاً، لكنها أشعرتني بالوقت وصراعي معه. كان البحث عن سلمى وسط هذه الجموع المنتشية نوعاً من العبث. احترتُ في إيجاد طريقة للوصول إليها. فكرتُ في الصراخ باسمها حين تتوقف الموسيقى، لكنّ المكان كان سيبتلع صوتي بهدوء. فكرتُ في سؤال الفتيات عنها حتى أصادف من تعرفها، لكني تذكرتُ الأرقام اللعينة التي مُنحت للمجندين.

أخيراً اهتديت إلى فكرة بدتْ ممكنة بعض الشيء؛ سأتركها تبحثُ عني، سأصعد إلى المنصة لأحيّي المطرب وفرقته الموسيقية، سألتصق به كملابسه التي بلّلها العرق، بهذه الطريقة سأُتيح لها رؤيتي. كانت المنصة هي المكان الوحيد الذي يسهل رؤية تفاصيله من أي نقطة في الملعب الضخم.

تقدمتُ نحو توماس، لم أكن وحدي، كان العشرات يحاولون الوصول إليه وسط جنود يصدّونهم بالهراوات. خطر لي أنّ دربي نحو سلمى محاط دائماً بالهراوات.

لاحظتُ أن الحراس يسمحون بالمرور لمن يبدو أنه سينثر مالاً على توماس. أخرجتُ خمسين نقفة ورفعتها عالياً بحيث يلحظها الحراس. كان المبلغ كبيراً قياساً بما يمكن لمجند أن يستغني عنه في حالة سكر طاغية. وجدتُ طريقي سالكة نحو توماس. هو الآخر كان ينتظرني بمجرد أن لمح المبلغ في يدي. ألصقتُ الخمسين نقفة على جبين توماس المتعرّق، أحاطني بإحدى ذراعيه كتعبير عن الامتنان.

كنتُ ألوّح بكلتا يديّ مع أنغام الموسيقى، أردتُ لأكبر عدد من المجندين رؤيتي، أردتُ أن أتحول إلى حكاية لا يمكن أن تفوّتها سلمى. في الأثناء كنتُ أطوف ببصري بحثاً عنها، لكني بدأتُ ألمح أخريات يتبرعن بابتسامات غير بريئة، ولم تظهر سلمى.

كان توماس قد بدأ ينشغل عني وكأنه يُخبرني باستهلاكي لقيمة ما دفعته. الحرّاس أيضاً بدأوا في التململ من وجودي قبل أن يشيروا إليّ بالنزول، تجاهلتُ إشارتهم لبعض الوقت، لكني نزلتُ سريعاً بمجرد أن لمحتُ أحدهم يحاول الصعود وهو يلوّح بهراوته.

عدتُ إلى الساحة فتحلّق حولي عدد من الفتيات. بدوتُ كفريسة مستسلمة أمام حداء جارحة. كان المجندون يرمقونني أيضاً، لكن بنظرات ملؤها الغيرة. اكتفيتُ بالابتسام وأنا أهرب من

الصفوف القريبة من المنصة حيث تلتصق الأجساد بنهم غريب. ولم تظهر سلمى.

كان توماس وأمام حماس المجندين قد اقترب منهم، وبدأ يمدُّ المايكروفون لهم ليشاركوه الغناء، تمنيته فعل ذلك قبل صعودي إليه، لأنه أوحى لي بفكرة استخدام المايكروفون للنداء على سلمى.

تملكتني الخيبة ولم يعد يعنيني بقية الحفل، جلستُ في المدرج وحيداً بينما البقية يملؤون الساحة تمايلاً وغناء.

مع انتصاف الليل عادت الجموع إلى ألويتها. كنتُ أول الواصلين إلى الخيمة فوجدتُ كداني أمامي. رجحتُ أنه لم يحضر الحفل إلى أن نطق:

«من يراك في الحفل لا يصدق أنك كنتَ مهموماً بحبيبتك، يبدو أن الرقص أنساك الهم».

غاظتني ملاحظته اللئيمة، غير أني اخترتُ تجاهله، فعاد بنبرة مختلفة:

«لا تغضب، كنتُ أمزح معك. أنا مثلك لديّ حبيبة في اللواء الثالث».

بذلتُ جهداً كبيراً لإخفاء دهشتي واهتمامي بحديث كداني، لكنّ شعوراً بالغضب داخلني أيضاً وأنا أسترجع أسلوبه الحاد معي حين علم بأمر سلمى، ويبدو أنه فطن لذلك:

«إلسا، رفيقتي في النضال قبل أن تكون حبيبتي، التقتْ ميولنا

قبل قلوبنا، لذا ليست علاقة عاطفية وحسب، بل هو حلم بحجم الوطن».

قدِم مازن منتشياً، قبل أن يشرع في صلاته. امتلأت الخيمة بالمجندين، فطلب مني كداني بلطف أن نكمل حديثنا في الخارج، ترددتُ في البداية، لكني وافقتُ أخيراً.

بدأتُ الاستماع بلا مبالاة، لكنّ غضبي تهاوى أمام حماسه في الحديث عن حبيبته، إلى أن تحول إلى إصغاء بالغ، بل ومشاركة في بعض اللحظات. لم يكد كداني يُنهي حديثه حتى كنتُ قد بدأتُ بدوري.

«سلمى. . حامل».

لم أتخيل وقع كلمتي المرتبكة على كداني الذي احتضنني بشدة، وهو يكرر اعتذاره، قبل أن تعلو ملامحه الدهشة:

«ولكن كيف لها أن تُقبل في ساوا، وهي حامل؟»

«مؤكد أنها عمدتْ إلى إخفائه خوفاً عليّ. لا تزال في بداية حملها».

لم أكن واثقاً مما أقول. كنتُ فقط أعيد محاولتي السابقة مع جبريل لفهم ما يحدث.

قصصتُ على كداني حكاياتي مع سلمى. وجدتُ في حديثه عن إلسا ما يشجعني على البوح بأسراري، في الحقيقة كنتُ محتاجاً إلى ذلك البوح.كي لا أختنق بحزني.

أخبرته كم هي سلمى نقية. احتضنتني قبل أن تبتلعني أسمرا

بقسوتها، اختارتني من بين كل الذين كانوا يلهثون خلفها. منحتني دون سواي قلباً لا أزال أسمع نبضاته القريبة.

بدا كداني متأثراً وهو يستمع إليّ. لم يقاطعني، وكان هذا كل ما أحتاجه لأفرغ شحنة الخيبة التي تسكنني:

«سلمى بالنسبة لي هي أيضاً حلم بحجم الوطن، بين يديها أشعر بالأمان، ولجبينها الأسمر أنتمي. سلمى لغتي وحدودي وخارطة وعيي واحتياجاتي. أوَلا يستحق هذا الوطن أن ألهث خلفه حتى لو استقرّ هنا، في ساوا؟»

أكملتُ كلمتي الأخيرة بصعوبة وأنا أغالب النشيج. احتضنني كداني فبكيتُ بحرقة المفجوع. كان بكائي المرّ يتعالى كلما حاولتُ قمعه، وكأنه وجد أخيراً طريقه للخلاص عبر استعبادي.

«لا تنس يا صديقي أن أعظم العشق لا يأتي مكتملاً، فيظل الاكتمال حلماً معلّقاً بسقف أمانينا. الامتلاء فعلٌ لا يليق بالعاشقين».

بدأ حديث كداني يحتوي حزني. لاحظ ذلك فأكمل مواساتي:

«المرأة كما الوطن، حين لا تأتي تضاعف من وجع الانتظار. لكن لا عليك، سنجدها. سأبذل كل وسعي لأجد سلمى، لأجد وطنك الجميل، وستساعدنا إلسا في ذلك، لا تنس أنهما معاً في اللواء الثالث».

اللواء الثالث! تذكرتُ وضعي الجديد ابتداءً من الغد. أخبرتُ كداني أني أصبحتُ سائق منجوس الخاص وأن ذلك سيساعدني في

البحث عن سلمى داخل اللواء الثالث، لكني وجدته فاتراً أمام حماسي، قبل أن ينطق:

«قد يصعبُ عليك الاستمرار في هذه المهمة، ليس سهلاً أن تستمر طويلاً وأنت بهذا الطهر».

لم أفهم ما كان يعنيه. أردتُ الاستفسار، لكنه أخذني إلى وجهة أخرى:

«هل ناقشتَ الضابط في دروس التثقيف السياسي؟»

تفاجأتُ بسؤاله وعلاقته بالموضوع. تفاجأتُ أكثر لأنه لم يكن موجوداً ذلك اليوم. هززتُ رأسي فجاء رده:

«لهذا أبعدوك عن تلك الدروس كما فعلوا معي».

(5)

أولى حسنات العمل مع منجوس كانت التخلص من ركض الصباح وحمل الصخور. عوض ذلك أصبحتُ أسير بالعربة المكشوفة بمحاذاة المجندين وإلى جواري يجلس منجوس وهو يسجّل أرقام المتخلفين. في المقابل كانت نظرات المجندين ترجمني حسداً، خاصة حين علموا أني بتُّ أحظى «بالأنجيرة والزقني»، بعيداً عن العدس والخبز اليابس، ولم أسلَم حتى من تعليقات مازن:

«لاقيها يا واد».

كذلك لم أعد معنياً بدروس التثقيف السياسي، ولا التدرب على السلاح، أصبحتْ مهمتي الوحيدة هي خدمة منجوس والتنقل به من مكان إلى آخر داخل المعسكر.

حلّت الظهيرة فأوصلتُ قائد الفرقة إلى خيمته. حملتُ غدائي وانطلقتُ صوب اللواء السابع. كان المجندون يتناولون طعامهم المعتاد، عرضتُ عليهم مشاركتي الغداء، لكني قوبلت بنظرات احتقار. سألتُ عن مازن فعلمتُ أنه يقضّي عقوبة، بعد أن وشى أحدهم بصلاته الليلية، وباغتساله.

لم يكن يُسمح لنا بالاغتسال إلا مرة واحدة في الأسبوع.

نجمع ملابسنا ونغتسل في وادٍ في أطراف ساوا تتجمع فيه مياه الأمطار.

«أنا في ورطة يا خويي».

استيقظ مازن محتلماً، فلم يكن يدري كيف يغتسل ليتمّ صلواته. عرضتُ الأمر على كداني الذي اقترح أن نجمع نصيبنا من ماء الشرب، ونعطيه لمازن الذي استتر بنا واغتسل سريعاً.

«هذا المسيحي.. رجّال».

أضحك، وأنا أستمع لطريقة مازن في الإشادة بكداني. أضحك أكثر حين أخبره أنه شيوعي أيضاً، فيأتيني ردّه العفوي:

«لا يا شيخ.. بس والله رجّال».

كداني أيضاً بدأ يستلطف مازن، وإن متأخراً، قبل أن يُصبحا أصدقاء.

«ألا تحتاج اليوم إلى ماء أكثر؟»

أضحك، ويضحك كداني، يفهم مازن التلميح متأخراً، لكنه يفاجئنا بلؤمه:

«أصلاً أنا كنت قادر أتيمم، بس ما حبيت أشوف وجه الدكتور السربوت».

توطّدت العلاقة بين كداني ومازن، حتى أصبح الواحد يفتقد الآخر إذا غاب لعقوبة خارج اللواء. سألت كداني عن سرّ تحفظه الدائم، قبل أن يظهر مشاعره تجاه الآخرين، أنكر في البداية، ثم أرجع ذلك إلى طبيعته الغارقة في العمل المنظّم.

«عن ماذا يتحدث هذا الكتاب الذي تقضي معه الليل والنهار؟».

لمعتْ عينا كداني، وهو يُمسك بمزرعة الحيوان:

«هذا كتاب يحكي قصة ثورة تقوم بها الحيوانات في مزرعة يملكها رجل فاسد. تنجح الثورة وتتسلم الخنازير قيادة المزرعة، ويدعمها شعور بقية الحيوانات الطاغي بالاقتراب من تحقيق حلم الجمهورية الفاضلة، لكن هذا الشعور يبدأ في التناقص مع مرور الأيام حتى تحلّ محله خيبة أمل كبيرة بعد أن أهملت الخنازير واجبها وتفرّغت للحصول على امتيازات جديدة».

ابتسمتُ وأنا ألمح نظرة اللؤم ترتسم على وجه كداني. بدأتُ في تقليب صفحات الكتاب، استقرّيت على صفحة عشوائية:

«الوصايا السبع:

- كلّ ما يسير على قدمين هو عدو
- كلّ ما يسير على أربعة أقدام أو له أجنحة هو صديق
- يحظر على الحيوان ارتداء ملابس
- يحظر على الحيوان النوم في سرير
- يحظّر على الحيوان شرب الكحول
- جميع الحيوانات متساوية»

توقفتُ عن القراءة مع ضحكة انتشاء أطلقها كداني، لكنه ودون أن يتوقف عن الضحك أشار لي بمواصلة القراءة.

انتقلتُ إلى صفحة أخرى:

«كانت الحيوانات على وجه العموم تستمتع بهذه الاحتفالات، فقد وجدت، رغم كل ما يحدث، أن ذلك يذكّرها بأنها صاحبة السيادة على أنفسها بالفعل، وأن العمل الذي تقوم به هو لمصلحتها بالذات. وهكذا كانت الأناشيد التي تُغنّيها تُنسيها أنّ بطونها خاوية».

«اتضحت الصورة؟»

تجاهلتُ سؤال كداني الذي كان قد عاد لجدّيته، واخترتُ آخر صفحة:

«لا حاجة للسؤال الآن عما قد حدث لوجوه الخنازير. من خنزير إلى إنسان، ومن إنسان إلى خنزير، ثم من خنزير إلى إنسان، أصبح من المستحيل القول: من هو الإنسان ومن هو الخنزير».

هنا انتقل إليّ الضحك بمجرد أن أتممتُ آخر عبارة في الكتاب. ناولته إياه. كان قد اعتدل في جلسته، وبدأ الحديث وهو ينظر في عيني:

«أطلق ماو تسي تونغ مشروع المزارع الجماعية، وأعقبه بالثورة الثقافية، كان في الحقيقة يريد خلق عدالة بالغة الدقّة، لكنه ومن حيث لا يقصد أوصل البلاد إلى مجاعة، انتشرت معها عادة يسميها الصينيون «يي زي إر شي»، حيث تتبادل العائلات أطفالها، حتى تخفّ فجيعتها وهي تلتهم طفل الآخرين، بينما كان طفلها في الجوار يلاقي المصير نفسه».

شعرتُ بقشعريرة أصابتني بالغثيان، لكن كداني واصل حديثه وقد أصبحت ملامحه أكثر جدية:

«في حين خضع ملايين الصينيين لأفكار ماو القاتلة، قرَّر أبناء قرية صغيرة عقد اتفاق سري ينقض فكرة المزارع الجماعية، ويُعيد تقسيم الأرض بين المواطنين، هذا التدارك كان بمثابة ثورة ناعمة أنقذت الصين، وحقنت الشيوعية بروح جديدة. هذا ما نسعى إليه».

سألته «من أنتم؟»، تجاهل سؤالي وأكمل حديثه:

«في مزرعة الحيوان وبعد نجاح الثورة تمّ الاتفاق على أن تكون جميع الحيوانات متساوية، لكن الحال انتهى بكون بعض الحيوانات أكثر مساواة من الأخرى، وهذا ما نحاول تغييره».

أعدتُ السؤال: من أنتم؟ لكنه غيّر وجهة الحديث:

«ماذا أعددتَ لمشوار المساء؟»

بعد الغروب كنتُ أمام خيمة منجوس، دقائق ثم انطلقنا صوب اللواء الثالث. طلب مني قائد الفرقة تخفيف السرعة فتنبهتُ وحاولتُ لجم لهفتي. أمام البوابة وقف الحراس لتحية منجوس، شعرتُ بهم يوجّهون التحية إليّ، فأنا السيد هنا بعد وصولي أخيراً إلى مكان سلمى.

تجاوزنا البوابة، ومررنا بعدة خيام كان يتعالى من بعضها ضحكات أنثوية. تقدمنا قليلاً فلمحتُ فتيات أمام إحدى الخيام، كان الظلام يحجب ملامحهن، لكنني استطعتُ تمييز واحدة منهن بطول سلمى وطريقتها في تحريك يديها. ضغطتُ على المكابح بكلّ قوتي فصرخ قائد الفرقة فزعاً، هرولت الفتيات نحو الخيمة فأظهر الضوء وجوههن. اعتذرتُ لمنجوس وواصلنا السير.

بلغنا خيمة منزوية، تقف أمامها عربات مكشوفة. دخل منجوس بعد أن طلب مني البقاء في السيارة. لا أعرف لماذا تذكرتُ «وارساي»، أضواء حمراء، وموسيقى صاخبة. عند إحدى زوايا الخيمة تجمّع سائقو العربات. بمجرد أن انضممتُ إليهم سألتُ عما يدور في الداخل، فقابلتني ضحكات مكتومة.

تركتهم مع زجاجات البيرة، وعدتُ إلى مكاني. تنبهتُ سريعاً أني انشغلتُ عن سلمى بأمر لا يعنيني.

تركتُ العربة واتجهتُ سيراً نحو أقرب خيمة من مكاني، كان قلبي يخفق بشدة، اختلط الخوف بالرغبة في العثور على سلمى. وجدتُ فتاتين بالقرب من إحدى الخيام، تقدمتُ ببطء كي لا أثير فزعهما. توقفتا عن الحديث بمجرد أن اقتربت.

«أبحث عن سلمى، فتاة قادمة من أسمرا، لم يمضِ على وجودها أكثر من شهر. هل رآها أحد؟»

أجابت الفتاتان بالنفي. تذكرتُ قصة الأرقام فبدأتُ في سرد أوصافها:

«سلمى تميل إلى الطول، سمرتها صافية وشعرها أسود كثيف، على تخوم شفتها العليا شامة خفيفة، ولها لثغة ساحرة في الراء، عيناها..»

بدأت الفتاتان في الضحك. لكني أعدتُ عليهما السؤال بجدية أكبر، فجددا الإجابة بالنفي.

فكرتُ بالانتقال إلى الخيمة التالية، لكني خشيتُ أن يفتقدني منجوس في يومي الأول معه. عدتُ ركضاً إلى عربتي. كان كل

شيء على حاله، باستثناء نشوة السُكْر التي بدأت تتبدى على بعض السائقين.

عاودتُ الركض باتجاه خيام الفتيات. تجاوزتُ خيمة الفتاتين ووصلت إلى الخيمة التالية. لم أجد أحداً خارجها. احترتُ كيف أتصرف. لم يكن لائقاً دخول الخيمة بشكل مفاجئ. قررتُ الانتظار قليلاً، لم تخرج أي فتاة. كانت الأصوات تصلني متداخلة. انتظرتُ أكثر لكني خشيتُ مجدداً من منجوس، فقررتُ التقدم.

خطوتُ بحذر حتى وصلتُ إلى مدخل الخيمة. أزحت الستار قليلاً ومددتُ رأسي إلى الداخل ببطء، لم أكد أتبين شيئاً حتى التقت عيني بعين مجندة تحاول تبديل ملابسها. مرتْ لحظات قليلة قبل أن تنطلق صرخة مدوية هزّتْ سكون ساوا. ركضتُ بكل طاقتي والهلع يفتك بقلبي ولم أتوقف حتى وصلتُ إلى العربة.

لم يتوقف كداني عن الضحك، وهو يطلب مني إعادة سرد الموقف. كنتُ خائفاً، وكان لا يزال يضحك. توقف أخيراً حين تبدى الغضب على وجهي.

«لا بأس، لدينا طريقة أفضل».

أخرج كداني آلة تسجيل، وطلب مني أن أتبعه إلى الخارج.

«مرحباً إلسا، اشتقتُ إليك. إلى جواري صديقي الذي رأيناه يرقص إلى جوار توماس بحماس. هل تتذكرينه؟ سيتحدث إليك الآن ليعطيك صفات صديقته التي يبحث عنها. نريدك أن تبحثي عنها أنت ورفيقاتك. هذا الأمر يعنيني بشدة..»

أمسكتُ آلة التسجيل:

«سلمى تميل إلى الطول، سمرتها صافية وشعرها أسود كثيف، على تخوم شفتها العليا شامة خفيفة، ولها لثغة ساحرة في الراء، عيناها..»

تمنيتُ لو أُخبر إلسا بمواصفات سلمى كما أراها أنا:

«... عيناها لؤلؤتان لا تُملّ، في القلب منهما حدائق لوز. جبينها لا يكفُّ يحكي بشغف قصة ضياع العشاق، وعلى خديها حطّتْ حمائم الغرام وقد أنهتْ أطول الهجرات. يداها..»

«هذا يكفي».

انتزع مني كداني آلة التسجيل، وتنحى جانباً. تحدث قليلاً قبل أن يُخرج الشريط ويضعه في مظروف بريد. فهمتُ لاحقاً أن هذه إحدى وسائل كداني للتواصل مع إلسا.

كان النظام في ساوا يمنع المراسلات بين المجندين، لذا كان كداني يُرسل المظروف إلى «روتا» أخت إلسا في أسمرا، وبدورها تُعيد إرساله إلى أختها في ساوا، وهو المسار ذاته الذي تتبعه رسائل إلسا إليه.

بعد أيام وصلتْ رسالة إلسا، أكَّدتْ فيها أنها ستسعى بكل طاقتها لإيجاد سلمى. شعرتُ بالارتياح، ولم يكن أمامي غير الانتظار.

تكرر ذهابي إلى اللواء الثالث، لكني لم أكنْ أبرحُ العربة حتى خروج منجوس.

معظم الليالي كان يخرج وهو في حالة سُكْر شديدة، تعاونه

فتاتان قبل أن أنضم إليهما لنُجلسه في مكانه وأعود به إلى خيمته. في إحدى الليالي أخبرني أنه أصدر لي تصريحاً للخروج والدخول إلى ساوا دون أن يعترضني أحد. أراد بذلك أن أصحبه في اليوم التالي إلى قريته قرب «تَسَني»، حيث يقضي نهاية الأسبوع رفقة عائلته. استغربتُ أن يكون من أهالي تلك المنطقة التي اشتهرتْ بثقافة وقوميات مختلفة، فردّ عليّ أن الحكومة أهدته بيتاً وأرضاً كبيرة هناك.

لم أتحمّس كثيراً لفكرة مغادرة المعسكر، كنتُ أود البقاء قرب سلمى، في انتظار ظهورها. كان مجرد مروري اليومي باللواء الثالث سلوان للهفة روحي وانتظارها الطويل. كنتُ أضمّد رهق قلبي بتلك المساءات التي أشتمّ فيها قرب سلمى، وأنا على بعد خيمة أو اثنتين من أنفاسها.

عدتُ إلى خيمتي، وأنا أسترجع كيف باغتتني سلمى بفكرة مجنونة.

لم يطل انتظاري في مَرسى فاطمة حتى لمحتُها من بعيد وابتسامتها تسبقها وتنثر عطراً في المكان. أمسكتْ بيديّ وقبّلتني. كنتُ أحبُّ طريقتها في ابتدار اللقاء وفي إنهائه.

«هل تعرفين أني لا آتي إلا من أجل هذه القُبل اليومية؟»

«إذن ستكون هذه الأخيرة، وسنرى إن كنت ستأتي بعدها أم لا».

تضحكُ فأعلنُ انهزامي أمام إغراء ضحكتها:

«في الحقيقة أنا لا آتي إلا من أجل هذه الضحكة الصافية».

تضحكُ أكثر قبل أن ترتدي ملامح جادّة وهي تنقل إليّ فكرتها:

«سأجعلك تأتي من أجل شيء آخر. غداً يوم مفتوح في المدرسة، والحضور فيه غير ملزم، لذا اخترتُ أن أكون معك، سنقضي النهار بأكمله سوياً».

ضغطتْ سلمى على كلماتها الأخيرة بغنج، فأحسستُ برعشة تسري في جسدي كله. أمسكتْ بيديّ فاستقرت الرعشة فيهما قبل أن تكمل:

«ما رأيك أن نذهب إلى ماي سروا؟»

عدتُ إلى السوق وأنا أرى شوارع أسمرا تهدْهدني، تكشف لي أسرار بهجتها، تحتضن فرحي وتقذف به إلى الأعلى ثم تعاود احتضانه بحنوّ أكبر. لاحظ جبريل انتشائي لكنه لم يسألني، كان قد اعتاد تقريباً على حالتي هذه حين أعود من لقاء سلمى، لكنه تفاجأ لاحقاً حين عرف أني استأذنتُ من الحاج برهان لأقضي النهار بأكمله خارج المحل.

بدأ النهار يتفتّح بتثاقل وقد أصبحتُ في إندا ماريام. كانت الحافلات قد بدأتْ في التحرك بالمسافرين إلى جهات شتى، بينما كنتُ أنتظر قدوم وجهتي.

أطلّتْ سلمى بفستان أبيض فبعثرتْ ما تبقى من الليل. لم تُقبّلني هذه المرة، بل احتضنتني بنهم. كنتُ أشعر بأنفاسها عند رقبتي قبل أن تطبع قبلة فيها وتهمس:

«أحبك».

صعدنا إلى حافلة «ماي سروا»، كانتْ سلمى تمسك بيدي وكنتُ في المقابل أُمسك بالدنيا. جلستْ إلى جوارنا عجوز لم ترفع نظرها عنا. كانت السعادة بادية على ملامح سلمى وحديثها وحتى حركتها. طوّقتني بذراعها فلمحتُ ابتسامة على محيا العجوز سرعان ما أخفَتْها حين رأتني. ابتسمتُ لها فعادتْ ابتسامتها أكبر وهي تغمز لي بلؤم.

نزلنا عند بحيرة ماي سروا، بينما واصلت الحافلة طريقها وسط تلويح حار من العجوز. استغربتْ سلمى خلو المكان من الزوار، بينما كنتُ أراه مزدحماً بنا:

«حين نكون معاً نملأ المكان بصخب عشقنا فلا يعود يتسع للآخرين».

«دائماً ما تغلبني بكلماتك الحلوة».

تقطر كلمات سلمى دلالاً، تسكبها في روحي مباشرة لتنهي ظمأً يستوطن أحشائي منذ عصور.

جلسنا على العشب قبالة البحيرة. كانتْ تحدّق في البعيد، وكنتُ أنتظر التفاتتها كي أتوضأ بجبينها.

«لا أعرف لماذا ينتابني القلق كما شعرتُ بسعادة غامرة؟»

بدتْ نبرتها مضطربة وهي تنقل إليّ شعورها هذا. مسحتُ على شعرها الأسود، تمنيتُ أن أُسافر فيه، أن أقضي بقية عمري في كنفه:

«هذا شعور طبيعي، لكن لا تجعليه يسيطر عليكِ. لن يطرأ في علاقتنا ما يدعو للقلق».

أعاد كلامي وجه سلمى إليّ وقد ارتدى حلّة فرح سرعان ما انتقل إلى وجهي وهي تميل عليّ وتهمس:

«اشتقتُ إليك».

اشتقتُ إلى سلمى أكثر وأنا أسترجع يومي في ماي سروا، وأُغمض عيني عليه.

انطلقنا فجراً باتجاه الغرب. كان منجوس منتشياً وهو يشير إلى قرية «كُرمك» في ضواحي ساوا:

«هنا يقضي الضباط الأقل رتبة أوقاتهم الممتعة، ستمرُّ بهذا المكان قريباً فأنا أتوقع لك مستقبلاً رائعاً في العسكرية».

رسمتُ ابتسامة قاومتُ كي لا تبدو فاترة. تجاوزنا القرية فبدا الطريق أمامنا سهلاً منبسطاً. كان منجوس حريصاً أن أسلك طريقاً لا أحيد عنها مطلقاً، كان يبدو كمَن يسير على إحداثيات بعينها. تجاوزنا عدداً من الحواجز الأمنية دون أن يتم إيقافنا، فوصلنا القرية ظهراً. ودّعني على أن أوافيه مساء اليوم التالي.

«عُدْ في طريقنا نفسه. لا تحِدْ عنه أبداً».

كان هذا أول خروج لي من ساوا بعد انقضاء شهري الأول. شعور غريب بالشوارع والناس خارج حدود المعسكر، تذكرتُ أسئلة جبريل:

«هل تعلم أنك بقرارك هذا تحكم على نفسك بحياة أبدية في إطار العسكرية؟ هل تدرك أنكَ لن تعود إلى حياتك الطبيعية هذه أبداً، بل ستقضي عمرك في ميادين التدريب متنقلاً بين حمل السلاح، ومواد البناء؟»

لا بأس. قلتها لنفسي مجدداً وكأني أجيب جبريل للمرة الثانية، بل كنتُ هذه المرة أكثر يقيناً بصواب قراري وقد اقتربتُ من سلمى أكثر.

وصلتُ المعسكر دون أن يعترضني أحد طوال الطريق. كانت العربة وحدها كافية لتجاوز كل الحواجز. وجدتُ كداني ومعه شريط جديد من إلسا:

«لم نجدها حتى الآن، لكننا لن نيأس. أنت تعلم أننا نبحث بطريقة صعبة وتتطلب بعض الوقت وسط هذه الأعداد الكبيرة من المجندات».

تكلّفتُ الصبر وأنا أطالع وجه كداني الذي يتربص بردة فعلي:

«لا بأس، سأنتظر».

سألني كداني عن رحلتي فنقلتُ له تعليمات منجوس الصارمة بارتياد الطريق نفسه، فجاءني جوابه صاعقاً:

«قد يكون هذا بسبب الألغام التي يزرعها الجيش، فتحصد أرواح قرويين أبرياء، ثم يُلصق التهمة بالجهاديين. . لا عليك، وماذا أيضاً؟»

حكيتُ لكداني عن شعوري الغريب خارج أسوار ساوا. أخبرته كيف أحسستُ باختلاف كل شيء في الخارج، عنه هنا، حتى الهواء الذي نستنشقه. بمجرد أن أنهيتُ حديثي، انهمر حديث كداني:

«العدالة التي ننشدها لا تعني توزيع الظلم بالتساوي. لسنا ضد أداء الخدمة الوطنية، لكننا ضد أن تصبح أبدية. هل تعلم أن بيننا

مَن دخَل ساوا في دفعتها الخامسة، ولم يغادرها طوال هذه الأعوام المتراكمة؟ هل تعلم أنّ الذين غادروها هم فقط أولئك الذين استشهدوا في الحروب؟ لهذا نناضل يا صديقي».

«من أنتم؟»

«بمجرد أن يُنهي المجند تدريبه، يتحوّل إلى عامل سُخرة، يشيّد المباني ويرصف الطرقات في طول البلاد وعرضها مقابل وجبة العدس التي تعرفها، لا يُستثنى من ذلك إلا محظوظ مثلك، أو فتاة اختارها ضابط للياليه الحمراء فوافقتْ مرغمة اتقاءً لذلك العذاب، أو أخرى اختارتْ أن تحبل بأي طريقة لتحصل على الإعفاء. لهذا نناضل يا صديقي».

«من أنتم؟»

«رغم كل معاناتنا كمجندين، فنحن أحسن حالاً من قدامى المحاربين الذين شاركوا في الثورة. تنكّرت لهم الثورة وتخلّت عن ذاكرتها. يُقال لنا إن البلاد تعيش حالة بين الحرب والسلم، لكنّ السؤال هو لماذا؟ كثيرة هي الدول التي ورثت مشاكل حدودية مع جيرانها، لكنّ خيار الحرب لم يكن على رأس القائمة. لهذا نناضل يا صديقي».

«من أنتم؟»

تجاهل كداني سؤالي لبعض الوقت، وهو يحدّق في البعيد، قبل أن يعود بملامح متعبة، وهو يحكي حكايته.

(6)

تركتُ الحشد الغاضب بعد أن رجوتهم أن يعطوا البروفسور «هبتي» فرصة أخيرة. حاولتُ طوال ساعتين إقناع الرجل بالوقوف إلى جانب مطالبنا العادلة، لكنه كان يتهربُ ويراوغ إلى أن اضطر أخيراً للاعتراف صراحة:

«سامحني يا بني، فأنا لا أستطيع دعم قضيتكم والوقوف في وجه الحكومة. أعرف أني بهذا أخذلكم، وأعرف أن هذا يناقض كل ما حاولتُ تعليمكم إياه، لكنْ قد يأتي يوم تعذرونني فيه».

خرجتُ من مكتب المدير لأجد الطلاب في وجهي. تبخّر ضجيج الممر وحلّ محله صمت مطبق بمجرد أن رأوني. كانوا ينتظرون كلمة في أحد الاتجاهين. صمتي زادهم حيرة وترقباً، إلى أن اخترتُ القرار الصعب:

«سنبدأ العصيان».

لم أكد أدخِل المفتاح في ثقب الباب حتى فتحته أمي وعلامات القلق تملأ وجهها. احتضنتني وهي تسأل عن حالي وتتفحَّص وجهي لتتأكد من سلامتي. بذلتُ جهداً كبيراً حتى أقنعتها أني وكل رفاقي بخير، لكنها لم تتركني حتى أخذتْ عليّ عهداً بأن ألزم البيت حتى تهدأ الأوضاع. لحقتُ بها فوجدتها لم تقرب

دواءها، أعطيتها إياه وجلستُ بقربها حتى نامتْ فاتجهتُ إلى غرفتي.

أعيش مع أمي بمفردنا بعد اختفاء أبي القسري. تغيرت حياتنا تماماً ابتداء من اليوم التالي لفقده. صحيح أننا لم نفقد الأمل في عودته، لكننا وبطريقة ما كيَّفنا حياتنا على الوضع الجديد، إذ لم نكن العائلة الوحيدة التي اختفى مُعيلها فجأة دون معرفة الخاطف. أنكرت الحكومة معرفتها بمصير المُختفين، لكنها في الوقت نفسه لم تبذل جهداً يُذكر في البحث عنهم.

لم يمضِ وقت طويل حتى سمعتُ طرقاً خفيفاً على نافذتي، استبدّ بي القلق فقد كانتْ هذه هي طريقة إلسا حين تزورني خلسة. احترتُ في سبب مجيئها وقد كنتُ أوصلتها إلى البيت قبل قليل. ارتديتُ ملابسي على عجل وأنا أتمنى ألا تكون قد وقعت في مشكلة ما. فتحتُ الباب فوجدتها أمامي واجمة. لم أرَ هذه النظرة من قبل، هممتُ بسؤالها، لكنّ يداً انتزعتها بعيداً ليظهر مكانها أربعة رجال مسلحين وبملابس مدنية. طوّقني أحدهم بشدة، فكرتُ في مقاومته، لكنّي عدلتْ. بمجرد أن ركبتُ في السيارة أعصبوا عيني بعصابة قاتمة، وانطلقوا مسرعين.

ظلّت العصابة على عيني لأربعة أيام كاملة، وأنا متكوّم في زنزانة ضيقة. كل يوم يأتي شخص صوته أجش ويساومني على الخروج مقابل التوقيع على اعتراف بتدبير الاحتجاجات الطلابية. في اليوم الرابع كان أكثر توتراً وهو يعيد على مسامعي طلبه، فاستعدتُ قوتي بعد أن كدتُ أفقدها. آخر اليوم اقتادتني مجموعة

وسلّمتني إلى مجموعة أخرى فكّتْ عصابتي لأجد نفسي في أحد مخافر العاصمة.

«أطلقوا سراح كداني.. أطلقوا سراح كداني».

كان صوتُ الطلاب مجلجلاً وأنا أدخل أمامهم إلى المحكمة. لمحتُ أمي شاحبة وهي تستند إلى إلسا، لم يكن بمقدوري احتضانها، اكتفيتُ بابتسامة علّها تغسل وجعها الطافح. حضرت الصحافة أيضاً، لم تبقَ صحيفة لم ترسل موفداً، شعرتُ أن اهتمامي بالعمل الصحفي لم يذهب سدى.

كنتُ أرفدُ نشاطي في الجامعة بالعمل مساء في صحيفة مستقلة، أسنَدَ إليّ رئيس تحريرها صفحة أسبوعية تُعنى بالحياة الجامعية، تساعدني فيها إلسا. بمجرد أن أنتهي من الصفحة مساء الجمعة، يضمّها رئيس التحرير إلى بقية الصفحات في طريقها إلى أديس أبابا، حيث تُطبع كل الصحف المستقلة، بعد أن استأثرت المطبوعات الحكومية بكل الورق.

يعود رئيس التحرير، وبحوزته خمسة آلاف نسخة، يمنحني خمسمئة منها لأوزعها في الجامعة، بينما يتكفل أطفال الشوارع والمشردون بتوزيع ما تبقى في شوارع العاصمة. كنتُ دائماً ما أتوقف عند حجم السخرية الذي يثيره قيام أطفال مشردين لا يجدون قوت يومهم، بتوزيع مطبوعات تنظّرُ وتبشّر بالعدالة والرخاء، ومع هذا ثبت الآن أني لم أكن أُضيع وقتي المسائي.

فرغت النيابة من تعداد التُّهم الموجَّهة إليّ، وطالبتْ بعقوبة قاسية. أمام القاضي وحشود الطَلاب سُمح لي بالدفاع عن نفسي:

«الذين غضبوا من عصيان أوامر التشغيل، نسوا أن إرتريا وطننا جميعاً. لسنا منقسمين إلى أسياد وعبيد، لذا فمن أبسط حقوقنا أن نرفض تشغيلنا سُخرة. لن نقبل بهذه الأعمال ما لم تكن بمقابل مُجْزٍ، وأن يكون للطالب حرية المشاركة فيها من عدمها، كما أن له الحق في اختيار نوع العمل الذي يلائمه. لسنا ضد بناء الوطن، لكننا ضد استغلالنا باسم هذا الوطن. لن نتراجع، والذين يعوّلون على الوقت لرؤية شيء آخر إنما يؤجّلون خيبة الأمل».

عمّ التصفيق والصفير قاعة المحكمة، فاضطر القاضي لإسكاتهم، وأمرني بمواصلة الحديث:

«غداً هو العشرون من يونيو. في كل عام نتذكر فيه شهداءنا الأبرار، لكننا أيضاً يجب أن نتذكر الأمانة التي طوقونا بها. إذا كنتم تعتقدون أنهم سيكونون سعداء في السماء حين يرون الوطن الذي ضحوا من أجله يقهر أبناءهم، فنحن على استعداد للتنازل طوعاً عن حالة العصيان».

من جديد طرَقَ القاضي بمطرقته عدة مرات حتى توقَّف التصفيق. رُفعت الجلسة للنطق بالحكم. كنتُ متفائلاً، وكذلك كانتْ أمي التي أضاء وجهها بمجرد أن لامستْ يدي. مرّت دقائق قبل أن يعود القاضي من جديد وينطق بالحكم.

في الطريق إلى البيت بدا الاحتفال بالبراءة كأحد مواكب الأفراح الأسطورية، امتلأ كمشتاتو عن آخره بطلاب جامعة أسمرا وأهاليهم. كنتُ محمولاً على الأعناق رغماً عني، وسط هتافات لم تعهدها أسمرا من قبل:

«لسنا عبيداً. . لا للاستغلال».

بدا الصوت هادراً وهو يجمع كل هذه الحناجر على قلب همّ واحد.

لكنها للأسف، كانت المرة الأخيرة.

في الطريق إلى «ويعا» استرجعتُ هذا المشهد، وأنا أعيش نقيضه تماماً. كنتُ مكبّلاً إلى يد القاضي الذي أمر ببراءتي، وخلف عربتنا تسير حافلات ممتلئة بالطلاب وذويهم. لم أكن مهتماً إلا بحالة أمي الصحية، والوقار المهدور لهذا الرجل.

«سامحني. يبدو أنني سببتُ لك المشاكل».

كنتُ مشفقاً عليه، لكنه حوّل شفقتي إلى وجهة أخرى:

«لا عليك. حين يُحكّم القاضي ضميره، لا يعود يضرّه شيء، لكني حزين على هذه البلاد وأنا أراها تحيد عن الطريق التي اخترناها في أول البذر. حزين لأننا بدأنا نرتدي ثياباً تضيق بكل أولئك الذين مضوا بملء إرادتهم كي يتركوا لنا مكاناً أكثر رحابة. حزين لأنّ إرتريا اليوم أقسى منها حين راودتنا فكرة التغيير».

لم يعد الرجل ينظر إليّ، أصبح يتحدث مع نفسه، ترك المكان والزمان وتعلّق بذاكرته الحية:

«كلما فقدنا شهيداً، كنا نقترب أكثر من إرتريا. لم يكن بيننا أحد يذهب سدى. كان الشهداء يغادرون مبتسمين، وكنّا نغار منهم، وننتظر دورنا. كم هم اليوم الذين يذهبون سدى دون أن يخطو الوطن برحيلهم خطوة إلى الأمام؟ كم هم اليوم الذين يغادرون رغماً عنهم، وعن أحلامهم وأمانيهم؟».

أطلق الرجل تنهيدة، وكأنه يتفاعل مع حديثه، قبل أن يبتسم بمرارة وهو يواصل حديثه:

«قبيل الفراغ من الدستور، كنّا مختلفين للغاية، أَنَجْعل الرئاسة على فترتين، أم نحصرها في فترة واحدة؟ أخشى الآن أن تنتصر الفكرة الثانية، فتصبح الرئاسة فترة واحدة، ولكن، إلى الأبد».

بلغنا «ويعا» فتوقف الرجل عن حديث النفس وعاد إلى المكان، لكنه في المقابل حلّق بي إلى ذاكرته. تمنيتُ لو كنتُ جزءاً منها، حرفاً أو صورة. تمنيتُ لو كنتُ ابتسامة أحد أولئك الحالمين، لا تغادر الذاكرة مهما أوغل صاحبها في الغياب.

في زنزانتي الانفرادية كان شعوري بالذنب يتعاظم. فلولاي لما جيء بهذه العائلات إلى هذه الصحراء الجدباء. كنتُ مرعوباً على مصير أمي المريضة وأخريات لم يكنَّ قادرات على تحمل حرارة الجو في ضواحي دنكاليا، ولم يُسمح لي ولا لبقية الطلاب بالالتقاء بهن، إلى أن وجدتُ الحل.

قضيتُ أياماً وأنا أحاول إقناع رفاقي بالتوقيع على إقرار التوبة، كان هذا شرط السلطات الوحيد للإفراج عن الجميع باستثنائي والقاضي، وهذا ما كان يرفضه الرفاق إلى أن وافقوا أخيراً دون اقتناع. وحدها إلسا رفضت التوقيع حين علمتْ أنها بذلك سترافقني إلى ساوا.

في الطريق إلى ساوا بدتْ إلسا مبتهجة:

«أعرف أننا نذهب إلى ساوا رغم كوننا معفيين من التجنيد،

لكنْ طالما أننا معاً فلا يهمني أين نكون. ثم إن الرفاق لن يخذلونا وسيمضون في الطريق الذي تعاهدنا عليه».

لم تكنْ إلسا تعلم أننا لن نكون معاً بعد ذلك، لكنني أيضاً لم أكن أعلم أن الطريق الذي تعاهدنا عليه، محته السلطات بعد ذلك حين بعثرت الكليات على مدن البلاد المختلفة، وبعثرت معها أي أمل في بقاء الطلاب على قلب همّ واحد.

قضيتُ وقتاً حتى تعودتُ على اللواء السادس. كان مكتظاً بالهاربين من ساوا، والمرحّلين من السعودية. هؤلاء لم يكونوا قادرين على تحمل سوء المعاملة، فيعلو بكاؤهم حتى يحرمني النوم. كنتُ أشعر بالضباط والمجندين على السواء يحملون لهم الضغينة، ولم يكونوا ينادونهم إلا بعبارات الانتقاص كونهم نشأوا بعيداً عن أجواء الحرب والمعاناة، وكأنهم بذلك يسقونهم الألم بأثر رجعي.

كنّا في هذا اللواء نقوم على خدمة المعسكر بأكمله، نجمع الحطب ونجلب المياه من الآبار البعيدة وننظف مراحيض الضباط القذرة وننصب الخيام الضخمة، ولولا خوف الضباط من انتقامنا لأوكلوا إلينا إعداد الطعام. كنّا أول لواء يستيقظ وآخر لواء يخلد إلى النوم. وكنّا محرومين من حفلات السبت الأسبوعية، والحفلات الكبيرة التي تُقام مرة في الشهر، وأي مجنَّد يعترض يُعاقب بمضاعفة الأعباء، بينما يكافأ الملتزمون بمغادرة اللواء إلى ألوية أخرى.

كان واضحاً أن غرض اللواء السادس هو كسر إرادة المجند

وكبريائه. كان مطلوباً من الجميع أن يتخلّصوا من أي ذرّة تمرد محتملة. كان اللواء يُعيد تشكيل عقول ووجدان المجندين بحيث تصبح ساوا هي المكان الوحيد الصالح للحياة.

لم أغادرْ اللواء السادس إلا حين خشي الضباط أن يتأثر البقية بتمرُّدي، وقتها كان قد مضى على وجودي هناك خمسة أعوام. خرجتُ مع موعد اليوم العظيم، حين قدمتَ أنتَ إلى هنا، وكأن خلاصي الجديد ارتبط بعبوديتك الجديدة.

هل عرفتَ الآن من نحن؟

(7)

على غير العادة، استيقظنا على أصوات شاحنات تجرّ غرفاً جاهزة عوض الصافرة اليومية.

«لا تمارين اليوم. اتبعوا تعليمات الضابط في تجهيز منطقتكم».

لم أفهم تماماً عبارة منجوس، وإن كنتُ غير معني بها. أشار لي فاقتربتُ منه.

«حتى أنت بإمكانك البقاء في الخيمة حتى أحتاجك».

في طريقي وجدتُ كداني الذي أنهى حيرتي:

«يبدو أننا على أعتاب مهرجان ساوا».

انقلب المعسكر رأساً على عقب. نُصبت خيام جديدة، لم تكن الغرف الجاهزة إلا حمّامات من الفيبرغلاس، نُصبت أعمدة حملت أسلاك إنارة، أُعطينا ملابس وفرشاً وبطانيات جديدة، امتلأ المكان بخزّانات مياه الشرب، اُستبدلت اللوحات القماشية بأخرى حملت عبارات مختلفة: «بناء الإنسان أولاً»، «الوطن هو كرامة الإنسان وحريته». لم أُصدّق هذا الانقلاب المدوّي في ساوا، غير أن مازن كان يفوقني دهشة:

«ايش هادا. . يا رجل الجماعة دوْل جنّوا ولا ايش؟».

قضى المجندون معظم نهارهم في تجهيز المكان وتنظيفه، حتى جاءت شاحنة نزل منها نحو عشرة مجندين عرفتُ أنهم كانوا في اللواء السادس سيئ السمعة. بدوا منطوين أكثر من اللازم. أشار لهم الضابط فتبعوا إشارته إلى إحدى الخيام دون نقاش. رؤوسهم الحليقة المطأطئة لم تكن وحدها ما يميزهم، بقدر مسحة الإذلال التي كستْ ملامحهم.

«اشبهم دوْل؟».

حكيتُ لمازن ما أخبرني به كداني عن قسوة الحياة في اللواء السادس، وتركته يستعيذ من ذاك المكان، بينما لفتني قدوم شاحنة جديدة اعتلاها جنديان وبدآ في قذف أكياس الطعام على المجندين. كانت هذه المرة الأولى التي أرى فيها شيئاً يُقدّم للمجندين غير الخبز اليابس والعدس. كان هذا إيغالاً في الانقلاب الذي أصاب ساوا، قبل أن يُضاف إليه إمكانية الاغتسال بقدر ما أراد الواحد منا.

«وديني. . دوبي أحسّ بالحياة».

على فراشه الجديد تمدَّد مازن إلى يميني، بينما أصبح كداني على يساري، بعد أن غادر بعض المجندين إلى خيام أخرى فوجدنا فرصة لتغيير أماكننا. وحده كداني كان غير مبالٍ بما يحدث، وهو يرد على مازن:

«لا تفرح كثيراً، لن يدوم هذا طويلاً».

مع هذا كانت هذه الليلة هي أسعد ليالي ساوا على الإطلاق.

كانت المرة الأولى التي يُسمح لنا فيها بالحديث والتسامر بصوت عالٍ. رأيت وجوه المجندين الحقيقية، وقد نزعوا عنها قتامة ساوا وشروطها الصارمة. أضواء الخيمة الجديدة وانعكاسها على الوجوه الفرحة، أحال المكان إلى عرس. كان المجنّدون يضحكون بعمق، وكأنهم ينتقمون من أيامهم السابقة، بينما أخذتني لحظة السعادة النادرة هذه إلى أحضان سلمى.

«لن تُصدّق ما حدث معي اليوم».

كانت هذه طريقة سلمى في ابتدار الكلام، تُغرقه تشويقاً، قبل أن تبوح به كله. وددتُ مراراً لو أخبرها أن لا حاجة لي بذلك، وأنا المسكون باللهفة لكلِّ ما تنطق به. ومع هذا كنتُ دائماً ما أقابِل طريقتها بأفضل ما أستطيع: أعقد حاجبيَّ، أستبق حديثها بالدهشة، أنظر في عينيها وملامحي سؤال كبير:

«ها».

يُشعُّ وجهها، تشبِك كفيها خلف ظهرها، وتنظر إلى الأعلى، بينما تسند إحدى قدميها إلى الكعب وهي تُحرِّكها يمنة ويسرة، وكأنها تستعدّ بطريقتها لبدء الحكاية. تتأخر قليلاً، تتّسع ابتسامتي، تنتبه لذلك، فتضحك وهي تمسك بيديّ:

«لحظة».

تتسع ابتسامتي أكثر، أضحك، فتشيح بوجهها وهي ترميني بغنج:

«لن أحكي لك إذن».

أتوسّلُ وجهها فيعود أكثر إشراقاً. هذه المرة أُسيطر على

ملامحي. أقف قبالتها تماماً، أنظر في عينيها مباشرة، تقترب مني، وقبل أن أعي ما تنويه، تقبّلني طويلاً بنهم، وهي تحيط وجهي بكفيها، وتتحدث. لا أفهم حديثها، تعيده، فأسمعه بوضوح:

«هذا ما حدث معي اليوم.. أجمل ما حدث معي اليوم».

انتبهتُ متأخراً أن ابتسامة بلهاء ارتسمتْ على وجهي، بينما توقَّف المجندون عن الحديث، وأخذوا يراقبون استغراقي، قبل أن يستغرقوا بدورهم في ضحك هستيري.

هكذا كانت سلمى. تملأ ما مضى، وما هو آتٍ. تغنيني، فلا أعود أحتاج شيئاً. تُصبح هي حاجتي الوحيدة.

أحتاج سلمى. أحتاجها بقدر هذا الفقد ينهش روحي. بقدر وجعي يتعاظم فيبتلع قدرتي/ رغبتي في البقاء دونها. أحتاج سلمى لأن فقْدها هزيمة معلنة، وأقسى هزيمة تلك التي يحفّها الشهود.

أحتاجها لأني لا أقوى على العودة، وقد أنزلتُ أشرعتي، وأحرقتُ مراكبي، ومنحتُ نفسي لحبي الكبير، والرجل عادة في حياته، لا يقوى إلا على حبّ واحد كبير.

أحتاج سلمى، لأني معها أطلّ على وجهي القديم، شغفي الضائع، والنوافذ المشرعة على ذاكرة مبللة بالعشق. أحتاجها لأنها دوماً تسّاقط على أحزاني، دون حتى أن أهزّ جذوع الكلام، فيبرأ كل ما فيّ.

أحتاج سلمى، وكفى. هذا الاحتياج هو كلّ أسبابي.

(8)

دون صافرة أيضاً، ودون شاحنات هذه المرة، استيقظ لواءنا وهو لا يكاد يصدّق أن الضابط منجوس تركنا في خيامنا. كنتُ قد استيقظتُ باكراً وكذلك معظم المجندين، لكننا بقينا في أماكننا في انتظار الصافرة التي لم تأتِ حتى العاشرة، لنجد أمامنا حافلات تقلُّ شباباً من الجنسين، عرفتُ لاحقاً أنهم قادمون من أوروبا والخليج.

أخيراً، أطلق منجوس صافرة قوية، لكنه احتفظ بابتسامة بدت مصطنعة لمن يعرفه. انطلقنا ركضاً باتجاه الحمامات. تأخرت الصافرة الثانية زهاء النصف ساعة، حتى عدنا جميعاً من تلقاء أنفسنا، استمعنا بعدها للصافرة الثانية وابتدأت التمرينات. لم نبدأ بالركض كما العادة، أدّينا لأول مرة تمارين في المكان، تحريك اليدين عالياً في الاتجاهين، والميل بالجذع للأسفل، دقائق وطلب منّا قائد الفرقة الركض بتدرج. كان يركض معنا، والحافلات تسير إلى جوارنا، بينما أخرج بعضهم رؤوسهم من النوافذ وهم يحيون المجندين.

لم تمضِ دقائق حتى عاد منجوس في اتجاه الخيام فتبعناه، حتى توقف وأعلن انتهاء التمرين.

«ارتاحوا لبعض الوقت، حتى يجهز الفطور».

غادر الضابط، وتركنا نتبادل نظرات الغيظ من حنوّه الكاذب. نزل الشباب والشابات واختلطوا بنا. جينزات قصيرة مقطعة، قصّات «راستا»، أساور وقلائد طويلة، ضحكات بصوت عال. لم أستطع تمييز القادمين من أوروبا، عن نظرائهم من الخليج. وحده مازن ربما تمكَّن من ذلك بسهولة.

«يا واد»..

تحلّقتْ مجموعة كبيرة حول مازن، الذي بدا منتشياً بالقادمين من السعودية. كان يصفُ لهم أين يسكن في جدة، وأين يلعب الكرة، وأي مطعم يُفضّل. كان يتحدث بصيغة الحاضر، وكأنه لا يزال هناك. في المقابل كان الشباب يسألونه عن حياته في ساوا، فيردّ بعبارة وحيدة:

«راح تشوفوا بنفسكم».

على الإفطار، واصل مازن حكاياته التي لا تنتهي عن جدة. كانت المرة الأولى التي نرى فيها الحليب والأجبان والبيض، بعدما اختفى الخبز اليابس وحلّ محله آخر خارج لتوّه من الفرن.

قبيل الظهيرة دُعي الجميع لحصة التثقيف السياسي التي يديرها منجوس، بينما توزع بقية الضباط على زوايا الخيمة، لكن هذه المرة بمهام تختلف عن حفلات الصفع السابقة. تفرّغ الضباط لتوزيع المنشورات على الضيوف، قبل أن ينتهي بهم الحال لتقديم المشروبات.

حديث منجوس كان عاماً، لم يتطرق فيه للتنظيمات الإرترية.

أسهب في تربص الأعداء بالوطن، ودور الشباب المنتظر، قبل أن يطلب الاستماع لهم. كان واضحاً أن ثمة ترتيباً معيناً. ينهض شاب يذكر اسمه، أو فتاة تذكر اسمها، ثم يذكر الشاب انتماءه وتذكر هي انتماءها إلى اتحاد الشباب في دولة أوروبية أو عربية، ثم تأتي الإشادة بمعسكر ساوا في الذود عن الوطن. في المقابل نهض مجندون للحديث عن الحياة في ساوا، وأصبغوا عليها صفات غارقة في المثالية. بدا الأمر مُتقناً أكثر من اللازم، لولا دخول مازن على الخط:

«كلام فاضي، أتركك منه».

طوال أيام مهرجان ساوا، ومازن يُقوّض جهود منجوس في تقديم صورة مزيفة عن المعسكر. كان يختلي بمن يستطيع من الضيوف، ويحكي لهم عن فظاعات ساوا. ينتهي منجوس من مهمته، لتبدأ مهمة مازن. استغلّ اللغات التي يُتقنها وانتقل لتحريض القادمين من أوروبا. كان دؤوباً كمن ينتقم من معاناته بفضحها، بتعريضها لشمس حارقة. كان يواجه النار بالنار، دون أن يفقد خفة دمه:

«منجوس هذا كان صبياً يبيع «أبو سلامة» عند الإشارات قبل ما ربنا يتوب عليه».

يضحك الشباب، بينما تمتنع الفتيات عن التعليق على جرأة مازن في استحضار المنتج الوطني للواقيات الذكرية أمامهن.

ومع هذا كان مازن أكثرنا حرصاً على المشاركة في كل أنشطة المهرجان. شارك في مباريات كرة القدم، وفي سباقات الجري. مثّل المجندين في المسابقات الثقافية، ورقص مع كل الأغنيات.

«لم تأكل ساوا قلبه بعد».

هكذا وصفه كداني. كان وصفاً قاسياً، ومخيفاً. لكنّ كداني الذي قابل مهرجان ساوا بفتور المجرّب، رأى في مازن الشيء الوحيد الجديد، والمحزن.

نقل إليّ كداني حزنه، وهو يتتبع بهجة مازن المتطرفة. كنا نعلم، وكان مازن يعلم أكثر منّا كم هي تلك البهجة مؤقتة. كم هي طارئة ومخاتلة. كم هي مزيفة ومخادعة، أكثر من حيل منجوس.

اليوم الأخير كان مختلفاً بقدوم أهالي المجندين. تذكرتُ اليوم العظيم، حين انخرط الأهالي في بكاء مرّ مع أبنائهم، دون أن يكون ذلك مفهوماً للشباب القادمين من الخارج. كان لدى الأمهات قدرة على التقاط المعاناة في عيون أبنائهن، دون أن تكون الملابس الجديدة، أو التمارين الخفيفة حائلاً.

«أنا بخير.. أنا بخير».

عبثاً يحاول مجند إلى جواري إقناع أمه. لم تكن تسمعه، كانت تشمّه، تقرأه، تتذوقه. كانت تُمسك وجهه بكفيها وهي تتأمل عينيه، فمه، شعره، ثم تحتضنه وتبكي، قبل أن تعاود السؤال:

«هل أنتَ بخير؟»

هذه المرة ينخرط الاثنان في بكاء لا ينتهي.

قبيل الغروب، غادر الأهالي، وصعد الضيوف إلى حافلاتهم، وهم يلوّحون لنا. كانوا كمن يُعلنون انتهاء الهدنة قبل أن نعود إلى حربنا الخاسرة.

يُلوّحون بسعادة بالغة، ومع كل حركة لأيديهم كانوا يُغلقون خلفهم باباً أو نافذة، حتى أظلمتْ ساوا تماماً بمجرد أن توارت الحافلات عن الأنظار. كان الجنود وقتها قد اقتلعوا آخر أعمدة الإنارة في المعسكر.

(9)

كمن أراد أن يمحو أي أثر لاستراحة المهرجان، بالغ الضبّاط في قسوتهم مع المجندين. كنتُ أرى منجوس وهو يتفنَّن في طلباته التي لا تنتهي. بدا كمن يعتذر بطريقته الخاصة، عن الأيام التي اضطر فيها أن يكون ودوداً مع المجندين، كان في الحقيقة ينتقم من شخصيته المؤقتة، يزيل ملامحها بقسوة، حتى عادت ملامحه المعروفة، وهي أكثر قبحاً.

انتبهتُ إلى صوت جلبة في الخارج، فخرجتُ وتبعني كداني. كان عدد من المجندين يحملون شاباً بدا بلا حِراك. اقتربتُ فسمعتهم يتحدثون عن انتحاره، وقبل أن أفهم أكثر جاءتْ عربة وحملت الشاب بعيداً. عاد المجندون إلى خيامهم تَشغلهم أحاديثهم المألوفة، دون حتى أن تستوقفهم وفاة الشاب. بدا كل شيء عادياً وفاتراً. بدت وفاة الشاب كبقية الأمور المزعجة في ساوا، لا يملك المجندون وسيلة لمواجهتها إلا باعتيادها.

عدت إلى الخيمة والحزن يملؤني، قبل أن يُمطرني كداني بحزن مضاعف:

«هذه ليست الحالة الأولى. لا يخلو لواء عادة من حالة انتحار أو أكثر».

عبثاً تذهب محاولاتي تجاهل قسوة الحياة في ساوا. يصرّ هذا المكان على أن يتسرَّب إليّ بكل تفاصيله الطافحة بالوجع. حيث ما ولّيت وجهي، أجده في انتظاري وقد ازداد توحشاً.

أوصلتُ منجوس إلى خيمته في اللواء الثالث، وسارعتُ أتبع وصف كداني لخيمة إلسا التي أصرّت على لقائي بشكل سريع. وجدتها أخيراً تنتظرني على المدخل.

كانت فتاة جميلة وإن بملامح تميل إلى الحدّة. قبلتني على خدي بألفة أراحتني. أردتُ سؤالها مباشرة عن سلمى غير أني خجلت، فآثرتُ السؤال عن أحوالها.

«لا شيء تغيَّر. نكاد نعتاد على أوضاعنا هنا. فقط أُشفق على القادمات الجدد، وحدهن يعانين البدايات، خاصة من قِبَل الضبّاط».

تذكرتُ حديث كداني عن الضباط، فبادرتها بالسؤال:

«هل يضايقكن منجوس؟»

«في ساوا ألف منجوس، حتى أننا لم نعد نميز بينهم. لم يعد من خلاصٍ أمام الفتيات إلا «كفلي مطياس»».

لم أفهم ما عنته «بقسم التسريح»، حتى أكملت عبارتها بشيء من المرارة:

«تستغلّ المجنّدات اللقاءات المحدودة بالمجندين للبحث عمّن يكسر القوانين ويكون سبباً في حملهن. وحدها الفتاة الحامل تحصل على إعفاء من الخدمة، بينما يعاقَب الشاب بالسجن. لديكم شاب اشتهر بذلك حتى أطلقنا عليه كفلي مطياس».

هجستُ بسلمى مجدداً قبل أن تنبِّهني إلسا:

«لا عليك.. كيف هو كداني؟»

انتبهتُ أني لم أُوصل شيئاً من سلام كداني لحبيبته. أبلغتُ السلام وشعرتُ أنّ كل شيء بات مواتياً لما جئتُ من أجله:

«ماذا عن سلمى؟»

صمتت إلسا قليلاً، قبل أن يكتسي صوتها نبرة جادة:

«لم نترك خيمة أنا ورفيقاتي إلا وبحثنا فيها عن سلمى دون جدوى. سألنا الفتيات اللاتي يترددن على خيمة الضباط، لكنهن نفوا وجود فتاة بهذه الملامح. ما لم تكن سلمى غير راغبة في الالتقاء بك، فإنها حتماً ليستْ موجودة في ساوا».

أنهتْ إلسا حديثها وهي تربت على كتفي، قبل أن تقبّلني من جديد:

«يُستحسن أن تغادر بسرعة قبل أن يثير وجودك الشبهات».

كان بادياً على كداني الاضطراب، لم يجد شيئاً ليواسيني به، ولم أكن قادراً على سماعه حتى لو فعل. عزلتني كلمات إلسا في غلالة قاتمة. بدأ صدري في الخفقان بشدّة، دقات قلبي تكاد تخترق أضلعي، ونفَسي يتباطأ. مددتُ يدي كي أتشبَّث بكداني، لكنّ حركتها الثقيلة جاءت متأخرة فكدتُ أسقط، لولا أن تداركني كداني.

في فراشي كنت مشتتاً جداً، كنتُ أبكي ومِن حولي تجمَّع مجندون، بينما كداني يطلب منهم المغادرة. لم أكن واعياً بشيء غير حاجتي للبكاء، وحده البكاء كان يخفّف اختناق روحي.

في المساء كنتُ أحسن حالاً، لكن دون أن تغادرني حالة الاختناق. رفضتُ فكرة كداني الذي رجاني أن أرتاح وأن أعتذر عن إيصال منجوس، كنتُ في الحقيقة أبحث عن راحتي بطريقة أخرى.

أوصلتُ قائد الفرقة إلى خيمة الضباط في اللواء الثالث، وقبل أن يغادر العربة استوقفته:

«سيدي، هل سبق ورأيت سلمى هنا؟»

استغرب منجوس سؤالي. ملامحي الجادّة أعادته إلى العربة. سردتُ عليه أوصافها. سرح قليلاً وكأنه يمرِّر كلماتي على ذاكرته، قبل أن يجيب بالنفي. غادر العربة، لكنه عاد كمن تذكَّر شيئاً:

«إذا وجدتها قبلي أخبرني، أنا متأكد أنك لن تبخل بها عليّ».

انتبهتُ أني لم أكن أكره منجوس، لم أكن حتى أحمل له أي شعور. رغم كل عدوانيته، كان أمامي طوال الوقت شيئاً مسطحاً لا يستدعي أي انتباه. انتبهتُ الآن ولأول مرة أن عينيه الضيقتان قد وسعتْ خبثاً متطاولاً، وأن جبهته الصغيرة وأنفه الدقيق، يعكسان ضيقاً ونفوراً. انتبهتُ لابتسامته التي بدتْ غادرة. انتبهتُ الآن أني أكرهه، بل أمتلئ بكرهه، وقد عاث في صورة سلمى.

خطر لي كم هي ساوا قاسية، وهي لا تنفك تُخرج أناساً مشوّهين، لا يستطيعون العيش إلا في عالم مشوّه.

عدتُ إلى الخيمة فوجدتُ كداني في انتظاري وحالة القلق لم تبرح ملامحه، قبل أن يعود لدور المواساة من جديد:

«لا يمكن لحبٍّ بهذا العمق أن تنتزعه الظروف. أنا متأكد أن

سلمى تبحثُ عنك كما تفعل أنت، لا يمكن لها أن تخسر حبيباً مثلك بهذه السهولة».

ابتسمتُ مرغماً، وأنا أُذكّر كداني بموقفه منّي حين علم بأمر سلمى، ابتسم بدوره وبدأ فيما يشبه الاعتراف:

«لم أكن أعرف معنى أن يكون الحب مجرداً، أن يأتي وحده دون مبررات يستند إليها، أن يكون أول الحكاية وخاتمتها، أن يكون الحدث والراوي والمستمع. لم أكن أعرف أن الحب قضية في حد ذاته، وليس بحاجة إلى إحدى تلك القضايا الكبيرة ليصبح مفهوماً ومشروعاً».

بدا كداني كمن يعيش لحظة مختلفة، مثله كنتُ تماماً.

«أحببتُ إلسا كرفيقة في النضال قبل أن أرى فيها رفيقة عمر. لو لم يأتِ مشروعنا في البدء لما لحقه الحب. كان الحب تابعاً لقضية أخرى، مرتبطاً بها، هامشياً على تخومها، ولم أكن أرى قبل مجيئك إلا وطناً واحداً، تعيش على خوافه بقية الأشياء. مجيئك أعاد إلسا إلى مركز القلب والشعور والاهتمام. أصبحتْ إلسا وطني في صورته الأبهى».

كان كداني يتحدث وعبرة تلمع في عينيه:

«منك تعلمتُ كيف أطارد هذا الوطن بحبّ، كيف أحتفظ بإيماني به رغم كل شيء. تعلمتُ أن الوطن الحبيبة، والحبيبة الوطن، وجهان لكل أحلامنا النبيلة».

رغم أحزاني، كنتُ سعيداً بكداني، لم أشأ أن أفسد عليه لحظته هذه بالمقاطعة. تمنيتُ لو أخبره أنه في المقابل غيّر حياتي،

جمّلها، منحها عمقاً ومعنى رحيباً. تمنيتُ لو أخبره أني أثناء بحثي عن سلمى وجدتُ الوطن، تعثرتُ به، ارتميتُ في أحضانه. تمنيتُ لو أخبره أني بدوري تعلمتُ منه معنى أن تكون الحبيبة الوطن، والوطن الحبيبة، وجهان لكلّ أحلامنا النبيلة.

في اليوم التالي كان كداني ينتظرني على باب الخيمة، وبيده آلة التسجيل. حيّرتني ملامحه الجادّة والمتوترة. نزلتُ من العربة واتجهنا معاً إلى حيث نستمع لرسائل إلسا، كنت مستغرباً أن تأتي رسالتان منها في يومين متتاليين. غير أن كداني بدّد استغرابي:

«ليستْ إلسا هذه المرة، إنها مِنّتْ، أختها، وهي تسكن في منطقة لا تبعد كثيراً عن بيت سلمى».

أردتُ سؤاله عن علاقتها بسلمى، لكنه بادر إلى تشغيل الشريط:

«ترددتُ كثيراً قبل أن أقحم نفسي في موضوعك خشية أن تغضب. أنا عادة ما أستمع لمراسلات إلسا وكداني كي أطمئن عليهما، وهما يعرفان ذلك. تعاطفتُ كثيراً مع حكايتك، وتمنيتُ من كل قلبي أن تجد سلمى، لكنّي لمّا عرفتُ أنها ليست في ساوا، قررتُ السؤال عنها هنا في أسمرا. سألتُ عدداً من صديقاتها في المدرسة وجميعهن قالوا إنها هربتْ إلى السودان. لم أقنع بهذه المحاولة، وسألت صديقي الذي يعمل في لجان الأحياء المسؤولة عن ترحيل المجندين إلى ساوا، فأكّد لي أنهم لم يرحّلوا فتاة بهذا الاسم خلال الأشهر الثلاثة الماضية. أعرف أن هذا سيكون خبراً صادماً، لكنّه على الأقل سيضع حداً لبحثك في ساوا بلا جدوى. تحياتي».

أربكتني مِنّتْ. اختلطتْ عليّ المشاعر. التفتُّ إلى كداني فوجدته يرقبُ ردة فعلي. كنتُ مشوشاً وغير قادر على التفكير. تذكرت جار سلمى الذي ذكر لي قصة هروبها إلى السودان، لكني لم أُصدقه واخترت هذا الطريق الطويل.

للحظة تملَّكني شعور بالمرارة، مرارة أن أكون قد أضعتُ حاضري ومستقبلي دون جدوى، بعد أن تعلّقت بسراب سلمى الذي قادني إلى ساوا.

زالت المرارة وحلّ محلها شعور بالغضب. اختارتْ سلمى الهرب إلى السودان دون أن تخبرني، دون حتى أن تودّعني وهي تحمل طفلي في أحشائها. اتخذتْ قرارها بمنأى عني وعن حبنا وعن مستقبلنا الذي كنّا نضع لبناته يوماً بعد آخر.

تلاشى غضبي تحت وقع شعور عميق بالخيبة. أشفقتُ على نفسي وقد كنتُ أظنّ أني أنتمي إلى حياة مختلفة، حياة حقيقية غير تلك التي يعيشها الآخرون. أشفقتُ على قلبي الذي طوّحتْ به أوهامه، شعرتُ به وقد امتلأ بفراغ قاسٍ بعد أن كان متخماً بمشاعر البهجة.

كان كداني لا يزال يرقب ردّة فعلي. لم أُحرك ساكناً، فقرَّر أن يبادر:

«لن أُعيد عليك ما تعلمته منك، لكنّك الآن بحاجة للتمسك بكل تلك المعاني التي جاءتْ بك إلى ساوا. جئتَ يقودك الحلم الذي اخترته وآمنت به. لا تسمح لشيء أن يهشّم صورة حلمك الجميل، تشبَّث ببهائه رغم كل شيء».

كان شعوري بالخيبة طافحاً، أكثر من قدرة كداني على احتوائه:

«تكذب ألسنتنا حين نكون صغاراً، لكن بمجرد أن نكبر قليلاً يقوم القلب بهذا الدور. وهذا ما فعَلَته سلمى حين تركتني».

«لكنّها الوطن، نسعى إليه مهما أوغل في الابتعاد. امنَحْ نفسك فرصة أخرى كي تجد وطنك، امنحه هو أيضاً فرصة كي يجدك. كثيرة هي الحواجز التي تقف عادة بيننا وبين أوطاننا التي نتمنى».

«وماذا إذا كانت سلمى تهرب مني؟»

«وماذا إذا لم تكن كذلك؟ حينها ستكون قد أضعتَ عمرك مرتين، مرة حين أتيتَ إلى ساوا، ومرة حين رضيت بالهزيمة».

لم أجدْ ما أقوله، فاقترب مني كداني وأمسَك بيدي، ضغطَ عليها ونظرَ في عينّي مباشرة:

«ستلحق بها. أليس كذلك؟»

دولة الشِفتا

(1)

على مدخل ساوا رفع جندي الحراسة يده لتحية منجوس، فتوقفتُ لا إرادياً. استغرب الضابط تصرفي، لكني تداركته بالسير من جديد. كنتُ أبذل جهداً كبيراً لإخفاء ارتباكي. بدت الطرقات المألوفة وكأني أمرّ بها للمرة الأولى. حواجز الأمن التي اعتدتها على الطريق إلى «تَسَني»، عادتْ لتشكّل لي رعباً لا ينتهي.

بدأتُ أبتعد عن ساوا، تركتها خلفي. تركتُ كداني الذي أقنعني بفكرة الهرب، دون أن تفلح محاولاتي في إقناعه بمرافقتي.

«لن أترك إلسا. سأظلّ إلى جوارها. الحق أنتَ بسلمى.. هذا وحده سيقرِّبنا من أوطاننا التي نريد».

كانت لهذا الرجل قدرة كبيرة على التمسك بخياراته. كان إذا آمن بقيمة ما، لا شيء يقدر أن يزعزع إيمانه. آمن بإلسا متأخراً، لكنه تشرّب هذا الإيمان في ما بعد. لا أدري كيف كانت ستمضي حياتي ما لم ألتقيه في هذه المرحلة منها بالذات؟

وصلنا إلى قرية منجوس ظهراً، غادر الضابط العربة، وهو يوصيني ألا أتأخر عليه في الغد، قبل أن يغيب وراء باب بيته.

بقيتُ ساهماً دون حراك. من جديد أعيش حالة الارتباك التي

تتملّكني قبل كل قرار مصيري. يمر الوقت، أشعر بوطأته على رأسي، يداهمني الصداع، تزداد حدّته كلما بعثرتني الحيرة. تحركتُ بالعربة دون أن أكون قد حسمتُ أمري تماماً. تجاوزت البيوت الطينية المتراصّة على جانبي طريقٍ ترابي وعر لأخرج إلى الشارع الرئيس. هنا بلغت الحيرة منتهاها. التفتُّ يميناً حيث طريق العودة ينتهي بمعسكر ساوا، التفتُّ يساراً حيث الحدود السودانية، وسلمى.

أدرتُ المقود باتجاه الغرب وانطلقتُ بأقصى سرعة.

في الطريق إلى تَسَني، كنتُ قد تخلصتُ تماماً من حيرتي، بدأتُ أشعر بنشوة أكبر كلما ابتعدتُ عن ساوا. وحده البُعد عن ساوا كان يعني الاقتراب من الوطن، سلمى.

قبل ذلك كان لا بد لي من تجاوز نقطة تفتيش معقَّدة كما أخبرني كداني:

«إذا تجاوزتَ تَسَني، فستكون على مشارف السودان. كن حذراً فهذه أصعب نقطة تفتيش ستلاقيك طوال الطريق».

بلغتُ تسني فوجدتُ على مدخلها طابوراً طويلاً من العربات ينتهي بنقطة التفتيش.

عاودني التوتر مع حركة العربات البطيئة. جهَّزتُ تصريح التنقُّل الذي استخرجه لي منجوس. بدأتُ أقترب، حتى باتت تفصلني عربة واحدة عن الضابط الذي يدقّق في هويات السائقين ومرافقيهم. كنتُ أتفحّص ملامحه القاسية، أرقب ردّة فعله. فجأة التفتَ إليّ بلامبالاة مربكة، فصرفتُ بصري عنه، عاد إلى السائق

فعدتُ إليه. أشار إلى سائق العربة بالوقوف جانباً والترجُّل عنها، فجاء دوري.

«كلّفني الضابط منجوس بشراء بعض الحاجيات من سوق المدينة قبل العودة به إلى المعسكر».

كان هذا ما لقَّنني إياه كداني، فالضباط لا يفوّتون فرصة المرور بسوق تسني حيث تكثر البضائع الرخيصة المهرّبة من كل مكان.

«ولكن تصريحك ينتهي عند هذه النقطة وليس مسموحاً لك تجاوزها».

شعرتُ أنّي أمام أهم لحظة في حياتي، استجمعتُ شجاعتي، ورسمتُ عدم الاكتراث على ملامحي:

«حسناً لا بأس. سأخبره بذلك وأرجو أن يجد لي العذر».

مددتُ يدي لآخذ تصريحي وتظاهرتُ بالاستعداد للعودة من حيث أتيت. سلّمني الضابط التصريح وأشار لي بالتحرك:

«واصل طريقك. لن أسمح لك بالمرور في المرة الثانية ما لم تكن تحمل تصريحاً».

تجاوزتُ نقطة التفتيش، وأنا أعدُ الضابط في سرّي ألا تكون هناك مرة ثانية.

بدأت أسير في طريق تحيط بها تلال صغيرة وشجيرات متناثرة مع عدد من الأكواخ. تجاوزتُ مكاتب الجمارك وثكنات عسكرية والمشفى الإيطالي القديم. مررتُ بسوق المدينة فرأيتُ ازدحاماً كبيراً لم أرَ مثله في أسواق أسمرا.

كانت الخطة تقضي بأن ألتقي شخصاً من طرف كداني يستلم عربتي العسكرية ويسلِّمني أخرى مدنية، على أن يستلمها مني شخص آخر قبيل وصولي إلى السودان.

أبديت استغرابي من هذه الجرأة غير أن كداني طمأنني أن تَسَني الحدودية بمثابة بلد ثالث يعيش وفق قانونه الخاص الذي تعتليه فوضى التهريب.

توقفتُ عند محل لبيع الملابس، كي أتخلّص من ملابسي العسكرية. كان لافتاً أنّ لوحات المحالّ كانت جميعها بالعربية دون وجود للتغرنية. لم يمضِ وقت طويل حتى تعرَّف عليّ رجل في أواخر الثلاثين. أعطاني مفتاحاً وهو يشير إلى عربة بيضاء صغيرة.

«اعتنِ بها. سينتظرك رجل لاستلامها على مدخل 13».

في طريق مغادرتي للمدينة مررتُ بعدد من أحياءها، حلّة سودان، وحلّة صومال، وحلّة تكارين، وحلّة حلبيت، وحلّة حبش. كان واضحاً أن أسماء الأحياء ترمي لأصول سكانها سواء كانوا سودانيين أو صومالين أو نيجيريين أو من قبيلة بني عامر أو السكان المنحدرين من المرتفعات.

بعد خروجي من تَسَني بعدة كيلومترات بلغتُ قرية «علي قدر»، ولم يتبقَّ أمامي إلا قرية «13» الحدودية لأصل إلى السودان.

وصلتُ إلى منطقة الأحراش التي تسبق تمركز حرس الحدود الإرتري. كانت الخطة تقضي بأن أختبئ هناك حتى المغيب. وجدتُ منطقة مغطّاة بشجيرات كثيفة فدخلتُ بعربتي وسطها. بدّلتُ ملابسي، ووضعتُ مالي في جيب غير ظاهر في سروالي الداخلي، وبدأتُ الانتظار.

حين غابت الشمس تماماً انطلقتُ في طريق رملية موازية باتجاه الغرب. كان الظلام دامساً إلا من ضوء عربتي. بدأتُ ألمح ضوءاً من بعيد، فتبعته. كان شيئاً متحركاً لم أتبين اتجاهه. خفّفتُ من سرعتي فبدأ في التلاشي. خمّنتُ أنه يتحرك نحو السودان. زدتُ من سرعتي. فبدأ الضوء يقوى، إلى أن اتّضح أن مصدره عربة دفع رباعي مدنيّة. حافظتُ على سرعة تُبقي العربة أمام ناظري، لتكون دليلي إلى الحدود، لكنها فجأة زادت سرعتها. اضطررتُ إلى زيادة سرعتي، فأسرعتْ أكثر.

لم يفلح سائق العربة في كسر المسافة التي تبقيه أمامي، فبدأ في تخفيف سرعته حتى توقف تماماً، ثم عاد في الاتجاه المعاكس بسرعة كبيرة ليصبح في مواجهتي وأضواء عربته تحجب عني الرؤية. خفّفتُ من سرعتي لأتبين الأمر، فإذا بطلقات نارية تخترق زجاج عربتي الأمامي. خفضتُ رأسي وانحرفتُ عن الطريق منطلقاً بأقصى سرعة في اتجاه الشمال. أصابتْ طلقة أخرى إطار عربتي، قبل أن تعود العربة الأخرى أدراجها نحو الغرب بسرعة أكبر. لم يجعلني ذلك أتوقف. واصلتُ السير حتى تمزَّق الإطار تماماً، فاضطررت للتوقف. كنتُ أرتجف من الخوف، وأنا أرقب تلاشي العربة في الظلام. كان واضحاً أن السائق اختار هذه الطريقة ليمنعني من السير خلفه.

جلبتُ الإطار البديل وبدأتُ في تركيبه. لم أكد أنتهي حتى شعرتُ بحركة مريبة، التفتُّ خلفي، فتلقيتُ ضربة على رأسي، لم أشعر بعدها بشيء.

(2)

صحوتُ على آلام موجعة في مؤخرة رأسي، تحسستُ مكان الوجع فوجدته رطباً. حاولتُ فتح عيني، لكنّ الشمس كانت قبالتي تماماً. بعد محاولات متكررة بدأتُ في التعرّف على ما حولي.

كنتُ داخل حاوية حديدية ضخمة، جانب من سقفها مكشوف، وإلى جواري يتمدد عدد من الأشخاص بينهم نساء. بدأتُ أنتبه أكثر، معظم هؤلاء كانوا مرضى وفي حالة سيئة. حاولتُ النهوض غير أني شعرتُ بالدوار. ظللتُ أنتقل ببصري بين مدخل الحاوية وبين الأشخاص إلى جواري. لمحتُ فتاة ترمقني بنظرات خائفة، سألتها عما يجري، لكنها أشاحتْ ببصرها ولم تجبني.

«سلامات. . سلامات».

أثار صوت رجل اقتحم الحاوية الذعر بين الموجودين. كان يوجّه كلامه لي، وابتسامة لئيمة تغطي وجهه. كان يعتمر عمامة مائلة تُظهر غرته، ويرتدي ثياباً رثة، بينما تتدلى بندقية كلاشينكوف من كتفه. طلب مني النهوض، فأخبرته أني أتوجّع، أمسك بي من أطراف قميصي وجذبني إليه بقوة فوقفت رغماً عني، قبل أن يقذفني بالقوة نفسها لأرتطم بالأرض.

«قُمْ وخل عنك الدلع . . حلّل نومتك» .

لم أفهم شيئاً من كلامه، ولم يترك لي فرصة سؤاله حيث غادر الحاوية سريعاً . التفتُّ من جديد إلى من حولي، فكان الخوف مسيطراً على ملامحهم .

لم يمض وقت طويل حتى بدأتُ أسمع جلبة وأصواتاً متداخلة، تلاها دخول أعداد من الشباب والفتيات إلى الحاوية وهم مقيدو الأيدي، وأُغلق الباب خلفهم . امتلأ المكان عن آخره فاضطررتُ للجلوس منكفئاً على نفسي، لكني أخيراً وجدتُ فرصة لأفهم ما يجري .

«نحن معتقلون لدى الشِفتا، لن يسمحوا لنا بمواصلة الرحلة إلى السودان ما لم نكمل ما علينا من مبالغ» .

«أي مبالغ؟ وما علاقة الشِفتا بذهابكم إلى السودان؟» .

همَّ الشاب الجالس إلى جواري بالجواب غير أنّ أصوات السلاسل على الباب صرفت انتباهه . دخل رجلان وأمسكا بالفتاة المريضة التي كانت إلى جواري واقتاداها إلى الخارج وسط صراخها الهستيري .

«انتهتْ مهلة خديجة اليوم، عرفتُ ذلك بمجرد قدومك» .

التفتُّ إلى الشاب لأستوضح كلامه .

«الشِفتا يعطون كل واحد منّا مهلة لدفع ما عليه، قبل أن يرسلوه إلى سيناء المصرية، وخاصة لو كان مريضاً، يحدث هذا غالباً في حال مجيء سجين جديد كما حدث الآن مع خديجة بمجرد قدومك» .

«وماذا عنك؟ متى تنتهي مهلتك؟».

خفّ ضجيج الحاوية، فبدأ الشاب في سرد حكايته.

كان أبراهام قد هرب من الخدمة العسكرية قبل أربعة أشهر. اتفق مع الشِفتا على إيصاله إلى السودان مقابل ثلاثة آلاف دولار، دفع نصفها مقدماً ببيع ذهب والدته، وعجز عن توفير النصف الثاني، لكنّ متاعب أبراهام لم تتوقف عند هذا الحد، فبمجرد أن علمت السلطات في أسمرا بهروبه حتى قامتْ بسجن والدته المريضة للضغط عليه كي يعود أو تقوم هي بدفع ما يعادل ألفاً وخمسئمة دولار مقابل إطلاق سراحها.

دمعتْ عين أبراهام وهو يروي المفارقة في أن يكون معتقلاً لدى العصابات حتى يدفع لهم مالاً، وتُعتقل والدته في الوقت نفسه لدى الحكومة حتى تدفع لهم مالاً.

«منحت الحكومة أمي خمسة آلاف نقفة حين أُستشهد أخي الذي ذهب للحرب طواعية، لكنها اليوم تطالبها بخمسين ألف نقفة عقاباً على هروبي من الجيش».

حكى لي أبراهام معاناته في ساوا التي دفعته للهرب، فكان كمنْ يُعيد على مسامعي حكاية سمعتها عشرات المرات لفرط ما عايشتُ أحداثها، ولم يختلف الأمر حين انتقل لمعاناته مع الشفتا:

«هنا يُطلب منّا العمل في جمع الحطب ورعي المواشي، وتنظيف عربات الشِفتا مقابل طعامنا، لكني أُحاول العمل لساعات أطول حتى أقلّص المبلغ المطلوب مني».

مرة أخرى تتبدى أمامي مفارقة أخرى مع حديث أبراهام،

لكنّها هذه المرة تتعلق بما حكاه لي كداني من تشغيل طلبة الجامعة مقابل تقديم الطعام. واصل أبراهام حديثه فعدتُ للانتباه إليه:

«أنا أحسن حالاً من آخرين، وخاصة النساء الذين يُجبرون على أعمال لا تُطاق».

سألته عن بعض المرضى من النساء وكبار السن، فأشار إلى زاوية الحاوية وهو يجيب عن سؤالي:

«هذه المرأة قد تكون التالية بعد خديجة، لم تجد حتى الآن من يدفع عنها بقية المبلغ المطلوب. أما هؤلاء الأطفال فمصيرهم غامض، وغالباً ما يتم تهريبهم إلى سيناء»

تكررتْ كلمة سيناء في حديث أبراهام فأردتُ أن أسأل عنها غير أن عودة أحد أفراد الشِفتا قطع حديثنا. أشار الشِفتاي إليّ فنهضتُ وتبعته إلى الخارج حيث وجدتُ مجموعة في خيمة صغيرة، وحولهم عدد من بنادق الكلاشينكوف وهواتف نقالة. لمحتُ امرأة تعدُّ لهم القهوة، بينما تقوم امرأتان أخريان بتنظيف الخيمة وغسل الملابس.

«قدامك أسبوع تدبّر 25 ألف، ولا بنشوف لك دِبره.. ولين ذاك الوقت ملزوم تشتغل وتحلل نومتك».

رددتُ على الشِفتاي الذي كان يبدو أنه قائد المجموعة أني لم أتفق معهم أصلاً على إيصالي إلى السودان، وأنهم اختطفوني بعد أن صادروا عربتي وجاؤوا بي إلى الحاوية رغماً عني. ضحك وتبعه الآخرون:

«دام انك وصلت.. مهو بكيفك.. بغيت ولا ما بغيت».

تذكرتُ أمي التي كانت دائماً ما تحذرني:

«لا تأمن لشِفتاي ولو كان أخاك، فطبع الغدر يجري في دمه، يكفي أنهم كانوا أيام الثورة يسرقون أسلحة الثوار ليبيعوها عليهم من جديد».

كنتُ ألتقي بعدد منهم أثناء الرعي في البراري المحيطة «بقندع»، حيث تدور بيننا حوارات مقتضبة. أسألهم عن قريتهم فلا أجد جواباً، كنتُ أتعجبُ لطريقة حديثهم الغليظة، سألتُ أمي فعرفتُ أنهم قدموا إلى إرتريا حديثاً من صحراء بعيدة، وهذا ما يجعل كلامهم وطباعهم وطريقة لبسهم مختلفة بالكامل. كانت لهم أسماء أخرى قبل أن يغلب عليها وصف «قطاع الطرق» ويصبح دالاً عليهم.

عدتُ إلى الحاوية وقصصتُ على أبراهام ما جرى معي، فردّ بسخرية مريرة:

«مرحباً بك يا صديقي في دولة الشِفتا».

(3)

مع الصباح، عُهد إليَّ بحمل أكوام من حزم الحطب من ظهر عربة كبيرة إلى خيمة أُعدّت لهذا الغرض. كنتُ أحمل الحزمة الواحدة بصعوبة بالغة، ولم أكن قادراً على التوقف لأستريح. من بعيد كان يقف شِفتاي بسلاحه ليراقبني وآخرين، وكان يعاقب من يتوقف منّا بمضاعفة العمل.

مع الظهر حلّت ساعة الاستراحة الأولى، أحسستُ أن عمراً من التعب يجتاحني. توافد المتعبون من مهامهم المختلفة إلى الحاوية من جديد حيث كان الخبز اليابس والعدس في الانتظار. كنتُ جائعاً جداً، لكني تعمدتُ التباطؤ في تناول غدائي لكسب أطول وقت ممكن بعيداً عن معاناة الحطب، ولم أكن وحدي إذ كان واضحاً أن الجميع عمدوا إلى هذه الحيلة لكسب الوقت.

تلفّتُّ أبحث عن أبراهام، لكنه لم يكن قد جاء بعد. مرّ الوقت سريعاً، فنادى الشِفتاي للعودة إلى العمل. وجدتُ عربتين أخريين إلى جوار العربة الأولى التي لم أنْهِها بعد. أشار لي الشِفتاي بضرورة الانتهاء من كل الحزم قبل حلول الغروب. كان واضحاً أنه يحاول.استفزازي فآثرتُ عدم الاعتراض.

مع الغروب أوشكتُ على الانتهاء من العربات الثلاث. لم

أكن أشعر بيدي، بينما ألم ظهري يكاد يقعدني. طلبتُ من الشِفتاي أن يسمح لي بتأجيل ما تبقّى إلى صباح الغد، لكنه رفض بحزم، فواصلتُ مكرهاً.

عدتُ إلى الحاوية مكبّلاً أجرُّ أقدامي من التعب. ارتميتُ في مكان فارغ في الزاوية. مرّ وقت طويل قبل أن يدخل أبراهام والإنهاك بادٍ عليه، وعلى قدميه آثار جروح دامية. تمدَّد إلى جواري وهو يسألني عن يومي الأول. أخبرته بما جرى معي ثم سألته عن يومه، صُدمتُ حين علمتُ أنه لم يتوقف عن العمل منذ الصباح، ولم يتناول شيئاً في مسعى لتقليص ما عليه من مبالغ.

«هذا أفضل. بهذه الطريقة يمكنني اختصار الوقت وتعجيل خلاصي من هنا».

أشفقتُ على أبراهام. تحسستُ جيبي الداخلي، حيث المال الذي أعطاني إياه جبريل وما جمعته أثناء عملي مع الحاج برهان. تمنيتُ لو أستطيع وضع حدٍّ لمعاناتي ومعاناة أبراهام بدفع ما علينا للشِفتا، والمغادرة إلى السودان سوياً.

قطع أبراهام ما أفكّر فيه:

«لا تقلق عليّ. ما دمتُ مفيداً للشِفتا فقد أمِنتُ مكرهم، بتُّ بعد كل هذا الوقت هنا خبيراً بطِباعهم، كما أن معرفتي بهم تسبق وجودي هنا».

أثار حديثه فضولي، فطلبتُ منه أن يحكي لي عن الشِفتا.

«الشِفتا بدو رُحّل قدموا إلى السودان بعد أن ضرب الجفاف مناطقهم، وتكالبتْ عليهم قوات الأشراف فطردتهم من ديارهم.

عاشوا في السودان زمناً حتى جاءت الثورة المهدية وحاربتهم فلجأوا إلى إرتريا، وهنا أقاموا علاقة طيبة مع الإيطاليين، لكنّ معظمهم عاد إلى السودان بمجرد هزيمة المهدي وانحسار ثورته».

«لم أرَ أحداً منهم في ساوا».

«الشِفتا يحملون الجنسية السودانية، ويستخدمونها عادة للتهرُّب من الخدمة العسكرية في إرتريا، كما يستخدمون جنسيتهم الإرترية للتهرب من أيّ مسؤوليات داخل السودان. هذا الأمر سهّل لهم كثيراً التنقل بين الحدود دون أية مشاكل. هل تعلم أنهم يملكون سيارات دفع رباعي حديثة، وهواتف عبر الأقمار الاصطناعية؟ كل هذا أتى من خلال عمليات التهريب».

«تهريب البشر؟»

«هناك قسم منهم يعمل في تجارة تهريب البشر إلى السودان، وهي تجارة رائجة كما ترى، لكن القسم الآخر يعمل في تهريب البضائع والأسلحة من وإلى السودان، وهؤلاء يحظون بحماية من جنرالات نافذين».

فُتح باب الحاوية من جديد ليقطع حديثنا. أطلّ شِفتاي وهو يشير إلى فتاة جالسة في الزاوية الأخرى. قامت الفتاة وتبعته وهي مطرقة في الأرض دون أن تقول شيئاً أو تبدي اعتراضاً.

«هذه زينب، يغتصبها الشِفتا مقابل ما عليها من مال، لسنا قادرين على فعل شيء، حاول شخص الاعتراض في البداية فأردوه قتيلاً».

صعقني أبراهام بما يحدث لزينب، فارَ الدم في عروقي،

نهضتُ من مكاني وقد تبخّر تعبي وحلّ محله غضب الدنيا كله. أمسك أبراهام بيدي وهو يرجوني ألا أرمي بنفسي إلى التهلكة:

«مقتلك لن يفيد زينب بشيء، لو كنّا نملك ألف دولار هي كل ما تبقّى عليها من أصل ثلاثة آلاف، لكنت خلّصتها منذ فترة. عرضتُ عليهم أن أضاعف من عملي مقابل ما عليها، لكنهم رفضوا».

لم أكن أعرف أن ما يطلبه الشفتا كثير إلى هذا الحد. أقعدني العجز، وقد تيقنتُ من صعوبة تحرير نفسي، وأنا الذي كنتُ أُفكر في اصطحاب أبراهام معي. هدأتْ أنفاسي، لكن تفكيري واصل اضطرابه. كرهتُ نفسي وقد بدأتُ أفاضل بين حاجتي إلى المال، وحاجة زينب وأبراهام. كنتُ مدركاً تماماً لحجم معاناتهما، لكني أيضاً كنتُ متكدساً بأوجاعي. شعر أبراهام بحجم حيرتي، فأخذ يخفف عني:

«لا عليك، لم يبق الكثير. قريباً ستجد زينب خلاصها، وأنا مثلها، فلم يتبقَّ لي سوى خمسمئة دولار».

من جديد عاودتني الحيرة، لكن بشراسة أكبر. فما أملكه وإن كان يعجز عن تحريري فهو يفي بما تحتاجه زينب وأبراهام. فاضلتُ لبعض الوقت بين أن أعمل لدى الشفتا قليلاً حتى أكمل ما عليّ، أو أكون سبباً في تخليص الاثنين. لم يحسم أمري إلا صورة زينب وهي تمضي منكسرة إلى وجعها.

تركتُ أبراهام، واتجهتُ نحو الباب، طرقتُ عليه بكل قوتي، حتى قدم الشِفتاي. طلبتُ منه مقابلة قائدهم لأمر هام. أغلق الباب

في وجهي لبعض الوقت ثم عاد واصطحبني إلى الخيمة، وبمجرد أن قابلت قائدهم أخبرته أني أريد الدفع. ضحك الشِفتاي بصوت عال:

«ليت الربع مثلك ما ياخذ الموضوع معهم يوم».

نادى القائد على أحد أتباعه، وطلب منه أن يجهِّز العربة فجراً لنقلي إلى الحدود، تقدَّم الرجل نحوي ليفكّ قيودي فجاء جوابي سريعاً:

«أدفع عن زينب وأبراهام».

استغرب أبراهام والبقية عودتي إلى الخيمة برفقة زينب، وقد فُكّتْ قيودها. لم ينتظر أبراهام جلوسي حتى أمطرني بالأسئلة.

«لا شيء. وجدتُ طريقة لتخليصها، ليس الليلة فقط، بل إلى الأبد. كذلك وجدتُ طريقة لتخليصك».

حدّق فيّ أبراهام وهو ينتظر أن أشرح جملتي الأخيرة.

«غداً ستخرج بكُما عربة إلى الحدود السودانية، ستجد فرصتك أخيراً لفكّ أسر والدتك وبدء حياة جديدة».

حاول أبراهام مراراً أن يهتدي إلى الطريقة التي خلّصته بها، لكنني استطعتُ الإفلات من أسئلته الكثيرة. بدأ النعاس يتسللُ إليّ غير أني انتبهتُ إلى زينب وهي تتجه نحوي:

«أشكرك على ما فعلته من أجلي. لن أنسى فضلك ما حييت، وأتمنى أن يأتي يوم.أردّ لك فيه هذا الدين المعلّق برقبتي».

حاولتُ التخفيف من شعورها بالامتنان، ورجوتها أن تنتبه

لنفسها وألا تسمح لأحد بأن ينال منها، لكني تذكرتُ طلباً أخبرتها أنه يفضُل ما قمتُ به. ترددت لبعض الوقت في مواصلة الحديث، شعرت بهوان ما يشغلني أمام ما تجرَّعته زينب هنا، لكنّ نظراتها المتسائلة رجّحت رغبتي، فرجوتها أن تبحث عن سلمى في طريقها، أن تخبرها أني أحبها وأني لم أنسها يوماً، وبدأتُ في سرد أوصافها:

«سلمى تميل إلى الطول، سمرتها صافية وشعرها أسود كثيف، على تخوم شفتها العليا شامة خفيفة، ولها لثغة ساحرة في الراء، يداها..»

ساد صمت، كنتُ حينه غارقاً في سلمى كما أراها:

«... يداها وطن دِفء يُنهي صقيع اغترابي، وعلى صدرها تنام الأمنيات غير عابئة بالمستحيل، ومن ضحكتها الصافية تجري ينابيع البهجة، ولحضورها...»

اقترب أبراهام منا فقطعتُ حديثي، وطلبتُ من زينب أن تجهِّز نفسها لحياة جديدة. وكذلك فعلتُ مع أبراهام قبل أن نخلد جميعاً للنوم.

مع الفجر ودّعتُ زينب وأبراهام بعد أن دسستُ في أيديهما نصف ما تبقى معي. حاولتْ زينب أن تشكرني مجدداً، قاطعتها فوعدتني بالبحث عن سلمى. ركبَ الاثنان في عربة دفعٍ رباعي انطلقتْ بهم في طريقٍ رملي حتى اختفت عن الأنظار، تذكرتُ العربة التي أطلقت النار عليّ، لم تكن إذن إلا رحلة تهريب إلى السودان، كهذه التي أقلّت زينب وأبراهام.

أخرجني صوتُ الشِفتاي من تأملي وهو يأمرني ببَدء العمل، اتجهتُ صوب عربة الحطب غير أنه صرخ فيّ:

«تعال.. خلّ عنك الموتر.. بتشتغل بدال خويك».

بدا عملي القديم نزهة أمام ما بدأته اليوم. أعطاني الشِفتاي فأساً كبيرة بعد أن نقل الأصفاد من يدي إلى قدمي. كان يُشير من مكانه إلى شجرة فأسير إليها ونتوءات الأصفاد الحديدية تحتكّ بجلدي مع كل خطوة. كانت الفأس ثقيلة ومع هذا لم يسمح لي الشِفتاي بوضعها على الأرض أبداً. طلبتُ منه أن يفكّ قيد قدمي كي أتحرّك بسهولة، لكنه رفض مبرِّراً ذلك بمنعي من التفكير في مهاجمته بالفأس. شعرتُ بمدى ما كان يعانيه أبراهام وهو يحاول العمل طوال اليوم في قطع الأشجار.

كنتُ أهوي بالفأس بكلّ قوتي على جذع الشجرة فلا يتحرك منه شيء، أعاود الضرب مرة وأخرى، بينما الشِفتاي يصرخ فيّ لأزيد من قوة الضرب. كانت قواي تتسرب مع كل ضربة، حتى سقطتُ على الأرض من شدة الإعياء. قام الشِفتاي وهو يصرخ مجدداً. نهضتُ بتثاقل وحملتُ الفأس، حاولتُ رفعها فلم أستطِعْ، حاولتُ ثانية فسقطت من يدي وشجّت رأسي. غطّت الدماء وجهي ففزع الشِفتاي وحملني إلى العربة التي اتجهت بي إلى الحاوية. دخلتُ معصوب الرأس، والدماء تنزف من قدمي، وقبل أن يغلق الشِفتاي الباب وجّه حديثه لي بنبرة حازمة:

«انتبه لحالك.. ترا سينا تحتريك».

مرة جديدة يرنّ اسم سيناء في أذني دون أن أكون قادراً على فهم ما يعنيه. أغمضتُ عيني ورحتُ في نوم عميق.

في اليوم التالي، بدأتُ في التعافي بعد أن ارتحتُ معظم اليوم الذي سبقه دون أن يطلب مني أحد العمل. مع الظهيرة عاد الشِفتاي الذي ذهب بأبراهام وزينب إلى الحاوية. اختلى بي وهو يحمل ورقة وتعلوه ابتسامة ماكرة، قبل أن ينطق:

«خويك اللي سنّعته البارحة سنعك اليوم».

كانت الورقة من أبراهام، بدأتُ في قراءتها:

«.. اخترتُ أقصر الطرق لفكّ أسر أمي، ولمكافأتك على ما فعلته من أجلي. أخبرتني زينب بكل ما جرى، ولم أجد أمامي غير أن يسلمني الشِفتاي إلى حرس الحدود الإرتري. بهذه الطريقة سينال مكافأة كبيرة يقتسمها معك، ويكون بها خلاصك، على أن تُبقي الأمر بعيداً عن جماعته. وبهذه الطريقة ستعود أمي إلى بيتها، أمّا أنا فسأواجه مصيري. لا تقلق عليّ فأيامي في دولة الشِفتا جعلتني أكثر صلابة».

أصابتني الرسالة بالحزن. حزنت مرتين، مرة على العمر الذي قضاه أبراهام معذباً هنا، ومرة لأنّ هذا العذاب لم يفضِ به في النهاية إلى الخلاص.

عاد الشِفتاي إليّ ثانية، فغمرني بالحزن:

«قل لي، عسى المكتوب يسوى.. المسكين بغا يموت لأجل ياصلك هالعلم».

مدّ لي الشفتاي بالمال، وهو يؤكِّد على إبقاء الأمر سراً بيننا. سألته عن سبب حفظه للعهد مع أبراهام، وخيانته مع أصحابه، فصدمني بأن لا علاقة للأمر بالعهود، وإنما هي ضمانة لاستمرار

الترّبح. كأنه يقول إنّ الصدق ضروري لاستمرار بعض الجرائم، وأن ثمة مساحات لا تغطيها إلا الثقة، وإلا لانهار كل شيء.

سألته لماذا لا يشتغلون في تسليم الهاربين إلى الحكومة ما دام ذلك أكثر ربحاً؟ فأخبرني أن الشفتا لا يأمَنون للحكومة التي قد تغدرِ بهم دون سابق إنذار، بينما الهاربين لا حول لهم ولا قوة.

«جهّز حالك.. تبي تسافر السودان لا غابت الشمس».

لم يسألني قائد الشفتا عن مصدر المال، وهو يطلب فكّ قيودي بمجرد أن دفعتُ ما عليّ. فهمتُ أكثر ما كان يعنيه الشفتاي الذي حمل الرسالة، وهو يحدِّثني عن معنى الالتزام، لضمان استمرار أكثر الأمور بشاعة.

حلّ الغروب، فصعدتُ إلى العربة. ألقيتُ نظرة أخيرة على الحاوية وهي تضجّ بالمرضى والمستضعفين. تمنيتُ لو أستطيع تخليصهم جميعاً، لو أتمكن على أقل تقدير من تخفيف معاناتهم، من فتح كوة في حاضرهم المؤلم على بقعة ضوء. تمنيتُ لو يكون ما شاهدته هنا كابوساً ينتهي بطلوع النهار. امتدتْ أمنياتي حتى بدأت العربة في السير نحو الحدود السودانية. بدأت الحاوية بمعذبيها تبعد أكثر وأكثر حتى غابتْ دولة الشِفتا عن ناظريّ تماماً.

(4)

انحرفت العربة عن طريقها لتغوص وسط منطقة كثيفة الأشجار. سرنا قليلاً حتى وجدنا أمامنا تجمعاً للشِفتا. ظننتُ في البداية أننا عدنا إلى مكاننا لفرط تشابه المكانين. حاوية كبيرة، وإلى جوارها خيمة صغيرة. انضمّ إلينا أربعة أشخاص بدا عليهم الإنهاك جلسوا في المقاعد الخلفية، لتعود العربة بعدها إلى الطريق الرملي. أردتُ سؤال السائق غير أنه بدا واضحاً أني إزاء سجن آخر من سجون الشِفتا.

«لا تفرقنا.. كلن يعاود لآخر مكان جمعنا».

ابتسمتُ لتعليمات السائق وقد أعادتني لسلمى حين كانتْ تحكي لي عن انضمامها لفريق الكشافة في المدرسة:

«اليوم تفوقتْ مجموعتنا على المجموعة الأخرى بفارق بسيط، وكان الفضل لي بعد أن تذكرتُ قانوناً مهماً في الكشافة يقول إنه في حال تفرُّق الفريق لأي سبب فيجب على أفراده العودة إلى آخر نقطة جمعتهم. هذا القانون منحنا التفوّق بعد أن كدنا نخسر».

لم يكن يبدِّد عتمة الليل، وسَيْل أفكاري غيَّر حديث الشِفتاي بصوت عالٍ وهو يستفسر بهاتفه عن سلامة الطريق. كنتُ أفهم

بعض الكلام ويغيب عني معظمه. وكنتُ كلما سألته عن الوقت المتبقي لوصولنا إلى السودان أجاب بكلمة واحدة:

«شوي.. شوي».

ملتُ عليه هذه المرة، وسألته إن كان سبق وأن نقل فتاة اسمها سلمى. نظر إليّ باستغراب قبل أن يجيب بلا مبالاة أنه لم يكن يوماً مهتماً باسم شخص نقله. اعتدلتُ في جلستي، وأخذتُ أحدّق في الفراغ المعتم أمامي. بدأتُ أصف سلمى:

«سلمى تميل إلى الطول، سمرتها صافية وشعرها أسود كثيف، على تخوم شفتها العليا شامة خفيفة، ولها لثغة ساحرة في الراء، لحضورها..»

لم أعد أتحدث إلى الشِفتاي، حدّقت في البعيد عبر زجاج العربة، كنتُ في الحقيقة أستحضر بهاءها في أحلك أيامي:

«... لحضورها ألق يصبغ الزمان والمكان، يُحيل لحظاتنا إلى ذاكرة عصية على الزمن. حين تأتي لا يعود شيء آخر أكثر سحراً ووهجاً».

خفَّف الشِفتاي من سرعته، اعتلت ملامحه بلاهة عدم الفهم، قبل أن يضحك بصوت عالٍ وهو يلتفتُ إليّ:

«والله هذي لو راكبتن معي انسى اسمي.. والله ما أخليها تروح أبد».

مجدداً انحرف السائق نحو طريق جانبية تنتهي بضوء خافت أخذ يكبر كلما اقتربنا منه حتى اتّضح مصدره، عدد من سيارات الدفع الرباعي تتحلّق حول نار تتعاظم كلما قذف شخص بحطب

في جوفها. انضمّت عربتنا إلى حلقة النار، نزل السائق وبيده سيف، ثم تبعه سائقو العربات الأخرى التي انتبهت أنها تحمل لوحات سعودية وكويتية، قبل أن يشرح شاب إلى جواري أنها مهربة من الخارج.

«أمس المسا..

غابت الشمس..

أمس المسا..

غابت الشمس..»

انقسم الشِفتا إلى مجموعتين متقابلتين تفصل بينها النار، وهم يصفِّقون ويغنون العبارة نفسها:

«أمس المسا.. غابت الشمس..»

توسط المجموعتين شِفتاي يرقص بسيفه بمرونة عالية، يُقابل مجموعة ويستحثّها بتحريك السيف في الهواء فترفع من غنائها، قبل أن ينتقل إلى المجموعة الأخرى. بدا المشهد تصاعدياً، كلما ازدادت حركة الرجل الممسك بالسيف، اشتدّت حماسة الراقصين من حوله:

«أمس المسا.. غابت الشمس..»

لم أفهم سرّ ترديد عبارة واحدة طوال هذا الوقت، لم أفهم حتى كيف يطيب لهم الرقص والغناء ونحن وسط هذا الليل الموبوء بالخوف، ومع هذا ظللتُ ومَن معي مشدودين إلى حالة الانتشاء التي غمرت الجمع. انتبهتُ متأخراً أنّ العبارة القصيرة أيضاً كانت

مقسومة بين الفريقين، تبدأ عند فريق، وتنتهي عند الآخر، وكأنه حوار لا ينتهي.

عاد السائق وهو مبلَّل بالعرق وبنشوة تبدّتْ في ملامحه. كنا قد اعتلينا العربة للإطلال على المشهد، فأعادَنا إلى أماكننا بإشارة من يده. تفرقت العربات دون أن تفارق السائق نشوته:

«أمس المسا.. غابت الشمس..»

التفتَ إلينا السائق وهو يغني وبدأ في الإشارة بيده، لم نفهم في البداية مطلبَه قبل أن يقطع غناءه بكلمة سريعة عاد بعدها للغناء:

«يلا معي.. قولوا..»

«أمس المسا.. غابت الشمس..»

بدأنا نردِّد معه، دون أن نتمكن من مجاراته فأفسدنا عليه نشوته:

«اسكتوا الله يلعنكم يا عبيد.. الشرهة مهيب عليكم»

ساد الصمت لبعض الوقت، قبل أن أقطعه بسؤال للسائق إن كان يعتبر نفسه إرترياً. التفت إليّ بنظرات مرتبكة، قبل أن يُجيب وهو يضحك:

«أجل وش هو.. وكاد اني إرتري».

أتبعتُ إجابته بسؤال عن سبب وصفنا بالعبيد، إذا كان يعتبر نفسه منّا، فاكتست ملامحه بعض الجدية وهو يجيب:

«زعلت؟.. لا تزعل ترا ما قلته ودي أهينك.. أصلاً من يوم وِعينا، وهذا اسمكم اللي نعرفه.. وش تبيني أناديك؟»

فقدتُ الرغبة في إكمال الحوار. أشحتُ بوجهي بعيداً في

الفراغ المعتم، قبل أن يتملّكني سؤال آخر عن موطنه الأصلي وإن كان يزوره.

«وين؟.. الديرة؟.. ودي بس وش نسوي.. من يوم لفاها أجدادي محد منهم قدر يعوّد».

واصل الشِفتاي حديثه عن إرتريا، وكيف أنها كانت ملاذاً لأجداده الهاربين بأرواحهم. كان يتحدث بحب وامتنان أصاباني بالحيرة، حتى اقتنعتُ في النهاية أنه لا يرى في ما يقوم به ما يقدح في هذا الحب أو ذلك الامتنان. بدا منسجماً تماماً مع طريقة حياته، وكأنه لا يعرف غيرها. لا أعرف لما شعرتُ للحظة بالإشفاق عليه. خطر لي أنَّ خيطاً وهمياً يفصل الشفتاي عن ضحيته، وأن كل شفتاي هو في النهاية ضحية بشكل أو بآخر.

عاد الشِفتاي إلى هاتفه، خفّف من سرعته وبدأ يلتفت يُمنة ويسرة إلى أن توقف تماماً، كنّا مثله نلتفتُ بقلق. فجأة ظهر شِفتاي آخر يجرُّ جملاً. اختلا الرجلان جانباً لبعض الوقت، قبل أن يعود السائق ويأمرنا بالنزول:

«يلا انت وياه.. كملوا دربكم مع خويّي هذا».

لم يناقشه أحد. كان الإنهاك قد استحوذ على كل شيء فينا. ركب الشِفتاي عربته وانطلق عائداً في الطريق نفسه. بدأنا نلتفت إلى بعضنا وإلى الشِفتاي الآخر الذي انشغل بفرز حبال غليظة، قبل أن يعتلي الجمل ويأمرنا بالإمساك بالحبال المتدلية عنه.

بدأ الجمل في السير ونحن نتبعه على الأقدام ممسكين بالحبال المتدلية من الجهات الأربعة. كان الشِفتاي يزيد حيناً من سرعته

ويبطئ حيناً حتى بلغنا منطقة قال عنها إنها آخر نقطة يتمركز فيها حرس الحدود الإرتري.

لاحظتُ أنواراً كاشفة تمرُّ بشكل أفقي لتحيل كل بقعة في هذا الفضاء المعتم إلى نهار. ترجّل الشِفتاي عن جمله، قبل أن يُنيخه ويطلب منا الانبطاح. ظلّ يتابع الضوء ونحن من خلفه حتى مرّ من فوقنا، فنهض وهو يصرخ فينا لنركض بأقصى سرعة، ثم عاد وانبطح بمجرد أن عاد الضوء في اتجاهنا. ظللنا نركض وننبطح ثم نعاود الركض والانبطاح، ولهاثنا يكاد يهتك ستر العتمة من حولنا. حتى الجمل بدا مُدرَّباً على الحركة بعيداً عن الضوء، فقد كان يتوقف من تلقاء نفسه بمجرد اقتراب الضوء منا.

خرجنا من محيط حركة الكاشف الضوئي، فتوقف الشِفتاي وأشار إلى طريق تنتهي ببقعة ضوء أخرى:

«ذاك مقصدكم.. لا وصلتوه.. وصلتوا السودان».

لم يكد الرجل يُنهي حديثه حتى انطلقنا بأقصى ما نملك. كان الجميع يركض متحاملاً على تعبه، بدأ السودان يقترب وتقترب معه آمال كل منّا. رأيتُ سلمى في بقعة الضوء أمامي، كانت تجلس مبتسمة في انتظاري لتُنهي رهق الأيام دونها، لتغسل وجع الانتظار، وتُعيد ملء روحي بعد أن أفرغها اليأس.

رأيتُ سلمى فأيقنتُ أني انتهيتُ أو أكاد من أيامي الجدباء في غيابها، هطلتْ عليّ كالمطر فاخضرّ كل شيء داخلي.

حفّزني وجه سلمى الباسم فسبقتُ الآخرين، بدأ لهاثهم يتعالى، لكنهم لم يكونوا أقل عزماً مني. تخيلتُ أمنياتهم في هذه

اللحظة الفاصلة، تخيلتُ ما تعنيه بقعة الضوء لكلٍّ واحد منهم وقد غادروا أوجاعاً حفرتْ عميقاً في أرواحهم.

كانتْ لحظة مربكة أن يكون خلاصنا حين نعطي ظهورنا للوطن، حين نهرب منه بكل ما نملك من خوف وأمل وشكّ ويقين.

تذكرتُ مقولة كداني حين تملَّكه اليأس ذات مرة:

«الوطن كذبة بيضاء يروّجُ لها البعض دون شعور بالذنب، ويتلقّفها آخرون دون شعور بالخديعة».

اقترب السودان أكثر، فبدأتْ إرتريا في الابتعاد. أنانيّة هي الأوطان، لا يأتي وطن إلا حين يغادر الآخر.

أجزم أن هؤلاء الذين يركضون إلى جواري، وبقدر رغبتهم في الإفلات من الوطن يشعرون بالألم. بقدر حرصهم على الحياة خارجه، يفزعهم أن يموت يوماً بداخلهم، أو يتسرب بهدوء من بين ضلوعهم قبل أن يتمكنوا من دسّه في آخر مخابئ الروح.

أجزم أن هؤلاء يغادرون إرتريا والخيبة معلّقة بجباههم كأجراس كنائس الأحد، لا تكاد تهدأ، حتى تُعلن عن نفسها من جديد.

أجزم أن الوطن الذي ضاق بناسه إلى هذا الحدّ، صار وسيعاً جداً بالأوجاع.

أجزم أنهم وفي هذا الوقت بالذات، يملأهم القلق في أن يعبروا إلى السودان بذاكرة متخمة بأيام الصبا في الشوارع الخلفية، وقهوة الجدّات في المساءات المكتظّة بالحكايات. أجزم أنهم

يخافون ذاكرتهم أكثر من أي شيء آخر، يخافون منها وعليها، بعد أن أصبحتْ آخر خطّ دفاع في معركة غير متكافئة.

كنا نركض بكلّ قوّتنا، نتفادى شجيرات «المرخ» التي يُكثر القرويون من زراعتها كغذاء لمواشيهم، ومصدات أمام زحف الرمال على قراهم. خطر لي أننا أحوج ما نكون إلى أشجار مرخ أخرى توقف زحفنا خارج الوطن، وتعمل كمصدات تقي أحلامنا وأمانينا وحتى ذاكرتنا من الضياع.

أصبحنا في مواجهة الضوء تماماً. لم نعد قادرين على النظر فيما وراءه. جاءنا صوت يأمرنا بالجثو على ركبنا ووضع أيادينا على رؤوسنا، اقترب الرجل وهو يُشهر بندقية في وجوهنا، تبعه آخرون قاموا بتقييدنا وتفتيشنا ثم قادونا إلى غرفة ضابط سألنا عن سبب عبورنا للحدود، وعن قطاعاتنا العسكرية والأسلحة التي كنّا نتدرب بها، قبل أن يأمر بإيداعنا سجناً ممتلئاً عن آخره بالإرتريين، الهاربين.

مرتْ أيام في سجن حرس الحدود السوداني. يزداد تكوّمنا في المكان مع الوقت، لم تكن تمر ساعة دون أن تفِد مجموعة جديدة وعلى ملامحها تعب العمر كله. حتى جاء الخلاص أخيراً.

مع الصباح بدأ الجنود يأخذوننا على شكل مجموعات إلى الخارج، حان دوري فتمّ اقتيادي إلى غرفة الضابط من جديد حيث أخذ بصماتي والتقط لي صورة ألصقها بملفّي الذي لمحتُ في ظهره رقماً، قبل أن يعطيني ورقة مكتوب عليها:

ش/ 257307

الشجراب

(1)

سارت بنا الحافلة بحراسة الشرطة من النقطة الحدودية إلى مخيم الشجراب. مررنا في طريقنا الترابي بعدد من القرى الصغيرة، تشبه كثيراً القرى المتناثرة على الجانب الإرتري، بيوت طينية متهالكة، وخيام مهترئة، و«قطاطي» يعبث الهواء بما تبقّى من سقفها المصنوع من القش.

بلغنا نقطة تفتيش أمر قائدها الجميع بالنزول من الحافلة، كانت معنا عجوز حنا الزمن ظهرها. طلبنا من الضابط أن يعفيها من النزول، لكنه أصرّ أن ينزل الجميع، وبمجرّد أن تأكّد من تنفيذ قراره، أدار ظهره وهو يشير لنعاود الصعود إلى الحافلة، دون أن يفتّشنا أو حتى ينطق بكلمة.

بلغنا الشجراب أخيراً. كان الفضول يسكنني لرؤية جنّتنا الموعودة، وملاذنا الأخير. لم نجد مدخلاً، وجدنا عوض ذلك أرضاً صحراوية كبيرة تتناثر فيها القطاطي والخيام البالية وبعض البيوت الطينية التي بدت أفضل الموجود، بينما تتزاحم على أنوفنا روائح كريهة، بدت خليطاً من روث حيوانات وأمور أخرى لم أميّزها.

كانت الحافلة تشقّ طريقها بصعوبة وسط مياه طينية نتنة،

وأطفال عراة يغرفون من الطين العفن ويقذفوننا به، وسط لا مبالاة من المارة، وحتى السائق الذي بدا متعوداً على طريقة الاستقبال هذه.

توقفت الحافلة عند مبنى من طابق واحد قرأت على مدخله: «معتمدية اللاجئين التابعة لمفوضية اللاجئين». وجدتُ عدة حافلات قد سبقتنا وركابها شكّلوا طوابير أمام مبنى المعتمدية، نزلنا والتحقنا بهم. كانت الشمس فوق رؤوسنا تماماً، والحرّاس يرفضون أن يخرج أحد عن الصف. بقينا على هذه الحال عدة ساعات، لم أكن أعرف ماذا ننتظر. جلس كبار السن على الأرض واحتموا بأغراضهم من أشعة الشمس الحارقة، ولم يلبث أن لحق بهم الشباب.

كانت الحافلات تتوالى حتى امتدت الطوابير إلى مسافات بعيدة. تجمع حولنا سكان المخيم، لمحتُ من بعيد امرأة ستينية تتقدم نحونا قليلاً ثم تعود إلى خيمتها المهترئة، انشغلتُ بتردّدها حتى خرج علينا رجال من المبنى أرشدونا إلى طرق التقدم بطلب الحصول على صفة لاجئ، ثم بدأوا في توزيع أكياس بلاستيكية، هنا بدأت الفوضى تدبُّ في المكان، لكن الشرطة كانتْ حاضرة لإبعاد المتجمهرين حولنا. بدا واضحاً أن اهتمام السكان كان منصباً على هذه الأكياس أكثر منه بالقادمين الجدد.

جاء دوري حين صرخ أحدهم: 257307، لم أعبأ كثيراً هذه المرة بتعريفي الجديد، منحتني أيامي في ساوا بعض المناعة، أو لعلّه الكثير من اللامبالاة. قذف الموظف بالكيس في صدري حتى آلمني. نظرتُ باستغراب إليه فنهرني لأغادر. حملتُ كيس الزيت

والدقيق والملح، فاعترضني رجل يسألني إن كنتُ أريد بيعه، اعتذرتُ له وتوجهتُ صوب المرأة الستينية التي كانت لا تزال تراقب المشهد من بعيد. أعطيتها الكيس فقابلتني بنظرات امتنان قبل أن تشكرني وتدلني على خيمة مجاورة قالت إن أهلها أكثر حاجة.

عدتُ إلى مكاني، كان الكثير من الأشخاص يعرضون خدماتهم: بناء بيت، بيع مواد غذائية، وهواتف للاتصال المدفوع. سألتُ عن مخيم الانتظار، فأشار لي أحدهم إلى خيم متراصّة بجوار بعضها دون حواجز لتشكّل خيمة كبيرة. اقتربتُ فكان الضجيج عالياً. دخلتُ فكان المكان مزدحماً للغاية. طُفتُ ببصري أبحث عن ركن آوي إليه دون جدوى. كان اللاجئون متراصين في أماكنهم دون فسحة لمرور شخص، ومعظمهم من الشباب وصغار السن.

بقيتُ بعض الوقت وأنا أفكّر في طريقة لإيجاد مكان أبيتُ فيه. دخل أحد المسؤولين وهو يحمل كيساً كبيراً ظننته طعاماً أول الأمر قبل أن يُدخل يده فيه ويُخرج مجموعة من الواقي الذكري.

«تذكروا جيداً. . لا إنجاب في الشجراب. من يتورط في هذا الأمر سيواجه أقسى العقوبات».

رفع الرجل يده فارتفعتْ بعض الأيدي بخجل قبل أن تتبعها أخرى بجرأة أكبر بينما خفضت النساء أبصارهن على الفور، قذف الرجل بما في يده نحوهم، ليقوم بعدها بإخراج مجموعة أخرى فتعالت الأصوات وهي تطالب بنصيبها من الواقي، قبل أن يهجم عدد من الفتية على الرجل ويستخلصوا من يده ما تبقى في الكيس.

نهضت امرأة وهي تطلب بعض الطعام، فنهرها المسؤول أنها سبق واستنفدتْ نصيبها من المؤونة الشهرية.

خرجتُ من المكان وعدتُ إلى حيث عُرض عليّ بناء بيت. سألتُ عن قيمة نصب خيمة، فأعاد الباعة عرض خدماتهم في بناء بيت طيني أو «قوطية»، اعتذرتُ وطلبتُ خيمة صغيرة. لم أكن أحتاج شيئاً أكبر أو أكثر استقراراً، أردتُ فقط ما يكفيني لأداء مهمتي الطارئة.

اشتريت بما معي قماشاً وبضعة أعمدة خشبية حين لاحظت مبالغة الباعة في أسعار نصب الخيام. تخيّرت مساحة خالية، خلعتُ قميصي، وبدأتُ في نصب خيمتي. كنتُ منهمكاً، حين قدمت المرأة الستينية وبيدها المرتجفة فنجان قهوة:

«أنا أم أوّاب.. يا ريت لو أقدر أساعدك يا ولدي.. بس ما عندي غير الدعا».

أخبرتُ العجوز أنّ هذا كافٍ، لكنها اقتربتْ وأزالت غباراً عالقاً بكتفي الأيمن، قبل أن تجلس إلى جواري تراقب عملي وتشدُّ من همّتي. بدتْ متأنقة كما تحرص الجدّات، خطوط طولية على امتداد خدّيها، قرط ذهبي كبير على هيئة هلال، وزمام مغروس في أرنبة أنفها، وقلادة طويلة تتدلى من عنقها بعض حلقاتها ذهبية والأخرى من الصدف، إضافة إلى سوار فضي يزيّن معصمها الأيمن، بينما تجاهد كي لا يسقط عن رأسها غطاءه الأصفر.

انتهيتُ من نصب الخيمة، فغادرتْ أمّ أوّاب وهي تجدِّد الدعاء لي.

تمددتُ داخل الخيمة التي كانت بالكاد تسعني وأغمضتُ عيني. كان شعوراً غريباً أن أمتلك مكاناً في مخيم للاجئين يُفترض بكل تفاصيله أن تكون طارئة ومؤقتة.

لم أكد أغفو، حتى نهضتُ مذعوراً على أصوات صراخ وعويل. كانت النيران قد أتت على عدد من الخيام والقطاطي، وغطّت سماء المخيم بدخان كثيف. هرع السكان لإطفاء الحريق وإنقاذ المتضررين. تذكرتُ العجوز، فهرولتُ إلى خيمتها التي كانت في اتجاه الريح. وجدتُ أمّ أوّاب مستندة بفزع إلى عمود الخيمة. حملتها وأدخلتها إلى خيمتي، ثم انطلقتُ لمعاونة السكان. كان الرجال والنساء يحثّون التراب على النيران المندلعة، قليل منهم جلبوا مياهاً، لكنها لم تكن كافية لإطفاء الحريق.

لمحتُ شاباً يعرج. كان يقترب كثيراً من مصدر النار وهو يصرخ بحثاً عن أشخاص عالقين، كان يحثُّ التراب ويسأل إن كان أحد في الداخل. استمرت محاولاتنا اليائسة لوقت طويل، قبل أن تأتي عربة إطفاء يتيمة، وتقضي على الحريق في وقت قصير. لم يُصبْ أحد في الحريق، لكنّ الشاب كان قاسياً في لوم رجال الإطفاء والشرطة الذين رحلوا دون أن يردّوا عليه.

عدتُ إلى خيمتي منهكاً وحكيتُ لأم أوّاب ما جرى، لكنها صدمتني حين قالت إن الحرائق في المخيم تتكرر باستمرار:

«أمير عندو حق يا ولدي، ما في شهر غير ما نشوف فيه حريقة.. تقول في ناس بالعاني قاصدين يحرقونا، الشهر الفات نفرين كانوا نايمين ماتوا بالاختناق، وبيوتنا زي ما شايف كلها قش ودلاقين».

أوصلتُ أم أوّاب إلى خيمتها، لكنها أصرّت عليّ لأشاركها «الجَبَنَة». كنتُ محتاجاً إلى جلسات القهوة التي تملأ نفسي بالطمأنينة فوافقتُ على الفور. انهمكت المرأة في تحميص البن فبدأتُ الحديث بسؤالها عن موعد قدومها للشجراب. كان ذلك مدعاة لتقصَّ عليّ حكايتها.

كانت أمّ أوّاب من أوائل مَن قدِموا إلى هذا المخيم. اضطرّت للخروج مع مجموعة من سكان قريتها بعد أن بدأ الطيران الإثيوبي في قصف المدن والقرى. قبل ذلك لجأ أعوان الإثيوبيين لتسميم المواشي والآبار، ونثر الحلوى المسممة في الطرقات، قتلت العديد من الأطفال.

تعالى صوتُ تحميص البن وارتطام حباته ببعضها، فسارعتْ أم أواب لرفعه عن النار وجلبته حتى أستنشق رائحته، قبل أن تُكمل الحكاية، وهي تعبث بحبات العاج المنتظمة في قلادتها.

حين خرجت المجموعات الأولى من إرتريا صوب السودان، لم يكن ببالها أنها ستبقى كل هذا الوقت، كان الناس يظنون أنهم يغادرون لأيام وربما أسابيع، قبل العودة إلى بيوتهم وحياتهم الطبيعية. مضت الأيام، ومعها كان حلم العودة يبتعد، إلى أن تحقَّق الاستقلال.

«والله لو تشوف المخيم ده تقول بيت عرس، ناس تغني وناس ترقص، وفي ناس كمان كسروا بيوتهم وشالوا شنطهم عشان يرجعوا البلد».

مدّتْ إليّ أم أوّاب بفنجان القهوة، وهي تردّ على سؤالي حول عدم عودتها والآخرين رغم تحقق الاستقلال:

«أنا رجعت زي ما الناس رجعوا، لكن يا ريت لو ما مشيت»

حكتْ لي أمّ أوّاب كيف أن الآلاف عادوا إلى إرتريا تسبقهم الأمنيات، غير أن الحكومة استبقتْ كل ذلك بقرارات صادمة. دخلتْ أمّ أوّاب قريتها وتوجهت من فورها إلى بيتها، لتجد فيه أناس آخرين. أوضحتْ لهم أنه بيتها وأنها كانت من ضمن العائدين من مخيمات اللجوء، لكنهم رفضوا إخلاءه بحجّة أنهم تسلموه من الحكومة. اتجهتْ إلى مبنى البلدية، وكلها ثقة في أنهم سيعيدونه لها، لكنهم وعوض ذلك عرضوا عليها بيتاً آخر في قرية بعيدة. رفضتْ بشدّة، فلم يكن من موظف البلدية إلا أن طردها وهو يقول إن «الأرض كلها للدولة».

أعدتُ لها الفنجان فارغاً:

««طُعُم بون». . ولكن لماذا لم تقبلي بما عُرض عليك طالما أنه الخيار الوحيد. . ألم يكن ذلك أفضل من حياة اللجوء؟»

«يا بيتي، يا ما دايرة».

انتهيتُ من فنجان أم أوّاب الثالث دون أن أحظى بالطمأنينة التي أردتها. أصبحتُ قلقاً أكثر من ذي قبل. خشيتُ أن أصبح امتداداً للعجوز التي خرجتْ من بيتها لبعض الوقت، قبل أن تدرك أنها أمام حياة أخرى بعيداً عن الوطن. خشيتُ ألا يعود لي وطني الذي أتيتُ بحثاً عنه، وأن تصبح الحياة بعيداً عن سلمى هي القدر الذي ينتظرني.

طردتُ هذه الأفكار، وتمسّكتُ بأملي في العثور على سلمى، قبل أن يأتي صوت أم أوّاب مع طقطقة الصدف الذي تعبث به:

«وأنت؟ شردت من ساوا؟ والله يا ولدي ما عارفة قصة ساوا دي تنتهي متين؟ كل يوم يجونا هنا عشرين وتلاتين نفر شاردين من هناك»؟

احترتُ في طريقة الإجابة عن سؤالها البسيط. فقد هربتُ من ساوا، لكني لستُ هارباً من التجنيد. عجزتُ عن إيجاد كلام يشرح هذه الفكرة للعجوز التي ظلّت تنتظر إجابتي التي جاءتْ أخيراً:

«لم أكن مجنداً حتى أهرب من الخدمة العسكرية. دخلتُ ساوا لغرض ما، وخرجتُ منها إلى هذا المخيم للغرض ذاته».

لم أصل بفكرتي إلى أم أوّاب التي ارتسمت الأسئلة على وجهها فاضطررتُ لقصّ حكايتي عليها كاملة. حدّثتها عن سلمى التي جئتُ أطاردها هنا وتطاردني هناك في أحلامي. أخبرتها أني مثلها تماماً وأن سلمى هي بيتي الذي إن لم أحصل عليه، فلن أقبل بغيره.

كانت المرأة تستمع باهتمام، وهي تعبث بقلادتها، وكنت أحكي باستمتاع. كانت هذه هي وسيلتي الوحيدة لإبقاء سلمى على بُعد خفقة مني، أو أقرب، لاختصار كل الوجع الذي يتعاظم بالمسافات، لردم اليأس الذي يتسلَّل مع كل خطوة ضائعة أو صوت بلا صدى.

«سلمى حامل بطفلي».

متأخراً جاء هذا الاعتراف، وكأني أسجِّل به اطمئناني الكامل لهذه العجوز التي مسحتْ على رأسي بيدها المستسلمة للزمن. شعرتُ بها تفيض حنوّاً عليّ بعد عبارتي الأخيرة. أحسستُ بها

تكنسُ همومي، فارتميتُ في حضنها، وأجّلتُ كل الأحزان لزمن آخر. قبل أن أغادر قطعتْ لي جذعاً من شجرة حنّاء تنتصب أمام خيمتها:

«ازرع دي قدام الخيمة بتاعتك.. الحناء فأل خير يا ولدي».

(2)

قضيتُ فترة الصباح بأكملها وأنا أبحث عن سلمى.

لم أكن أجرؤ على اقتحام خلوات النساء للسؤال عنها، اكتفيتُ بالمرور على أماكن تجمُّعهن. قصدتُ النبع حيث يتقاسم السكان مياهه العكرة مع مواشيهم، مكثتُ فيه وقتاً أرقب الوجوه القادمة وتلك التي تغادر. قصدتُ سوق المخيم حيث تنحني ظهور النساء في بيع مشغولاتهن اليدوية منذ الفجر وحتى لحظة المغيب. قصدتُ مدخل المخيم حيث تطلُّ الوجوه المتعبة وقد فارقتْ عُمراً من الشقاء. قصدتُ كل ذلك ولم ألمح سلمى، فعدتُ إلى خيمة أم أوّاب وأنا أحمل على ظهري خيبة أخرى.

على مدخل الخيمة تستوقفني موسيقى مألوفة تنبعث من آلة تسجيل بين يدي أمّ أوّاب. شعرتُ بها تتسلل عبر مسامات جلدي، وتحملني إلى قلب بيتي في تلك القرية قرب قِندع. همّت أمّ أوّاب بإيقافها، أشرتُ لها ألا تفعل. كنتُ لا أزال أتلقى دفقات الحنين وأمتلئ بها إلى أن نطَق المطرب فتأكدتُ تماماً أن حياة سابقة تتغشاني بكل تفاصيلها.

«زاهي في خدره.. ما تألم إلا يوم كلموه وتكلم
حنَّ قلبه ودمعه سال.. هفّ بيه الشوق قال وقال».

ترتسم ابتسامة على محيا أمّ أوّاب وهي تتابع اغتسالي بصوت أحمد المصطفى ينهمر نقياً كأول مرة، حين كان يصدح في بيتنا، بينما يدندن معه والدي وهو في انتشاء لا يلبث أن يعمّ البيت كله.

«لو تراه.. في سماه.. النور كساه الجمال

كنتَ تعلم كيف جهنم تحرق الجنب الشمال».

لم يزُر والدي السودان، لكنّ السودان بأسره كان يزورنا كل مساء عبر أحمد المصطفى، قبل أن يستقر تماماً، حين استقرّت صورة شاب وسيم بربطة عنق أنيقة واجهة غرفة والدي. لم يكن ذلك الشاب إلا أحمد المصطفى.

لم أكن أفهم سرّ عشق والدي لهذا المطرب، لم أكن مهتماً أصلاً، لكنني الآن أدركت أن صوت أحمد المصطفى كان يتسرب إليّ دون إدراك ويستقر في وجداني، إلى أن تأتي لحظة كهذه لأعرف كم أحب هذا الرجل وهو يمتلك هذه القدرة على حشد صوته بكل أحبابنا الذين رحلوا. كان في صوت أحمد المصطفى حنين لكلِّ ما لا يمكن استعادته، دون أن يكون قد فارقنا قط.

لم يحدث معي من قبل أن أحببتُ شخصاً بهذه الطريقة المباغتة. كان أحمد المصطفى أشبه بغيمة مخاتلة سرعان ما تمتلئ دون مقدّمات وتُغرقنا عشقاً وحنيناً. في لحظة واحدة غرقتُ بأحمد المصطفى، بالقطرات تجمعتْ في دمائي حتى فاضت، بالذكريات، بصوت والدي، بقهقهاته التي تتجاوز غرفته إلى الجيران، بلمعة الحزن في عينيه؛ بخطوط يده العتيقة. كل ذلك كان يستوطن صوت أحمد المصطفى ويتجلّى بمجرد أن ينطق.

صوتُ أمّ أواب أعادني من جديد إلى الشجراب:

«أمير جاي ونشرب الجبنة مع بعض».

قهوة أم أوّاب دائماً ما تكون إلى جانبي، تأتي في الوقت المقفر من العمر فتخفّفُ من جدبه، تمنحه نبضاً وتُعيد فيه الروح. استعجلتُ فنجانها الأول، لكنها أصرّتْ على انتظار أمير حتى جاء. أتاح لي النهار رؤيته بشكل أفضل. كان شاباً نحيلاً تبرز عظام خديه بشكل لافت، وتختزن عينيه حزناً معتّقاً. صافحته فبدت يده شاحبة كضرعٍ جفَّ قبل الأوان.

«رأيتكَ أثناء الحريق، أعجبتني شجاعتك في إنقاذ الأهالي».

ابتسم بتواضع، قبل أن تختفي الابتسامة سريعاً ويعود إلى نظرته الحزينة:

«هؤلاء لن يتركونا حتى يأتوا على آخر شخص فينا».

سألته مَن يقصد، فتعذَّر بأني جديد وأمامي الكثير من الوقت لمعرفة ذلك، ثم سألني عن وجهتي النهائية. لم أفهم سؤاله، فأعاده بطريقة أكثر وضوحاً:

«هل ستستقر هنا أم تنوي مواصلة الرحلة إلى إسرائيل؟»

«وماذا أفعل في إسرائيل؟»

نطقتُ بهذه الجملة دون تفكير. لمحتُ وقعها الجيد على ملامحه، قبل أن تتدخل أم أوّاب:

«يا ريت يا أمير تشوف ليه شغل، كمِّل قروشو كلها قبل ما يوصل المخيم».

رحَّب أمير بهذه الفكرة التي فاجأتني. لم أكن مستعداً للانشغال بشيء غير ما جئتُ من أجله، لكني لم أستحسن التصريح برغبتي خاصة بعد أن بادر أمير بتقديم عرضه:

«ما رأيك أن تعمل معي في بيع الخضار؟ منذ وقت وأنا أفكّر في جلب شخص يساعدني».

لم تترك لي أم أوّاب رأياً بعد أن باركت العرض بحماس الأمهات. شربتُ فنجاني الثاني وأنا أفكِّر في الورطة التي دُفعتُ لها.

«طُعُم بُون».

غادرتُ خيمة أم أوّاب برفقة أمير الذي أراد أن يُطلعني على عملي. قصَدنا السوق الذي كان يتوسط المخيم. كانت خطواتي تسبقه دون أن أشعر، لكني سرعان ما أتباطأ ما إن ألمح عرجته التي تعيقه.

كان السوق يضمّ متاجر متنوعة ومقاهي وصالونات حلاقة وموقفاً للحافلات وجميعها تتصدرها لوحات بلغة التغري، وتتوسط كل ذلك دائرة كبيرة لبيع الخضار، أشار أمير إلى ركن فيها:

«هذه طاولتنا. يبدأ عملنا فجراً حيث نستقبل الخضار من المزارعين الذي يأتون من «خشم القربة» وأحياناً من «كسلا»، لنبيعه على الناس هنا. سأقف على هذه الطاولة بينما سيكون عملك هو إيصال الخضار إلى البيوت».

لمعتْ فكرة لئيمة في رأسي بمجرد أن سمعتُ آخر كلمة نطق

بها أمير. انفلتتْ مني ابتسامة بلهاء سرعان ما بدّدتها. شعرتُ بأن الأقدار تسوق لي أكثر مهنة أحتاجها هنا كي أبحث عن سلمى. انقلب كياني رأساً على عقب، وتمنيتُ لو أبدأ عملي فوراً غير أني عرفتُ أن بيع الخضار ينتهي مع حلول الظهر.

«إذا أحببتَ العمل قد تصبح يوماً مالكاً لركن في السوق مثلي، وحينها لن تحتاج الكرت الأصفر ولا الفتات الذي يقدمه».

استفسرتُ عمّا يعنيه، فأجابني وهو يشير لي لنغادر:

«حلم كل لاجئ هنا هو الحصول على كرت مفوضية اللاجئين، وهو ما يعني أنه تمّ الاعتراف به كلاجئ وبالتالي تُصرف له مؤونة شهرية لا تغطّي إلا عدة أيام».

«ولماذا تحوَّل هذا الكرت إلى حلم؟»

«لأن المفوضية ومنذ استقلال إرتريا أسقطتْ صفة اللجوء عن اللاجئين الإرتريين، وخاصة بعد إشرافها على اتفاقية كان طرفاها الحكومتين الإرترية والسودانية تضمن عودة اللاجئين الإرتريين إلى وطنهم. هذه العودة التي لم تحصل بعد. ولهذا فربما لاحظت حجم الفاقة والفقر الذي يعيشه الإرتري في مخيمات اللاجئين، فباستثناء قلة قليلة تعيش الغالبية هاجس إيجاد قوتها كل يوم».

كان أمير يتحدث بحزن، لكن نبرته جنحتْ إلى الأسى حين واصل حديثه:

«المشكلة الأكبر تتمثل في الشباب الذين يقرِّرون الإفلات من هذا الواقع المؤلم بالوقوع في فخ سماسرة الهجرة إلى إسرائيل. لا أملك أن ألومهم، لكني أتمنى من كل قلبي أن يكونوا حذرين جداً

وهم يدخلون بيت الثعابين هذا. صحيح أنّ المخيم لم يعُد آمناً، لكنه أهون الشرّين».

«هل لحريق الأمس علاقة بهذا؟»

«تماماً. من مصلحة أولئك السماسرة جعل هذا المكان لا يُطاق وبالتالي صرف أنظار الناس باتجاه الهجرة».

«لهذا سألتني إن كنتُ أنوي مواصلة الرحلة إلى إسرائيل؟»

«أردتُ فقط التأكد. لأن أم أوّاب أخبرتني بنواياك الحقيقية».

أربكني ردّه. أربكتني أكثر ابتسامة العارف التي غطّتْ وجهه. شعرتُ بالحرج، فحاول تخفيف شعوري:

«أنا فخور بما تقوم به، وأم أوّاب كذلك، ولهذا دعتني إلى خيمتها كي ترتِّب لقاءنا، ودعوتك للعمل معي».

زال الحرج وحلّ محله شعور بالغيظ إلى أن واصل أمير حديثه فتغير كل شيء:

«هذه المرأة تملك قلباً يسَعُ الجميع محبة وشفقة. الجميع هنا يعرفون حكايتها، فقد اختطف المهربون رضيعها في طريق اللجوء إلى السودان فكادتْ تُجنْ. حين أحسّت بنواياهم وَشَمت الرضيع في كتفه الأيمن لتحتفظ بالأمل في لقائه يوماً، لهذا هي عادة لا تترك شخصاً يقارب عمر ابنها دون أن تكشف عن كتفه الأيمن».

تذكرتُ على الفور كشفها لكتفي أثناء بنائي للبيت. تذكرت تأثُّرها البالغ بطفلي الساكن في أحشاء سلمى. واصل أمير حديثه فعدتُ للانتباه إليه:

«كانتْ قد أطلقتْ على الرضيع اسماً مختلفاً، لكنها غيّرته إلى أوّاب بعد اختطافه وهي ترجو أن يكون له من اسمه نصيب. حبّها الجارف هذا لابنها الغائب جعل قلبها شفافاً بعد أن أنهكه الحزن، لهذا يعتبرها الناس هنا أمهم الحنونة».

كنتُ لا أزال مذهولاً حين بلغنا طرف المخيم، كنتُ ممتلئاً بالدهشة والإكبار لتلك السيدة الطاعنة في الحزن دون أن يمنعها ذلك من مدّ الآخرين بالفرح. من جديد عدتُ إلى ملامحها، إلى خطوط الزمن على وجهها وكفّيها، إلى جبينها المجلَّل بالطُهر، إلى صوتها القادم من قاع الحكمة. عدتُ إلى كل ذلك فتبدى لي بهاء الحزن النبيل حين يتمثَّل امرأة.

«هذه مقبرة المخيم».

أخرجني أمير من تأملي وهو يشير إلى أرض فضاء أمامنا، قبل أن يكمل:

«هنا يرقد آباؤنا وأجدادنا. هنا ترقد أحلامهم وأمانيهم التي غيّبها الزمن. لم يكونوا يعتقدون أن أرضاً غير إرتريا ستضم أجسادهم يوماً. قدموا إلى حين تتحسن الأحوال، ورحلوا دون أن يحدث ذلك. وقد يكون هذا ما ينتظرنا أيضاً. أن تُدفن في أرض غير أرضك يعني أن تموت مرتين، والأرواح لا يسعها ذلك».

لا يكتفي أمير من وخزي بالوجع. لا يكتفي من حشد الألم أمامي وكأنه يختبر صبري. أريد أن أصرخ كي يتوقف عن تعذيبي، عن إنهاكي بهذه الحكايات التي تقطر حزناً، وأنا القادم أصلاً كي أتخلص من حزني ووجعي. كثيراً ما سمعتُ أنّ الوطن هو الأرض

حين تضم موتانا، لكني لم أعِ غير هذه اللحظة معنى أن يكون الوطن مؤقتاً.

«تحبُ أم أوّاب أن تأتي إلى هنا بين وقت وآخر لتزور رفاق دربها. ها أنت قد عرفتَ المكان وبإمكانك اصطحابها متى أرادتْ ذلك».

(3)

بمجرد أن قدمتْ عربة الخضار فجراً حتى بدأنا في نقل محتوياتها إلى طاولتنا. لم تكن الحركة قد بدأتْ في السوق بعد. شرعتُ في تنظيف الخضار بينما انشغل أمير بتقسيمه إلى حزم صغيرة. مع طلوع النهار أعطاني أمير كيساً كبيراً لأنقله إلى مطبخ الإغاثة، هممتُ بالمغادرة فاستوقفني ليتمنى لي التوفيق. أربكتني ملامحه التي حملت أكثر ممّا تتطلبه أمانيه.

كنتُ أتنقل بين الخيام المتناثرة وعلى مداخلها لوحات قماشية كبيرة: جمعية الإحسان، جمعية الإغاثة، جمعية.. لكن معظمها كان خالياً إلا من ضجيج تلك اللوحة الكبيرة.

بلغتُ خيمة خصَّصتها إحدى جمعيات الإغاثة الخليجية لإطعام اللاجئين. اكتشفتُ أنها عدة خيام ملحقة ببعضها. اتجهتُ صوب المطبخ المكتظّ بالعاملات في المشروع وجميعهن من أهالي المخيم. استقبلتني إحداهن على المدخل فأعاق ذلك تقدّمي. تأكَّدتْ ممّا أحمله ثم أمرتني باللحاق بها وهي تُصدر صوتاً لتحتشم الأخريات.

كنتُ أتقدّم ببطء كي لا يفوتني شيء، ألتفتُ في كل الاتجاهات. كان واضحاً أن ثمة فضول في الجانب الآخر لرؤية

العامل الجديد، فكانت النظرات تُصوّب نحوي من كل اتجاه. لم ألمح سلمى، وكنت قد بلغتُ نقطة أمرتني المرأة فيها بإنزال الكيس، أنزلته على عجل وهممتُ بالعودة في الاتجاه نفسه.

«ألا تريد أن تأخذ مالك؟»

وضعتُ المال في جيبي دون أن أتأكد منه وبدأتُ طريق العودة. هذه المرّة كنتُ أبطأ من ذي قبل. تمنيتُ لو أزحف كي لا أفوّت وجه سلمى الذي قد يكون مختبئاً في هذا الزحام. بلغتُ مدخل الخيمة دون أن أراها، فلملمتُ خيبتي، وأسرعتُ الخطى نحو السوق.

«كيف وجدتَ مهمتك الأولى؟»

لم ينتظر أمير جواباً فقد كانت ملامحي كافية.

«لا بأس، أمامك فرص كثيرة».

هنا تيقنت أن أمنيات أمير الصباحية كانت بخصوص سلمى أكثر من أي شيء آخر. ابتسمتُ وأنا أنظر إليه بامتنان، قبل أن أسأله إن كان مشروع الإغاثة هذا كافياً.

«للأسف هذا المشروع ليس معنياً إلا بعدد محدود من كبار السن والمرضى. من الصعب سدّ احتياجات هذا العدد الكبير من اللاجئين».

بدأتْ حركة السوق تنشط فعمّ الضجيج. نفدتْ بضاعتنا قبل أن أقوم بمهمة جديدة. سلّمني أمير نصيبي ودعا لي بالتوفيق، هذه المرة كان واضحاً أن الأمر لا يتعلق بسلمى. أردتُ شكره، لكنّ

اهتمامي انصرف إلى صراخ من إحدى الزوايا القريبة. تركني أمير وأسرع في اتجاه العراك فلحقته. رأيتُ رجلاً يمسك بعصا ويهوي بها على ظهر أحد الباعة قبل أن يَحوْل أمير بينهما. انفضّ الموقف، لكنّ ملامح الرجل استوقفتني، كان الموظف نفسه الذي قذف كيس الغذاء في صدري بعنف في يومي الأول. سألتُ عنه أمير بمجرد أن عدنا إلى مكاننا.

«هذا علي، موظف لدى المعتمدية. كان لاجئاً قبل أن يعمل في مشروع للاستفادة من اللاجئين، ثم حصل على الجنسية السودانية، لكنه للأسف ومنذ أن تسلَّم عمله أصبح فظاً معنا، ويبحث عن أي شيء ليعكّر حياتنا، وكأنه بذلك ينتقم من حياته السابقة».

«ولماذا لا ترفعون شكوى ضده؟»

«رفعنا عدداً من الشكاوى، غير أن الأمر لم يتغير، بل ساء أكثر بعد أن بدأ في الإبلاغ عن اللاجئين الجدد وتسليمهم إلى الحكومة الإرترية كلما أراد أن يقضي إجازة مدفوعة في أسمرا».

لم يكد أمير ينهي كلامه حتى مرّ علي من أمامنا وهو يرمق أمير بحدّة. تابعتُه بنظري حتى رأيته يقف مع رجل آخر، تحدثا قليلاً قبل أن يفترق الرجلان سريعاً. هنا عاد أمير لإكمال حديثه:

«يعتقد البعض أنّ علي ضالع في عمليات السمسرة المشبوهة غير أننا لسنا قادرين على إثبات ذلك».

مع الظهر اتجهتُ إلى أم أوّاب على أن يلحق بي أمير تالياً. استقبلتني بوجهها الوضّاء على مدخل خيمتها. قبّلتُ يدها وأنا

أشكر اهتمامها بي وتشغيلي عند أمير. أدركتْ أن أمير أخبرني بما جرى فضحكتْ وهي تقودني إلى الداخل:

«أمير لو حكى ليك السر بتاعي أنا كمان ح أعمل زيو، لكن وريني عملت شنو في الشغل؟»

اشترطتُ عليها أن أنعم بقهوتها أولاً، فاستجابت بحبور. حكيتُ لها ما جرى في يومي الأول، فتوقفت عند علي:

«أمير زاتو ما يسمع الكلام، أنا كلّمتو يخلي علي في حاله، الراجل ده عقرب وكفاية الشافو منو قبل كده».

سألتها عمّا حدث لأمير، فبدأتْ في إفشاء سره كما وعدتني:

«السنة الفاتت أمير ده الدنيا اتقفلت في وشو وقال ماشي إسرائيل، أنا نصحتو وقلت ليه ما تمشي، براه أصرّ ومشى لمن سرقوا منو كليتو في سيناء وقرّب يموت لو ما ربنا لطف».

فهمتُ الآن لماذا تبدو هواجسه واضحة من الهجرة إلى إسرائيل، قبل أن تؤكدها أمّ أوّاب:

«عشان كده تلقاهو طوالي يقول للشباب ما تمشوا إسرائيل ولا سيناء والسماسرة الكلام ده ما ينفع معاهم، وهسي خايفة عليه منهم».

رنّت سيناء في أذني، وعادتْ بي إلى أيامي في سجن الشِفتا، تذكرتُ تهديدهم الدائم بترحيلنا إلى هناك. أردتُ أن أستوضح أكثر، غير أن مجيء أمير منعني.

«أتمنى ألا تكون الجَبَنَة قد فاتتني».

الرجال يقاسون بحجم آلامهم. الآن أفهم عبارة كداني هذه أكثر من أي وقت مضى. كما حصل مع أم أوّاب تماماً، بدأتُ أرى أمير بعين مختلفة. اقتربتُ أكثر من هذا الحزن المعتّق في عينيه، من يده الشاحبة، وجسده النحيل. اقتربتُ أيضاً من إحساسه بالفقد يلازمه أينما حلّ دون أن يملأه بالنقمة.

الآن أقترب أكثر من أم أوّاب وأمير معاً، أقترب من كونهما يعيشان فقداً فادحاً يتجدّد الشعور به كل يوم، ومع هذا فهما يعيشان من أجل ألا يجرّب الآخرون هذا الفقد. أقترب أكثر من فاقد الشيء حين يتفانى في العطاء. أقترب من هذا الشعور الجارف بالحياة في صورتها الأبهى التي لا تتكرر كثيراً.

لاحظ أمير شرودي فسألني إن كان لهذا علاقة بيومي الأول. لم أكد أجيب حتى تعالتْ جلبة في الخارج فنهضنا لاستجلاء الأمر. في الطريق خطر لي أن هذا المكان ليس مكتوباً له أن يستريح. يقصده المفجوع ليعيش فواجع أخرى، لا يكاد يطوي خلفه ألماً، حتى تنبسط أمامه آلام. من بعيد يبدو الشجراب نهاية التعب، وهو بلا شك أول منازله.

رأينا مجموعة تحيط بامرأة على الأرض تصرخ وتحثُّ التراب على وجهها، تقدمتُ أكثر فميّزتُ صراخها الموجع:

«سلمى . . سلمى».

أحسستُ بقلبي ينخلع من مكانه. لم أعتد على صوت آخر يتوجع بسلمى غيري، ظننتني في البداية مخطئاً حتى تكرَّر الاسم مجدداً بلوعة أكبر. أزحتُ المناكب من أمامي ووقفتُ مباشرة أمامها، كان أمير قد سبقني إليها.

«اهدأي يا أم سلمى، ما الذي جرى لابنتك؟»

«خطفوها. . خطفوها الكلاب من قدام البيت، كانوا مغطين وشوشهم وراكبين عربية تاتشر ما عندها نِمَر».

كان نبضي لا يزال يوشك أن يخرق صدري، حتى بعد أن عرفتُ أن ثمة سلمى أخرى في المخيم. أعاد أمير المرأة إلى بيتها وتوجّه من فوره إلى مبنى المعتمدية فلحقه الناس. خرج إلينا علي مستوضحاً فهبّ أمير في وجهه:

«إذا لم تكونوا قادرين على حمايتنا فقولوا حتى نجد وسيلة أخرى. اليوم خُطفت فتاة ثانية خلال شهر وأنتم لم تجدوا بعد الفتاة الأولى. أنتم شركاء في هذه الجرائم على الأقل بسبب عدم مبالاتكم»

صرخ الناس مؤيدين لكلام أمير فتراجع علي وهو يطلب من أحد مساعديه أن يطلب لنا الشرطة، لكنّ ذلك لم يمنع أمير من مواصلة حديثه:

«إذا كنا لاجئين فهذا لا يجعل أرواحنا رخيصة. نهرب من بلادنا فيذيقنا الشِفتا صنوف العذاب. نصل المخيم فنجد العصابات في انتظارنا. هل يُعقل أن تصل بهم الجرأة لاختطاف النساء من وسط المخيم الذي لا يستطيع أحد منّا مغادرته لشدة الحراسة على جوانبه الأربعة؟».

قدمت الشرطة، وما إن لمحها علي حتى بدأ يكيل الشتائم لنا:

«امشوا من هنا يا حبش. . يا نص مَكَنَة. . الله يقلعكم».

أمر الضابط بفضّ التجمهر حالاً، حاول أمير أن يشرح له الأسباب، لكنه أعاد أوامره بشكل حازم. علا صوت الناس بالرفض فأطلق الضابط النار في الهواء. تراجعنا قليلاً، لكن دون أن يغادر أحد. هنا أمر الضابط جنوده بتفريق الجمع بالقوة. انهال أفراد الشرطة على الناس بالهراوات وكان نصيب أمير منها الكثير. تفرّق الناس وسحبتُ أمير من وسطهم وهو ينزف من أنفه وجبهته.

هال أم أوّاب منظر أمير فأسرعتْ لجلب البن وأوقفت به النزيف. تمدَّد أمير دون أن ينطق بكلمة، بينما كانت أم أوّاب تؤنبه على قراره بمواجهة علي تارة، وتلوم أم الفتاة تارة أخرى:

«أنا كلمتها كتير تعرس لي بتها دي، هسي لو عندها راجل مافي زول يقرب منها».

تذكرتُ لجوء الأهالي في أسمرا لتزويج بناتهم تفادياً لإلحاقهم بساوا. ما أبعد الشجراب عن أسمرا وما أقربه من آلامها. أخرجني أمير من شرودي وهو يرد على أمّ أوّاب:

«صدقيني لو سكتنا ستزداد الأمور سوءاً في المخيم. على الأقل الآن سيحسبون لغضبنا حساباً».

من جديد لا يفكّر هذا النحيل بنفسه، يستمر في ألمه من أجل الآخرين. مسحتُ على رأسه وأنا أرجوه أن يرتاح قليلاً ويترك الناس لخالقهم فردّ عليّ دون تفكير:

«لو اخترنا كلنا هذا الطريق، لن يكون متاحاً في اليوم التالي.

حين أدافع عن الآخرين فأنا أحمي نفسي. لا أريد لغيري أن يمر بما مررتُ به كي لا يزيد عدد المنكسرين هنا، حينها لن أقوى على الصمود».

«لا بد أن تنسى ما حدث لك مهما كان ذلك صعباً، بهذا فقط تستطيع أن تحمي نفسك».

«لا أستطيع، فأنت لا تعلم ما حدث لي».

أخيراً انهمر أمير بحكايته كاملة.

(4)

عند منتصف الليل تسللتُ إلى طرف المخيم، بعد أن ارتديت «جلاّبية وعمّة» على طريقة أهالي الشرق، كما طلب مني محاري. كان الظلام دامساً ومعظم الناس دخلوا بيوتهم. وجدتُ حافلة صغيرة، اقتربتُ فأشار لي محاري بالركوب. لم أكن وحدي، انضممتُ إلى ثلاثة آخرين يرتدون الملابس نفسها. انطلقت الحافلة بعد أن استمعنا إلى بعض التعليمات:

«لا تنطقوا بكلمة. ابقوا في أماكنكم ما لَم أعطكم أمراً مختلفاً. لن تواجهوا مشكلة إلا إذا خالفتم تعليماتي. إذا تفرَّقنا لأي سبب عودوا إلى آخر نقطة جمعتنا».

وصلت الحافلة إلى أطراف الشجراب حيث حاجز التفتيش الرئيس. كنتُ قلقاً من افتضاح أمرنا، ولم أكن أثقْ في محاري الذي رفض أن يتحرك قبل أن يستلم كامل المبلغ. اقترب الحارس دون أن يقول شيئاً، ثم أطلّ علينا من النافذة قبل أن يشير لمحاري بالتحرك. كان غريباً أن نغادر المخيم بهذا اليُسر، بينما قضينا أعواماً ونحن لا نملك أن نخطو خطوة خارجه، دون تصريح أمني، لا يأتي عادة.

سلكنا طريقاً رملية متعرِّجة. تجاوزنا «خشم القربة»، فعرفتُ

أننا في الطريق إلى كسلا. لم تكن تفاصيل الرحلة معروفة لي. دفعتُ خمسة آلاف دولار هي كل ما كنتُ أملكه مقابل كلمة واحدة: إسرائيل.

لم يكن أمامي خيار آخر بعد أن تحوَّل الشجراب إلى جحيم لا يُطاق، وأنا أرى العمر يتلاشى عاماً بعد آخر. أنهيتُ دراسة القانون في جامعة أسمرا، وشرعتُ في رسم مستقبل توقف عند حدود معسكر ساوا، الذي دخلته على عجل كي أنهيه بالطريقة ذاتها، ولم أكن أعلم أن القولقلوت المقرَّرة بستة أشهر سيحولها حظي العاثر إلى سجن أبدي.

كانت لي حياة بهيجة في أسمرا. عشت هانئاً في كنف والدي، ولم يكن ينقصني شيء سوى الاقتران بابنة عمي التي تصغرني بأربعة أعوام، والتي اختارت دراسة القانون أيضاً لفرط تعلُّقها بي. هذا التعلق الذي أوصلنا ربما إلى المصير ذاته؛ ساوا. لم أمارس ما درسته، ولم تتمكن هي من إكمال دراستها. قضت ساوا على كل أحلامنا.

هربتُ من ساوا، وأنا أظنّ نفسي انتهيتُ من سجن لأجد هنا سجناً آخر. حاولتُ التأقلم مع المخيم لكني فشلتْ، فلم يحدث أن تكيّف طائر مع قفص مهما طال به الأمد. جئتُ والأمل يسبقني للحصول على الكرت الأصفر، والهجرة إلى بلد ثالث، لكنّ المعتمدية رفضتْ منحي حق اللجوء فتبعثر الحلم. لم يبقَ لي في النهاية إلا إسرائيل. سمعتُ كثيراً عن إيلات.. نصف ما سمعته، كان يكفي لينسيني هذا الشقاء.

على أطراف كسلا، أوقف محاري حافلته أمام بيت طيني.

ترجَّل دون أن يتحدث إلينا. غاب لبعض الوقت قبل أن يعود وبرفقته شِفتاي ويأمرنا بالنزول. عاد محاري أدراجه بعد أن تركنا في عهدة مرزوق الذي قادنا إلى غرفة خلفية ملحقة بالبيت:

«خلكم هنيا لين ما يجيكم العلم.. لا بغيتوا شيء انشدوا راكان ولد وضحى».

استغربت أن ينسب شِفتاي شخصاً لأمه، استغربت أكثر أن يُذكر اسمها أصلاً، ونساء الشفتا يعيشون في الظل دائماً. اختفى مرزوق وتركنا في الغرفة الضيقة الخالية إلا من نافذة غير متساوية الأضلاع هربت منها قطة بمجرد دخولنا، وباب حديدي غزاه الصدأ فامتلأ بالثقوب. ضوء الغرفة الخافت كان كافياً لأتبين قذارة المكان، رائحة نتنة تنبعث من أحد الأركان، وبقايا طعام تتناثر على الأرضية العارية. اخترتُ أبعد ركن عن مصدر الرائحة، أزحتُ علب التونا نصف المفتوحة، واستلقيت مواجهاً الجدار، ومعطياً ظهري لكل شيء عداه.

مع طلوع الصباح، أيقظَنا طَرقٌ متواصل على الباب:

«تبون شيء يا عبيد».

كان راكان، طفل لم يتجاوز العاشرة، لكنه يشبه الكبار في هيئته، ثوب رثّ لم أتبين لونه الأصلي، وشعرٌ مجعّد يتدلى من تحت عمامته يكاد يلامس عينيه. اشترى لنا تونا وخبزاً، وجلس يأكل معنا دون أن ندعوه، ثم أخذ ما تبقى من الطعام واختفى.

كان الوقت يمضي فاتراً، دون أن نجد شيئاً نفعله، أو نعرف موعد مغادرتنا الذي جعله مرزوق معلّقاً. خرجتُ من الغرفة دون

وِجهة معلومة. ضوء النهار بسط أمامي المكان الذي بدا هامداً دون ضجيج إلا من الرمال يعبث بها الهواء الجاف، فتملأ رئتي بالغبار. مسافة كبيرة كانت تفصل البيت الطيني، الذي نسكن غرفة ملحقة به، عن بيوت أخرى متناثرة بدت أحسن حالاً. من جديد ظهر راكان الذي كان يجرّ ماعزاً سرعان ما تركه بمجرد أن لمحني:

«تبي شي. . يا حبشي».

ضحكتُ لطريقته في نطق كلمة حبشي وكأنه يشتمني، ضحك معي دون أن يعرف السبب، قبل أن يبادرني بملامح جادة:

«عطني قروش».

ضحكتُ مجدداً بعد أن بدا وكأنه يطالب بثمن مشاركتي الضحك. أعطيته بضعة جنيهات، لكنه طالب بالمزيد:

«وحق وضحى؟»

أخذ راكان الجنيهات الإضافية، واقتاد ماعزه إلى داخل البيت. مضى بعض الوقت قبل أن يعود وبيده إناء من اللبن:

«هذا من وضحى».

تناولتُ الإناء المعدني الصدئ، وأنا أنظر تجاه الباب الموارب، وقد اختبأتْ خلفه امرأة بدت يدها الممسكة به مخضبة بالحناء الأحمر. كان واضحاً أنها تراقبني عبر ثقب أحدثه الصدأ في الباب. أشرتُ لها أشكرها، فأغلقت الباب بارتباك واضح.

انقضى النهار ولم يظهر مرزوق. وحده راكان كان يسلّي وقتنا بالتردد والسؤال عن احتياجاتنا، رغم أنه لم يكن يجلب لنا في النهاية إلا التونا.

في اليوم التالي، مدّ راكان يده دون حتى أن يقول شيئاً، فأعطيته الجنيهات، ثم أضفتُ لها جنيهات وضحى دون أن يطلبها. ابتسم وهمّ بالمغادرة، فبادرتُ بالسؤال عن سبب عدم ذهابه إلى المدرسة، كاد يُجيب، لكن صوتاً نسائياً انبعث من خلف الباب وطلب منه المجيء. كانت أول مرة أسمع فيها صوت وضحى، لكنها لم تكن الأخيرة.

من خلف بابها الموارب، وفي حضور ابنها بدأتْ وضحى تتحدث إليّ بعد محاولاتي المتكررة إقناعها، ووعودي الكثيرة بألا أتقدم خطوة أكثر باتجاه الباب. ثم أصبحنا نتحدث في غياب راكان دون اعتراض منها. كان يحرِّكني الفضول للاقتراب من حياة امرأة من الشِفتا، وأنا الذي طوال حياتي لم أستطع الاقتراب من أي شِفتاي.

لكن ليتني لم أفعل.

تعيش وضحى الأرملة العشرينية مع ابنها بمفردهما، منبوذين من أهل القرية بعد إصابتهما بالإيدز، وبعد أن حرمها أهل زوجها من ابنها الآخر الذي نجا من المرض. زوجها الذي نقل إليها العدوى عانى قبلها نبذ واحتقار القرية حتى أنه حين مات لم يجرؤ أهله الاقتراب منه، فاستأجروا رجالاً من قرية مجاورة لحمله ودفنه بعيداً عن مقابر أسلافه.

حتى راكان طُرد من المدرسة تحت ضغط الأهالي الذين هددوا المدير بسحب أبنائهم ما لم يطرده. عبثاً حاول مدير المدرسة إقناعهم بأن العدوى لا تنتقل بالمخالطة العادية، حتى رضخ في النهاية. قال لوضحى «تعلمين الجهد الذي بذلناه حتى

نقنع أهلك بإلحاق أبنائهم بالمدرسة، ولا ضير في مقابل الاحتفاظ بهم أن نضحي بابنك». من يومها وراكان يساعدها في الاهتمام بأمر «الحبش». وتلك حكاية أخرى.

إمعاناً في إذلالها، عرض عليها الأهالي أن تستضيف الهاربين مقابل جنيهات قليلة لكل «رأس»، فقبلت حتى لا تموت من الجوع. تقول وضحى إن الأهالي لم يكونوا يرون مَن هو أكثر حقارة منها إلا اللاجئين الأحباش، فأرادوا من خلال عرضهم أن يضاعفوا من احتقارها.

«ما رحمني إلا عبيد ينزلون من كسلا».

كانت وضحى تقصد السودانيين. أشفقتُ عليها وقد بدتْ أكثر عزلة ممّا ظننت.

كان هذا البيت الطيني نقطة في الفراغ لا يجعلها تنتمي إلى أي دائرة مهما ضاقت، لا الدولة ولا العشيرة ولا العائلة. لم تكن سودانية يوماً، ولم تعد زوجة أو ابنة، هي فقط نصف أم. وحده راكان كان عالمها، الابن والزوج والعشيرة. وحده كان الحبل المتبقي بعد أن انقطعت كل الحبال التي تربطها بالعالم، لذا كانت تلتصق به، تلفّه حول عنقها، وتلتف عليه:

«لو راح راكان.. أموت».

في يومي السابع تركتُ وضحى وابنها، وأنا ممتلئ بالحزن، والأسئلة. لم أرَ وجهها قط، لكن وجعه الطافح غمرني. لا أعرف تماماً مَن جنى علىٰ وضحى. مَن جعلها تدفع الأثمان متتالية على ذنب لم تقترفه، أو ربما فعلتْ، فقد ودعتني وهي تدعو الله ألا

يقطع عن بيتها خطى العبيد الأحباش، على الأقل حتى يكبر راكان، ويتكفَّل بجلبهم.

مَن قال إن الضحايا لا يذنبون.

أمرَنا مرزوق بالتوجّه فرادى إلى سوق الشِفتا. وجدتُ أمامي قطعة من الصحراء وقد بسطتْ كل أغراضها وسط كسلا. الرائحة والوجوه والخيام والمواشي والملابس وعربات الدفع الرباعي، وحتى تلك اللهجة البدوية ترنّ في أذني لفرط اختلافها.

شعرتُ بالعيون تراقبني. كنتُ أبدو غريباً، وأنا أمرُّ بين محال تبيع أقمشة نسائية ملونة تشتهر بها نساء الشِفتا. ضاعف من غربتي أني لم أكن أملك وجهة داخل السوق، فكل ما أخبرني به مرزوق أن شخصاً سيتعرَّف عليّ ليخبرني بالتفاصيل، وقد كان.

«تعال عند طرف السوق بعد الغروب، لا تتأخر».

كان أنقسوم مقتضباً وحاداً في حديثه كتعليمات الضباط في ساوا.

صعدتُ إلى صندوق اللوري، ومجدداً لم أكن وحدي غير أنّ هذه المرّة كان العدد أكبر. وجدتُ نساء وأطفالاً وعدداً من الشباب والفتيات، وبعضهم مقيّد القدمين. أخذ عبده يتأكد من عددنا:

«كم رأس عندك يا أنقسوم؟»

لا أدري هل غلبتْ لغة الصحراء على السائق، أم أنه بالفعل لا يميّز بيننا وبين المواشي، خاصة بعد أن نثر فوقنا أكواماً من العلف لنختبئ تحتها؟

تحرك اللوري نحو سيناء، هكذا سمعتُ من أحد الجالسين

إلى جواري وهو في فرح بادٍ. مرّت ساعات طوال تخلّلتها العديد من القرى الصغيرة، قبل أن نصل بورتسودان، ثم انحرف اللوري شمالاً لقرية كبيرة عرفتُ فيما بعد أنها تسمى «محمد قول»، دون أن أجد فضولاً لمعرفة سبب التسمية. بقينا ساعة، كان الأهالي خلالها يصطفون ببراميل في ساحة تأتيها صهاريج المياه من بورتسودان.

واصلنا المسير، كانت الملامح السودانية تتلاشى شيئاً فشيئاً، لصالح أخرى مصرية. كان عبده الشِفتاي يزداد توتراً كلّما تقدمنا فيصرخ فينا لنلتزم الهدوء، رغم أننا لم نكن حتى لنهمس فيما بيننا.

بلغنا حلايب بعد عدد من الحواجز الأمنية دون أن يستوقفنا أحد، لكن ذلك لم يخفِّف من توتر السائق الذي توقف ليتأكد من اختبائنا المُحكَم تحت الأعلاف.

توقف اللوري عند نقطة أمنية. طلب الجندي أوراق السائق. كان الصوت يصلنا واضحاً، ومرعباً:

«معاك حد؟»

بدا هذا السؤال موجهاً لي، أحسستُ بالجندي يخاطبني، يخبرني أنه كشف أمري، وأنهى في لحظة واحدة كل آمالي الكبيرة.

«أعلاف يا سيدي».

«أعلاف أو ناس؟».

هنا خارتْ قواي، وبدأتُ في الاستسلام لقدري قبل أن أسمع ضحكة مجلجلة من الجندي الذي كان يمازح الشِفتاي.

عبَرَ اللوري آخر نقطة قبل الوصول إلى منطقة الشلاتين السودانية التي يفصلها عن نظيرتها المصرية وادٍ صغير، هنا انحرف في طريق جانبية وعرة ظللنا نسير فيها بعض الوقت إلى أن توقف في منطقة جبلية. أمرنا عبده بالنزول والاختباء في انتظار شاحنة أخرى، كانت عينه على المقيدين منا وكأن مهمته التأكد من عدم هروبهم، قبل أن يغادرنا مع الفجر بمجرد أن لمح قدوم شاحنة أخرى لا تحمل أرقاماً أشار لنا سائقها فاتجهنا نحوه، لكن قدوم شاحنة أخرى مسرعة أوقف مسيرنا. ترجّل السائقان وبدأ ما يشبه العراك بينهما، تقدمت ففهمت أنهما يتنازعان أيهما يفوز بنا. كان كلّ واحد يطلب من الآخر إثباتاً أن «البضاعة» تعود له، ثم أخذا يتفقدان آذاننا دون أن نعي السبب، ولم يحسم الجدل إلا إشهار أحدهما سلاحه فتراجع الآخر مرغماً ورحل وهو يردِّد شتائم نابية.

«كل ذا من عبده المبوقع».

لم أفهم حديث البدوي، إلا حين سمعتُ شاباً يحمد الله أن الشِفتاي لم يقم بتخريم آذاننا كما جرت العادة لتمييز الهاربين بين عصابة وأخرى. عرفتُ أيضاً أن كثيراً من الاقتتال يحدث بين البدو للفوز بالأفارقة الهاربين.

بمحاذاة الساحل، أخذتنا شاحنة أبو طارق نحو سيناء، هكذا عرّف السائق الجديد نفسه. كان متجهماً وملامحه قاسية، يرتدي ثياباً شبيهة بما كان يرتديه عبده، غير أنّ لهجته بدت مختلفة بعض الشيء.

كان الطريق موحشاً ومؤذياً، وكأنه يتآمر ضدّ مَن يسير فيه.

كانت رؤوسنا ترتطم ببعضها، وبجوانب اللوري، تحت وقع الوعورة البالغة.

لم يأمرنا أبو طارق بالاختباء، بل كان يتصرف بتلقائية وعدم اهتمام بعَثا فينا الطمأنينة. تجاوزنا «القصير»، وصوت موسيقى غريبة ينبعث من الشاحنة، تلتها سفاجا، ثم الغردقة، فرأس غارب، حيث بدأ خليج السويس. كل ذلك والسائق لا يبدو مكترثاً بالطريق ولا بنا.

بدأ الشعور يكبر بتجاوز أصعب ما في الرحلة، ذهب بعضهم للحديث عن خططه بمجرد الوصول:

«لدي صديق يَعلَم بوصولي وقد أمّن لي عملاً في الجيش الإسرائيلي. صحيح أني أنتقل من جيش إلى آخر، لكن شتّان بين الاثنين. هنا سأعيش ملكاً».

انشغلت امرأة مقيدة القدمين بإرضاع طفلتها دون أن تبدي اهتماماً بحديث الشاب الذي مال عليّ وسألني عما أنوي فعله حال الوصول إلى إسرائيل. لم أجد جواباً. اكتفيتُ بالابتسام، فتركني ليعيد السؤال على شخص آخر.

لم أفكّر من قبل في هذا السؤال، كنت فقط أسعى لأتخلص من معاناتي. كنتُ أريد إنهاء حياة تعيسة، دون التفكير فيما يليها. كان الهرب إلى إيلات، هو فكاك من الماضي، أكثر منه تعلّق بالمستقبل.

وصلنا سيناء، كنا نمرّ بهضاب نحتتها الرياح فبدت كأشكال فنية تخفف من وطأة الصحراء وقت الظهيرة. مررنا بهضبة تقوّس

جزءها العلوي حتى بدت كامرأة تنحني لتلتقط ظلّها. توقف السائق أسفل الهضبة، وتبعناه في النزول. على جدار الهضبة رأيتُ أحرفاً مألوفة، ما إن اقتربت حتى وجدتها بالتغرنية:

«سامحيني إلدا. . الآن عرفت أن لا شيء يستحق».

غرقتُ في المكتوب حتى قعره الحارق. بدا الكلام حيّاً أكثر مما يجب، موجعاً ونافذاً. فكرتُ فيمن كتبه، شاب أو فتاة. لا أعرف إن كان يُخاطب أماً أو حبيباً. لا أعرف بالضبط عن أي فعل يطلب الغفران، لكني أعرف تماماً حجم خيبة الأمل التي اكتنفته، والوجع الطافح الذي غمره.

انقضت ساعة من الراحة عدنا بعدها إلى الشاحنة. تجاوزنا نفق الشهيد أحمد حلمي، فاتسعت مساحة الصحراء، وبدت أكثر وحشة. من بعيد لمحتُ شيئاً غريباً بدأ يتكشف كلما اقتربنا منه، حتى اتضح تماماً بمجرد أن مررنا بجواره؛ كان جثة مقيدة اليدين والقدمين. صرختُ في السائق كي يتوقف، كان صوت الموسيقى عالياً، صرختُ أكثر حتى انتبه لي، لكنه لم يبالِ كثيراً حين علم بالأمر:

«ايش ودك. . نسوي له عزا؟».

وعادت الموسيقى لتدوّي من جديد.

منظر الجثة المشوّهة أعادني ومَن معي إلى حالة القلق الأولى. تأملتُ الوجوه فرأيتُ الذعر وقد حطّ عليها بعد أن كانت متهلّلة لقرب انتهاء الرحلة.

في صحراء قاحلة كان أبو طارق يتحرك بثقة العارف، حتى

دخل منطقة تشكِّل تقاطع طرق وسط سيناء. توقفنا في مكان تحيط به الجبال من كل الجهات ويمتلئ بغرف حجرية دون أبواب. كان الإنهاك قد بلغ مداه، حين فرّقنا مسلحون إلى مجموعتين. اتجهتُ وشابان إلى غرفة، بينما ذهب الآخرون إلى وجهة أخرى.

«خلكم هنيا.. لحد يقوطر».

تركنا البدوي دون أن يضيف شيئاً، كان يبدو مشغولاً بأمر آخر. تمددتُ في إحدى الزوايا، وكذلك فعل أحد الشابين، بينما وقف الآخر على مدخل الغرفة، نهره صاحبه، لكنه استمر بنظره يلاحق شيئاً في الخارج.

«تعالا، انظرا ماذا يجري».

لم أعره اهتماماً بينما نهض الشاب ولحق بصاحبه.

«لا يملكون إلا هذه الطريقة لدفع أجور الرحلة».

هنا شعرتُ بالفضول ولم أستطع مقاومة السؤال عما يجري في الخارج، فجاءني جواب صادم:

«هناك مَن سيدفع كليته ثمن إكمال الرحلة».

نهضتُ مفزوعاً وانضممتُ إليهما على مدخل الغرفة فهالني ما رأيت. طابور من الرجال والنساء بعضهم ممن كان معنا على اللوري، تحديداً مَن كانت أقدامهم مقيدة، أمام طاولة عليها طبيب يأخذ عينات من دمائهم، قبل أن يرسلهم إلى خيمة كبيرة بدت أحسن حالاً. كانت المرأة تحتضن ابنتها بقوة وهي واجمة، إلى أن افتكّها منها مسلح بعد أن فرغ منها الطبيب، فبدأت في البكاء وهو يقتادها إلى الخيمة الكبيرة.

انتبه لنا بدوي، فعدنا على الفور إلى أماكننا.

«ما الذي يجري؟ ولماذا يرضون بهذا؟»

لم أكن مصدقاً عينّي، كان ثمة شيء غامض فيما يجري، إلى أن أجابني أحد الشابين فاتضحت الصورة:

«هؤلاء لم يكملوا ما عليهم من مال، أو تعرضوا للاختطاف، وفي الحالتين يُباعون للبدو الطامعين في كلاهم. في هذه الصحراء أعضاؤنا أغلى منا».

الآن فهمتُ سرّ حالة الوجوم التي طبعت المرأة طوال الطريق. كان واضحاً أنها مقبلة على فجيعة، كلما اقتربنا أكثر كلما كبرتْ فجيعتها. تُرى أي عذاب هذا الذي هربتْ منه حتى يتلقفها هذا الجحيم؟

اقتحم مسلّح الغرفة وهو يحمل عرضاً:

«شن عليا انت وياه.. من وده ياخذ ماله ويعطينا كليته. كلنا نقدر نعيش بكلية وحدة.. أنا عايش بوحدة وما بي خلاف».

تراجعتُ إلى الخلف، لم أشأ حتى أن أفكر في الأمر. كانت عيون الرجل الجاحظة تخفي وراءها خبثاً أسود، التفت إليّ مصوباً نظره في عيني:

«ايش رأيك يا أمير؟».

«لا. لا. لا»

مثلي رفض الشابان العرض، فغادر البدوي وهو يضحك ويشتمنا:

«بسس.. كلاب».

«لم يكن ليعرض علينا بيع كلانا ما لَم يصادف قبل ذلك مَن يوافق على عرضه».

اعتصرني الحزن وأنا أستمع إلى أحد الشابين. لا أعرف لماذا كلّما ابتعدنا أكثر، رخصتْ أشياؤنا إلى هذا الحد، وأصبحنا بلا قيمة؟

لا أعرف لماذا نهرب من الوجع إليه، نتلقفه وقد بدّل هيئته ومكانه، دون أن يتغير أثر وخزه القاسي في أرواحنا؟

عدتُ إلى مدخل الغرفة أُتابع سَوق الضحايا إلى مصيرهم. بعضهم لم يكن يلتفت خلفه، كان منشغلاً تماماً بما هو مقبل عليه. بدا أنه يفاضل بين أوجاع متفاوتة.

مضى بعض الوقت قبل أن يخرج طبيب من الخيمة الكبيرة مسرعاً إلى غرفة مجاورة، ويعود وبرفقته عدد من البدو. بدا الارتباك واضحاً على المجموعة التي تنتظر دورها، وهم يحاولون الاقتراب لاستجلاء الأمر غير أن أحد المسلحين أبعدهم.

لم يمرّ وقت طويل، حتى خرج البدو وهم يحملون جسداً مغطّى لم يلبث الهواء أن كشفه فظهر وجه المرأة التي رافقتني طوال الطريق، وقد أصبحتْ جثة هامدة.

توالي الفواجع أخرسني. عدتُ إلى مكاني وأنا أتمنى ألا أكون التالي. بدأت الأسئلة تكبر في داخلي عن حجم الورطة التي أوقعتُ نفسي فيها، عما إذا كانت الرحلة من نار إلى أخرى، تستحق كل هذه التضحيات. لا يوجد أقسى من المفاضلة بين وجعين.

«مشينا».

ترددتُ قبل أن أنصاع لإشارة البدوي. صعدتُ إلى شاحنة أبو طارق من جديد، كانت مجموعة أخرى قد سبقتني إليها، اختلفت الملامح، لكن حالة البؤس نفسها. كان الهزال بادياً على أجسادهم، وحزن عميق يسكن أعينهم.

انطلقنا ليلاً باتجاه الشرق تاركين تجمع البدو خلفنا. كنا في الحقيقة نغادر أوجاعاً مكدسة، دون يقين أنها تغادرنا. كنتُ ألتفتُ خلفي، إلى الغرف الحجرية والخيمة الكبيرة، وهي تحتجز أعماراً وأحلاماً غضّة ذبلت قبل الأوان.

استسلم معظم من معي للنوم، بينما لم أكن قادراً على إغماض جفني للحظة. لمحتُ شخصاً آخر كان ساهماً في السماء:

«هل قدمتَ من كسلا أيضاً؟».

انتبه الشاب متأخراً لسؤالي، التفتَ إليّ ببطء قبل أن يجيب أنه قادم من القاهرة التي قضى فيها أعواماً بعد هروبه من إرتريا. سألته إن كان قد وصل إلى هذه المنطقة خلال الأيام الماضية.

«قضيتُ في سجن البدو شهوراً، وأنا أحاول دفع ما يريدون، اتصلتُ بأهلي في إرتريا، لكنهم عجزوا عن توفير المبلغ».

صعقني الشاب حين أخبرني أنه فشل في الفرار من إرتريا في مرة سابقة، بعد أن ضبطت الشرطة المهرّب وبحوزته قائمة بأسماء من ينوي تهريبهم، ومقدار ما دفعوه. دفع بعضهم كامل المبلغ، وآخرون نصفه. صادرت الشرطة الأموال التي كانت بحوزة المهرب، ثم داهمت بيوت من دفعوا نصف القيمة وطالبتهم بإكمال ما تبقى، وكنت من أولئك.

لم أفق من الصدمة حتى عاد الشاب لإكمال حكايته:

«نجحت في المرة الثانية في الوصول إلى القاهرة التي عشتُ فيها دون عمل ولا أوراق ثبوتية، حتى سمعتُ أنهم سيعيدونني إلى إرتريا إذا قبضوا عليّ فقررتُ الهجرة إلى إسرائيل».

توقف الشاب عن الكلام، وكأنه وصل إلى قمَّة الوجع. نظر في عينيّ التي حفزته للمواصلة:

«تعرضت لمكيدة من سمسار أخذ مالي وتركني في أيدي لصوص انتحلوا صفة مهربين واستولوا على ما تبقى منه لأجد نفسي أسير على غير هدى في صحراء سيناء حتى وقعت في أيدي البدو الذين جلبوني للمكان الذي كنا فيه.

كانوا يسألونني عن أي أقارب لي في السعودية، لم يصدقوا أن لا أحد لي هناك، كانوا يعطونني هاتفاً ويطلبون الاتصال بأي شخص أعرفه في الخليج، بدأوا في تعذيبي، ولمّا تأكدوا من صدقي أرادوا قتلي، فقررتُ الاستسلام والاستغناء عن إحدى كليتيّ. سيعوّضني الله خيراً حين أصل إلى إسرائيل».

طلبَ مني الشاب الاقتراب وتحسُّس جانبه الأيمن. اقشعر جلدي حين لامستُ نتوءاً بارزة كانت ما تبقى من عملية استئصال كليته.

قصّ عليّ الشاب كيف يتعامل البدو مع المحتجزين لديهم، وكيف أن كثيرين منهم يموتون تحت التعذيب، بينما تتعرض الفتيات للاغتصاب:

«تلك الفتاة النائمة حملتْ أثناء وجودها في سجن البدو، ربما

كان حظّها أفضل من أخريات انتهت حياتهن هناك».

أخبرني أنه سمع يوماً أحد حراسه يقول إنه لن يسمح لإفريقي بأن يغادر إلى إسرائيل وهو في حالة صحية طبيعية، وحين سأله عن السبب أجاب بأن إسرائيل عدو لا ينبغي أن نصدّر له أشخاصاً كاملين.

أخبرني بأن عشرات السجناء ينتظرون المصير نفسه إن لم يتمكنوا من دفع الفدى. وأن البدو يستخدمونهم في أعمال مرهِقة فيضطر بعضهم للتعاون معهم في الإيقاع بضحايا جدد للتخلص من هذا العذاب.

«تجارة الأعضاء مربحة جداً، لا يتوقف الأمر على الكلى فحتى الموتى يُستفاد من جلودهم وأعضائهم الداخلية».

سألته إلى أين تذهب كل هذه الأعضاء فكان جوابه الساخر مشحوناً بالمرارة:

«إنها تسبقنا إلى إسرائيل».

غُصت في هول ما أسمع قبل أن يكمل الشاب:

«قليلون ينجون من هذا العذاب بتمكنهم من الفرار إلى جوار الشيخ العربي، وهو أحد وجهاء البدو الذي يعارض سلوكهم، ودائماً ما كان منزله ملجأ للناجين بأرواحهم».

قبيل الفجر صاح فينا أبو طارق لإعطائه أي مبالغ نملكها، لم يفهم شاب كلامه فأعاده عليه بعد أن أدخل عليه كلمات من التغرنية:

«قَنزب.. هات.. قَنزب».

أفرغنا ما في جيوبنا، فأشار إلى أضواء بعيدة:

«ذيك إسرائيل.. يلا هجوا.. انقلعوا».

ضحك بسخرية وهو يضيف:

«إلبدو..»

بدأ الجميع في الركض، لم يكن يعكّر هدوء المكان إلا وقع خطواتنا. بلغنا السياج وما أن بدأنا في تسلقه حتى انهالتْ علينا طلقاتُ رصاص من جهة الشرق. تمكّنا من تجاوز السياج لنجد أمامنا سياجاً آخر، تجاوزه بعضنا وابتعدوا داخل الأراضي الإسرائيلية، بينما انبطحتُ أرضاً أنا والفتاة الحامل. كنت طوال الوقت أنظر إليها، إلى عينيها الخائفتين تحديداً، وأنا ممزَّق بين مساعدتها، والنجاة بنفسي. هدأ الرصاص فحاولنا اجتياز السياج الثاني غير أن الرصاص عاد بكثافة أكبر، بعد أن بدأت جهة أخرى تطلق علينا النار من الخلف.

حسمتُ أمري أخيراً وتمكنتُ من دفع الفتاة إلى ما وراء السياج، وتعلّقتُ لألحق بها، فاخترقتْ رصاصة فخذي وتلتها أخرى، قبل أن أسقط برصاصة أصابتْ كتفي. هدأ الرصاص ثانية، لكني لم أكن قادراً على الحركة. كان الألم يشلّني وقواي تتضاءل شيئاً فشيئاً، وأنا ألمح أضواء إيلات من بعيد تتراقص أمامي، إلى أن فقدتُ الوعي ولم أعد أشعر بشيء.

لا أعرف كم من الوقت مرّ، قبل أن أستيقظ على وجه طبيب يعاين نبضي في غرفة خانقة وشبه معتمة. ابتسم في وجهي وهو يخبرني أني بخير. كانت الآلام تعمّ جسدي كله، وضماد يلفّ

كتفي وإحدى قدمي، لكنّي كنتُ أشعر بألم آخر تحسستُ مكانه فوجدتُ ضماداً استطعتُ أن أتبين تحته نتوءاً بارزة على امتداد جانبي الأيمن. صرختُ مفجوعاً، حاول الطبيب تهدئتي، لكني هددته باللجوء إلى الشرطة، فعاد إلى ابتسامته بعد أن غلّفها بلؤم:

«أنت حر في قرارك، لكنك حينها ستُرحّلُ إلى إرتريا. أما إذا اعتبرتَ أن كليتك في مقابل إنقاذ حياتك، فبإمكانك إكمال طريقك إلى إسرائيل أو العودة من حيث أتيت».

أغمضتُ عينيّ بأسى، وقد أدركتُ كيف تتقلص الخيارات في لحظات اليأس، لتصبح خياراً واحداً غارقاً في المرار لا نملك سواه.

(5)

كنتُ أسير خلف المرأة من دكان إلى آخر، وكلما انتهتْ من واحد تمنيتُ أن يكون الأخير. طفتُ أجزاء واسعة من السوق وأنا أحمل أغراض السيدة بدءاً من الخضار الذي اشترته من عندنا، مروراً بمحلات الحبوب والملابس والعطارة. انتهتْ أخيراً فعرضتُ عليها أن أسبقها إلى البيت، لكنها أصرّت على بقائي إلى جانبها علّها تذكر غرضاً جديداً. كانت تسير على مهل وأنا أتحرق للذهاب إلى الجهة المقابلة من المخيم قبل حلول الظهر.

أعتقتني المرأة أخيراً بالوصول إلى بيتها. أخرجتْ حقيبتها لتعطيني بعض الجنيهات، لكني شكرتها وأنا أسرع باتجاه مدرسة المخيم المتوسطة للبنات.

«. . يُستفاد عادة من البنات المتعلمات في التدريس في هذه المدرسة. . فكرّتُ أن سلمى قد تكون هناك».

لم أنم الليل وأنا أنتظر اليوم التالي لأتأكد ممّا قاله أمير. عرضتُ عليه أن أتوجه إلى المدرسة من الصباح الباكر، لكنه أشار عليّ بوقت الظهيرة حيث تخفّ الحركة حول المدرسة.

لم أستغربْ أن يبدأ أمير في مساعدتي للبحث عن سلمى بمجرد أن ينتهي من حكايته الطافحة بالوجع. أن يبادر لإطفاء ناري

بينما داخله يشتعل، أن يحاول إزاحة همّي بينما الأحزان تحتشد على بوابة قلبه بنهم.

أعادتني حكايته إلى دولة الشِفتا بكل تفاصيلها المؤلمة. تذكرتُ سيناء التي كنا نُهدد بها في تلك البقعة المعزولة، وكأن أوجاعنا حينها ينقصها وجع مؤجَّل، لا ندرك وطأته.

تذكرتُ أبراهام الذي انكفأ على جرحه، حمَله وعاد به. تذكرتُ زينب التي لا أدري إن كان قد انتهى بها المطاف في مخيمات اللجوء، أم أن مصيرها انحرف بها إلى سراديب العصابات. تذكّرت خديجة التي انتهتْ مهلتها لتبدأ حكاية تشرُّد جديدة بأوجاع مختلفة.

تذكرتُ كل ذلك وأنا أطالع وجه أمير بملامحه التي أخذتْ من شتات كل المقهورين. أرى فيها أبراهام وزينب وخديجة إلى آخر نسل المفجوعين في أوطانهم وأحلامهم البسيطة.

أحياناً أخجل من همومي، أستصغرها إذا ما قارنتها بما لقيه أمير في رحلة عذابه. صارحته بالأمر فلم تبارح الإجابة انطباعي عنه:

«الفقد واحد يا عزيزي. له الطعم واللون والرائحة نفسهم، بل ربما يكون فقدك أكبر، فأنا خسرتُ كلية واحدة بينما يضيع منك حبّ عمرك».

استندتُ إلى شجرة يتيمة مقابل المدرسة. وقف إلى جواري بعض أهالي الطالبات في انتظار خروجهن. لم يكن المكان يشبه مَرسى فاطمة على الإطلاق، لكني شممتُ شيئاً من عبق ذلك الشارع يفوح هنا.

شعرتُ بالشوق لمَرسى فاطمة يتسرب عبر كل المسامات ليملأ روحي ووجداني. اشتقتُ إلى أوقات الظهيرة فيه وأنا أسابق أنفاسي للقاء سلمى. اشتقتُ لناسه الطيبين وهم يظلّلون المكان بالمودّة، اشتقتُ إلى شعوري الكبير فيه بالأمان وحجم الألفة التي كان يلقاني بها كلما ارتدته، واشتقتُ إلى سلمى التي جعلتني أشتاق إلى كل ذلك.

بدأ خروج الطالبات فأنهى تأملي. أشفقتُ على الصغيرات بملابسهن الرثة ووجوههن الكالحة أن يكبرنَ في هذا الشتات، لكني في المقابل أكبرتُ تشبّثهن بالقليل الممكن رغم كل شيء.

بدأت الأعداد تقلّ حتى تلاشتْ تماماً فتحفّز كل شيء فيّ. بدأ خروج المعلمات واحدة تلو أخرى. دون أن أشعر اقتربتُ منهن، أخذتُ أُدقق في ملامحن. مرّت مجموعة وتبعتها أخرى دون أن تظهر سلمى. اقتربتُ من إحداهن أكثر، أردتُ سؤالها بشكل مباشر، لكنّ عصا غليظة حطّتْ على ظهري بعنف، التفتُّ متألماً لأجد رجلاً بلحية خفيفة وهو ينهرني لتحرُّشي بالمعلمات. حاولتُ أن أشرح له غير أنه كان حازماً في سؤاله:

«يا حبشي.. عندك قرايب هنا؟».

احترتُ هل أخبره بأن سلمى هي أمّ طفلي، وأنا على هذه المسافة من أسمرا، أم أحتفظ بسري. صمتُّ، فاكتملت الصورة لديه:

«امشي قدامي».

لم يتركني الرجل الذي عرفتُ أنه أحد موظفي المخيم، حتى

وقّعتُ له على ورقة تحمل رقمي بألا أتعرض مجدداً «للمؤمنات الغافلات»، وإلا سيكون مصيري السجن.

في طريق العودة بدأتُ ألاحظ انتشاراً لرجال الأمن. بدأتْ عربات الشرطة تتوافد ومعها بدأ الناس في التجمهر. شكّل الأمن مساراً ينتهي بمعتمدية اللاجئين ومنعوا الأهالي من الاقتراب منه. لم يمضِ وقت حتى قدمَتْ عربات مدنية وترجَّل منها أوروبيون كُثر، لكنّ شخصاً واحداً بينهم كان يحظى بالاهتمام أكثر من غيره.

اقتربتُ أكثر حتى تقدمتُ الحشود التي اصطفتْ بالقرب من المسار. سمعتُ أحدهم وهو يتباهى بمعرفة الرجل الخمسيني مثار الاهتمام:

«هذا المفوّض السامي لمفوضية اللاجئين، سبق له المجيء. يُقال إنه جاء ليُقنع أهالي القرى المحيطة بالشجراب بالاندماج مع المخيم».

على مدخل المعتمدية اندفع علي نحو الرجل وانحنى يقبّل يده، غير أن الأخير سحبها بارتباك. أحاط موظفو المعتمدية بالزائر وكل واحد منهم يحاول انتزاع اهتمامه. تقدمت امرأة عجوز في غفلة من الأمن باتجاه المفوّض وأمسكتْ بيده. أربك الموقف الرجل والمحيطين به، لكن علي وحده كان يملك ردّة فعل مختلفة؛ سارع وجرّ المرأة من يدها الأخرى حتى وقعتْ على الأرض. زاد ارتباك المفوّض الذي رمق علي بغضب، وقبل أن يقوم بشيء سارعتْ فتاة شقراء كانت ضمن مرافقيه لمساعدة المرأة على النهوض وهي تصرخ في وجه علي بعربية جيدة، ثم سرعان ما عادت لتصطفّ بطريقة جادّة خلف المفوض.

اختفى علي عن الأنظار بينما عادت العجوز لتتشبث بيد المفوض. لم تقل شيئاً، كانت فقط تحدّق في عينيه، طلب الرجل مترجماً فتكالب المسؤولون لأداء المهمة، لكنّ المرأة لم تنطق. حاول الرجل أن يخلّص يديه فتشبثت بها العجوز أكثر. كان الرجل يبتسم محرجاً إلى أن عادتْ مرافِقَته، وبالجدية ذاتها، لتخلِّص يده العالقة، ثم تنزوي بالعجوز بعيداً عن المفوض الذي سارع للدخول إلى مبنى المعتمدية وتبعه الآخرون.

كنتُ لا أزال أتابع الموقف. بدأ الناس في الانفضاض فهممتُ مثلهم بالمغادرة، لكنني لمحتُ مرافِقَة المفوض وهي لا تزال إلى جانب العجوز تسجّل حديثها على ورقة في أحد جوانب المبنى.

ملامح الفتاة بدت لي أكثر وضوحاً، شقراء في نهاية العشرينيات تقريباً، شعرها القصير يوحي بجدية دون أن يسلب ملامحها جمالاً ملفتاً. اهتمامها بالعجوز بدا منقوصاً، كانت مسحة من اللامبالاة تطبع حركاتها، وفتور يصبغ تجاوبها مع العجوز. كنتُ أنقّلُ بصري بين الفتاة والعجوز، إلى أن التفتت الفتاة نحوي فجأة، فارتبكتُ وغادرتُ المكان.

«قلنا يمكن ما تجي، كنا ح نشرب الجبنة برانا».

حكيتُ لأم أوّاب وأمير ما شاهدته عند مبنى المعتمدية فلم يهتمّا كثيراً.

«كل كم سنة يجو. . زمان كنا نهتم بمسؤولين المفوضية حقت اللاجئين عشان يكتبو لينا في الورق لاجئ، لكن بقوا يطنشونا عشان كده نحن كمان قاعدين نطنشهم».

لم يعلّق أمير على حديث أمّ أوّاب، بل مال نحوي ليسألني

عن مشوار الظهيرة. اكتفيتُ بإخباره أني لم أجدها وتجنبتُ إخباره بقصة المؤمنات الغافلات، فاعتدل في جلسته:

«لديّ فكرة. تعال معي».

تركنا أمّ أوّاب وهي تستفسر عن مغادرتنا المفاجئة، واكتفى أمير بإخبارها أننا سنعود لنلحق بفنجانها الثاني.

شرح لي أمير فكرته في الطريق. خشيتُ من تبعاتها، لكنه طمأنني أن كل شيء في المخيم يمكن القيام به مقابل المال. مررنا في طريقنا بخيمة كبيرة، بدا أنها نُصبت للتو وعلى واجهتها شعار مفوضية اللاجئين، بينما لم تكن الخيمة قد اكتملت من الداخل وقد تناثرت فيها معدات طبية. تابعتُ الفتاة الشقراء وهي تشرف على سير العمل، بينما كان أمير أقل اهتماماً:

«يمرون على عجل، ينصبون خيامهم هذه لبعض الوقت، قبل أن يختفوا طويلاً، وكأنهم بذلك يريحون ضمائرهم بين الحين والآخر. هذا فضلاً عن تعاليهم الدائم على اللاجئين. لا أعرف كيف يعمل شخص على خدمة محتاج، وهو لا يحمل داخله أي نوع من التعاطف معه».

بلغنا مقراً إدارياً، فاستأذن أمير للقاء أحد الموظفين. عبرنا الممرّ إلى حاوية كبيرة قُسّمت إلى مكاتب صغيرة. دخلنا أحدها فأصبتُ بالصدمة حين رأيتُ الرجل الذي ضربني عند مدرسة البنات يجلس خلف المكتب. استغرب الرجل وجودي أيضاً، لكنّ أمير بادره بالحديث:

«نبحث عن زوجة هذا الشاب، اسمها سلمى فقدها أثناء

الهرب من إرتريا، وكما تعلم أن لكل لاجئ هنا رقماً، ممّا يجعل العثور عليها صعباً. نرجو أن تساعدنا ونحن جاهزون لكل شيء».

«أهلين يا زول يا حبيبنا».

شعرتُ بالارتياح من مرور سرّي بهذا الهدوء، من إذاعته دون عواقب. غادر الرجل المكتب لبعض الوقت. كنتُ مستغرباً من تعاونه الكامل، وتعاطفه معي، وهو الذي كان جلفاً ولم يبذل جهداً ليصدّقني عند مدرسة البنات. ملتُ على أمير ونقلتُ له استغرابي فزادني دهشة:

«ومَن قال لك إنه يتعاطف معك».

حكيتُ له ما جرى، وكيف وصفني بالحبشي هناك، وبالزول هنا، فجاء ردّه أكثر غرابة:

«الحبشي هنا هو كل غريب وسيئ.. بينما الزول حكر على الأقارب والطيبين».

عاد الرجل وبيده مجلّد ضخم، بسطه على المكتب وبدأ في تصفحه، بينما قام أمير بدسّ مبلغ بين أوراق الرجل المتناثرة على المكتب، فانتشله بخفّة، ووضعه في جيبه. بدأ يقلّب الصفحات ويمرُّ بإصبعه سريعاً على أسطره وهو يردد: سلمى.. سلمى.. سلمى.

كان قلبي في المقابل يزداد خفقاناً مع كل سطر يحطّ عليه الرجل. تغاضيتُ عن طريقته البشعة في نطق اسمها وقد كنتُ أظن أن ليس بمقدور أحد أن يشوّه جمال هذا الاسم.

«سلمى.. سلمى.. سلمى».

يقلبُ الرجل الصفحة تلو الأخرى فيكاد ينتزع معها روحي، أراقب ما تبقى من الصفحات وهي تتناقص دون أن يعثر على سلمى، إلى أن صرخ متباهياً:

«سلمى». .

وخزني الفرح بقوة في صدري، بدوتُ عاجزاً عن استيعاب لحظة فرح جليلة كهذه. ضمّني أمير بإحدى يديه وملامحه تخلّصتْ تماماً من حزنها المقيم. شلّني الموقف في انتظار أن يُكمل الرجل:

«سلمى محمود، عشرون عاماً. . بلاغ اختطاف. .»

انتكس فرحي إلى حزن عميق. مثلي بدا أمير وهو يخبر الرجل أن هذه فتاة أخرى سبق وأن أبلغتْ والدتها عن اختطافها. عاد الرجل إلى مجلده دون أن يعود لي ترقبي. كان الانكسار قوياً في داخلي. شعرتُ بقلبي يهوي إلى صخرة سحيقة بعد أن بلغ عنان البهجة.

طوى الرجل آخر صفحة في المجلد فأحسستُ بروحي تطويها الفجيعة على فقدان سلمى. تسرّب وجعي إلى الغرفة فعمّها صمت كئيب. شعرتُ بالرجل وقد تسلل إليه بعض التعاطف وهو يعرض فكرة أخرى:

«يا زول. . يا حبيبنا. . ممكن سلمى دي تكون في أم قرقور أو ود شريفي. . ودي حاجة ما بيعرفها غير ناس المفوضية الكبار».

أصرّ أمير أن نعود إلى أمّ أوّاب بعد أن أخبرته برغبتي الاختلاء بنفسي. كنتُ منهاراً وكان يحاول ترميم وجداني:

«قهوة أمّ أوّاب ستُنسيك هذا الهمّ».

بدتْ خيمة المفوضية جاهزة لاستقبال المرضى، بعد أن غادرها العمال وقد وضعوا كل شيء في مكانه. وحيدة كانت الشقراء خلف مكتب تطالع كتاباً، حين اقترب منها شابان، وأخذا يتحدثان إليها. كنتُ وأمير نتابع الموقف أثناء سيرنا إلى أن اضطررنا للتوقف.

دون أن ترد، ألقت الشقراء نظرة لامبالية على الشابين، قبل أن تعود إلى كتابها. بدا أن ذلك استفزّ أحدهما فاقترب منها حتى كاد يلتصق بها، وعلى وجهه ابتسامة ساخرة. لم تفلح محاولات الفتاة الابتعاد عن الشاب، وقد استشعرت الخطر، بعد أن بدأ الآخر في الاقتراب بدوره.

كان أمير قد خطا بشكل لا إرادي خطوات نحو الخيمة، فتبعته بمجرد أن تنبهت.

«والله ما نخليها».

عبثاً حاول أمير إقناع الشابين بالابتعاد عن الفتاة. انضممتُ إليه دون أن يتغير شيء. كل ما استطعناه كان تشكيل حائل بين الشابين والفتاة. كاد الأمر أن يتطور لعراك، لولا قدوم علي مهرولاً، فغادر الشابان على عجل بمجرد أن لمحاه.

اكتفت الفتاة ببضع كلمات وهي تشكر علي الذي بدا مزهواً بمعروفه، فأخذ يكرِّر أنه مستعد لخدمتها ليل نهار متى احتاجته. غادرنا بينما أمير متوقف عند تصرف علي:

«الجميع يخشونه لاعتقادهم أنه قادر على إيذائهم. إن لم يكن من طريق المفوضية، فمن طريق السماسرة».

أشعلتْ أم أوّاب الموقد من جديد بمجرد أن دخلنا خيمتها، وهي تستفسر عن سر تأخرنا. تعذّر لها أمير بانشغالنا في ترتيب بضاعة الغد، بينما جلستُ دون أن أنطق بكلمة. شعرتُ بأمّ أوّاب وقد لاحظتْ وجومي غير أنها اختارتْ ألا تسألني.

«مرحباً.. هل أستطيع الدخول؟»

التفتُّ إلى مصدر الصوت فكانت الشقراء، وهذه المرّة بملامح أقل حدة وأكثر انبساطاً. رحبتْ بها أمّ أوّاب ودعتها للدخول.

«أنا كارلا طبيبة في مفوضية اللاجئين، جئت أشكر صنيعكما معي. لم يُتح لي فعل ذلك هناك».

ارتسمت الدهشة على وجه أمّ اوّاب، بينما قال أمير إنه أقل الواجب. بدوري كنتُ أرقب المسافة الشاسعة بين ملامح الفتاة منذ قدومها، وبينها الآن. بدتْ شخصاً مختلفاً للغاية، وقد نزعتْ عنها فتورها ولا مبالاتها الطاغيين.

«لعلها فرصة لإخباركم أن المشفى الميداني سيكون جاهزاً ابتداء من الغد. ستكون لكم الأولوية في كل شيء.. هل لي بأرقامكم فضلاً؟».

«أنا أمّ أوّاب».

بدتْ أمّ أوّاب صارمة، وهي تحاول مقاومة اختصارها في رقم. الجميع هنا، ومع طول البقاء، كانوا يتوقفون عند هذا اللقب دون تجاوزه. معرفة اسمها الأول كان محظوراً أيضاً، لا يجرؤ أحد على اقترافه.

«أنا أمّ أوّاب»..

كانت تسعى بكلّ طاقتها لاستحضار أوّاب، لجعله حياً على الدوام، على لسانها وعلى مسامع الآخرين. كانت كمن يخشى أن يُباغتها النسيان مرة، أو يهزمها اليأس إلى الأبد.

«أنا أمّ أوّاب».

لقبها هذا كان يجمع المتناقضات كلها، اليأس والأمل، الحزن والبهجة، الفقد والأوبة. وحده هذا التناقض كان بمقدوره أن يسند أمّ أوّاب كعكازين قويين، وهي تنوء بكل هذا الحمل من الانتظار.

«أنا أعرف رقمك سيدتي، ألست 601؟ أنا أسأل عن رقمي الشابين».

كانتْ هذه أول مرة أتعرَّف فيها على رقم أمّ أوّاب في الشجراب. بدا موسيقياً ومختصراً خلاف رقمي الممتد بكآبة، لكنّ شيئاً آخر لفت انتباهي أيضاً وقد تبدتْ فيه قسوة المكان، إذ احتفظت الزائرة باسمها، بينما أصرّت على جعل الأرقام هي قدر المقيمين هنا، لم يعدل الشجراب حتى في ظلمه.

تجاوزتْ أمّ أوّاب خيبة استحضار رقمها سريعاً، وعرضتْ على الفتاة مشاركتنا القهوة. أبدت الفتاة سعادتها:

«أحبُّ «الجَبَنَة»، فلطالما شربتها من يد جدتي».

أثار تعليقها استغرابنا فأكملتْ حديثها وهي تضحك:

«لا تستغربوا فأنا إيطالية، وجدّي لأمي وُلد ونشأ في أسمرا، لذا فقد كبرتُ وعشتُ وسط كثير من عاداتكم. وأشعر بالامتنان لعائلتي التي أتاحتْ لي ذلك».

بدتْ أمّ أوّاب أكثر سعادة وهي تقدّمُ الفنجان للفتاة، بينما بادرتُ بملاحظة حملتْ نبرة جادة:

«لكنّ هذا الامتنان لم يغيّر شيئاً من أحوال الناس هنا، فأنتم تأتون مرة كل بضعة أعوام».

فوجئت الفتاة بردّي، لكنها سرعان ما عادت لابتسامتها، وإن بدرجة أقل:

«معك حق. هناك تقصير واضح من قبل المنظمات الدولية في حق اللاجئين الإرتريين الذين تتزايد أعدادهم حتى قاربت النصف مليون. لم أكن أتمنى أن يعاني أبناء الوطن الذي أحبّه جدّي بهذا الشكل، كان دائماً ما يردِّد أن إرتريا هي فخر مستعمراتنا على الإطلاق».

تدخلتْ أمّ أوّاب لتأخذ فنجان الفتاة، لكنها اعتذرتْ عن شرب فنجان آخر:

«طُعُم بون.. لديّ زيارات كثيرة، لكنني لن أُفوّت قهوتك اللذيذة طوال وجودي هنا».

غادرت الفتاة بينما التفتتْ أمّ أوّاب إليّ وهي تؤنبني، وانضم إليها أمير:

«كنت قاسياً عليها، أتفهّم رأيك وحتى حالتك النفسية، لكنك صوّبت سهمك للجهة الخاطئة».

هززتُ رأسي موافقاً دون أن أنطق بكلمة.

(6)

بدا الوقت رتيباً وأنا وسط ضجيج السوق. لم يطلبني زبون، فانشغلتُ بغسل الخضار وترتيبه مرة بعد أخرى. لاحظ أمير حالتي فعرض عليّ المغادرة إن أردت.

خرجتُ من السوق دون وجهة معلومة، تقودني خطاي وهي مثقلة بالهموم. أين سلمى؟ لماذا لم تظهر حتى الآن؟ هل تعرضتْ لمكروه؟ سيطرت الفكرة الأخيرة عليّ رغم محاولتي طردها. خطر لي أن تكون وقعتْ في أيدي الشِفتا، أو تم نقلها إلى سيناء ولاقتْ مصير تلك الفتيات اللاتي أخبرني عنهن أمير.

شعرتُ بشخص ينظر إليّ، التفتُّ فالتقت أعيننا، كان علي. استمر في النظر، ولم أشح ببصري، فاقترب مني، حتى أصبح أمامي تماماً:

«بنصحك تبعد عن صاحبك الكلب الحبشي ده.. ما بينفعك في الآخر».

لا أعرف لما يبدو علي مختلفاً كثيراً؟ لما ينأى بنفسه عنّا ويصفنا بالأحباش؟ سألته فضحك وهو يجيب:

«والقال ليك منو أنا أرتري؟.. أنا سوداني.. وعمري ما بقيت ولا ح أبقى أرتري».

أنهى علي جملته وتركني دون أن ينتظر ردي. بقيتُ في مكاني بعض الوقت تحت تأثير طريقته المتوترة في إنهاء الحديث، قبل أن أُكمل سيري.

مررتُ بالمشفى الميداني التابع للمفوضية. كان غاصاً بالمرضى من النساء والأطفال وكبار السن، حتى أن معظمهم كان ينتظر دوره متمدداً في العراء وهو يتلوى من الألم، بينما صراخ الأطفال يملأ المكان، ويغرس أشواكاً في قلوب الأمهات العاجزات عن فعل شيء.

كانت كارلا تفحص رجلاً مسناً، قررتُ تجاهلها والمضي بعيداً، لكني عدلتْ. كنتُ أشعر برغبة في الاعتذار، تقدمتُ قليلاً ثم توقفتْ، حسمتُ أمري في النهاية:

«أنا آسف لحديثي القاسي بالأمس».

التفتتْ إليّ على عجل قبل أن تعود لمريضها:

«لا عليك».

لم أعرف ما ينبغي عليّ فعله، فإجابتها أنهت الحديث دون أن تمحو إحساسي بالذنب. هممتُ بالمغادرة فلم يثِرْ ذلك انتباهها. عدتُ إليها من جديد:

«ما رأيك لو نتناول القهوة عند أمّ أوّاب، ستسعد لو رأتك مجدداً».

«سأرى إن انتهيتُ من عملي مبكراً».

هذه المرة لم تترك لي فرصة أخرى للبقاء، شعرتُ بحرج

أجوبتها الباردة، غير أني التمستُ لها العذر في مقابل حدّتي بالأمس.

تجولتُ في المخيم قليلاً ثم اتجهتُ صوب خيمتي قبل أن أغيّر وجهتي أخيراً باتجاه أم أوّاب. وجدتها نائمة، هممتُ بالمغادرة فأحسّتْ بي واعتدلتْ جالسة وهي تُصلح من غطاء الرأس وتدعوني للدخول.

«لم أجد سلمى، لا أثر لها في الشجراب. بدأتُ أشعر بالشعور البغيض نفسه الذي تملّكني حين اكتشفتُ عدم وجودها في ساوا. لا أعرف ماذا أفعل».

مسحتْ أمّ أوّاب على رأسي. أخبرتها أن يدها هذه هي رحمة الله في هذا المخيم وأني لولاها لكنتُ احتشدتُ بالهموم.

حكيتُ لها لقائي العابر بعلي فبدّدتْ حيرتي من تصرفاته:

«والله الولد ده مرات يحنني، إتولد هنا وأبوه مات في الحرب، عاش حياة صعبة في الشجراب عشان كده كره نفسه وكره بلده ويمكن لو ما لقى الجنسية السودانية كان مات كمد»

بدا أنه من الصعب أن ينجو أحد من سطوة الشجراب. لم يكن المخيم يترك أحداً دون أن يصيبه بعطب ما، أو يشوهه.

سألتها ما الذي يجعل شخصاً يحصل عليها دون الآخر فجاءت إجابتها صادمة. فقد عمدت الحكومة السودانية إلى تحويل بعض المخيمات الصغيرة إلى قرى ومنحت أهلها الجنسية، لكن دون أن يتغير شيء في حياتهم، ودون حتى أن يُسمح لهم بالتنقل. وعندها أيقن الناس أن الهدف كان دعم الحكومة في الانتخابات. امتلأ

صدري بهمٍّ حاولت طرده بتنهيدة طويلة، فعادت أمّ أوّاب لتمسح على رأسي من جديد:

«الليلة ما يوم 24 مايو، والله يمر علينا مرات ما نتزكرو، لكن إنت المفروض ما تكون حزين في يوم زي ده».

ظللتُ لوهلة وأنا أتأمل ابتسامة أمّ أوّاب المحيرة، قبل أن أستوعب أخيراً أنه عيد الاستقلال:

«كل عام وأنتِ بألف خير».

اتسعت ابتسامتها وهي تجيبني وتتمنى لي الخير ولقاء سلمى.

طوّحتْ بي دعوة أمّ أوّاب عن المكان وأعادتني إلى أعيادي مع سلمى، إلى أول عيد للاستقلال قضيته في كنف فتاتي.

«وافقتْ أمي على خروجي برفقة أختي للاحتفال، سألتقيك مساء الغد».

أنارتْ كلمات سلمى روحي، وملأتها حبوراً. كنتُ أسير في كمشتاتو المضاء عن آخره كفاتح استقبلته المدينة بالزغاريد وسلّمته نفسها دون تمنُّع. كنتُ أفيض بالفرح وأنا أرى جدائله معلقة بالحشود من حولي. كانت الصبيات الأنيقات يملأن الشارع كثمار الليمون في موسم الحصاد، لكني كنتُ في انتظار فاكهتي الأشهى، وقد حوّلت أيامي كلها إلى مواسم حصاد.

قدِمَتْ سلمى وهي ترتدي فستاناً أصفر عاري الكتفين، فغارتْ حدائق الليمون في الشارع كله. أطلّت ابتسامتها من بعيد ففرشت طريقها نحوي بالفرح.

كنتُ قد توقفتُ وتوقف عندي كل شيء في كمشتاتو إلا خطوات سلمى، أرقُبها تقترب وقد ضبطتُ عليها دقّات قلبي، وتمايله وغنجه.

«هل تأخرتُ عليك؟».

«للتو بدأ إحساسي بالوقت».

تضحك سلمى وتقبّلني، فأمتلئ بعطر الليمون. أرجوها أن تقترب أكثر، أن تحتضن ما بقي مني، فتنبهني إلى زحمة الناس:

«لسنا وحدنا».

أتمسك بموقفي، فتطبع قبلة أخرى على خدّي وتنتظر ردة فعلي، قبل أن تغطي لهفتي بأوراق الليمون وتحتضنني وهي تهمس:

«عنيد».

نسير مع زحام كمشتاتو نحو «إكسبو». أُطوّق سلمى بيدي. ينثر الهواء خصلات شعرها على وجهي فلا أُزيحها، أتمنى بقاءها العمر كله وهي تتمدد على جبهتي بدلال ساحر. نتوقف لشراء «الآيسكريم». تحبُّ سلمى إذابته على شفتيها قبل تذوقه، مثله تماماً كنتُ أذوب دون حتى أن أصل إلى علياء ما وصل إليه.

نتوقف ثانية، لكن هذه المرة لتشتري سلمى عَلَماً تغطي به كتفيها. غاظني العلَم بعد أن تحمّستُ لشرائه وقد حجب عنّي أول الحقل ومنتهاه، لكنني لم ألبث أن تحايلتُ على سلمى وأخذتُ العَلم لأطوّق به كتفيّ.

بلغنا إكسبو فوجدناه متخماً بالمحتفلين. كانت معظم القاعات مزدحمة بالشباب والفتيات، تجاوزتْ سلمى قاعة الأغاني الحديثة، وقاعة الأغاني الغربية، وتوقفتْ عند قاعة الأغاني التراثية. سألتها إن كانتْ فعلت ذلك من أجلي، لكنها أصرّتْ أنه اختيارها أيضاً.

كان الزحام أقلّ منه في القاعات الأخرى، ومعظم الحاضرين من أعمار أكبر. انخرطتْ سلمى سريعاً في جو القاعة وسحبتني لنلحق بالأغنية قبل تمامها.

كانت سلمى ترقص على أنغام «يماني باريا» بانتشاء كبير، تُنقّل خطواتها في القاعة بخفة لافتة. أُمسك بأطراف أصابعها، وأدعها تتلوى. تبتعد قليلاً، وقبل أن ألحظ المسافة الفاصلة تعود وتجسرها تماماً.

كثيراً ما حكت لي سلمى عن يماني باريا، عن قبعته التي كان يعتمرها إلى الوراء إلى حين وفاته، في إشارة إلى رفضه ما آلت إليه الأحوال في البلاد. حكتْ لي عن أغانيه الوطنية وتلك العاطفية وقد امتزج عنده العشق بالنضال دون أن يتيح لعشاقه رؤية المسافة الفاصلة بينهما.

نشوة سلمى الطاغية حملتنا إلى منتصف الدائرة، بدأ الآخرون يشاركونها هذا الإحساس بالتوقف عن الرقص وتشجيعها على الاستمرار. شعرت بُالعيون المزدحمة على فتنة سلمى، فطوّقتها كرجل يباهي بأجمل أشيائه، في الحقيقة كنت أكثر منه طفلاً يرفض أن يجود بحنان أمه لآخرين.

كنتُ لا أزال ذلك الطفل، وقد حُرم تماماً من ذلك الحنان.

«أرجو ألا تكون القهوة قد فاتتني».

خرجتُ من شرودي مع صوت كارلا. لا أعرف لماذا شعرتُ بالارتياح لقدومها، ربما وجدتُ ذلك دليلاً على قبول اعتذاري، لكني في المقابل كنتُ أنتبه للمرة الأولى لابتسامتها الحانية.

بذلتُ جهداً لإخفاء شعوري فكفتني أمّ أوّاب العناء بترحيبها الكبير بكارلا.

تركتنا أمّ أوّاب لتعدّ قهوتها فبقينا بمفردنا إلا من صوت أحمد المصطفى الذي اكتفتْ أمّ أوّاب بخفضه قليلاً. لم أكن أملك شيئاً أقوله، لاحظت الفتاة ذلك فابتدأت الحديث:

«أعجبني اهتمامك بوضع الأهالي في المخيم رغم أنك حديث عهد به».

ملأتني عبارتها بالدهشة. لم أقوَ على إخفاء استغرابي لمعرفتها ذلك، فواصلتْ حديثها وهي تسترق النظر لقصاصة صغيرة:

«اطلعتُ على ملفك، شيء غريب استوقفني فيه ولم أستطع فهمه، لماذا لم تقدّم على طلب اللجوء حتى الآن؟».

عادتْ أم أوّاب بالقهوة فخلّصتني من ورطتي مع كارلا.

«أها كيف كان الشغل الليلة؟ أنا مبسوطة منك عشان قاعدة تساعدي الناس المساكين ديل».

بدا أنّ أمّ أوّاب أرادتْ أن تُنسي كارلا تعليقي بالأمس، غير أن إجابتها أوضحتْ عكس ذلك:

«كان جيداً. ما زلنا نحاول جهدنا وأعرف أن ما نقوم به غير كافٍ، خاصة أن معاناة اللاجئين لا تتوقف عند الغذاء والدواء، بل

تتعداهما لتجاهل إرتريا وانشغال السودان، ونشاط العصابات وتواطؤ الأمن في البلدين. حالياً تضغط مفوضية اللاجئين لإنجاح فكرة دمج المخيمات مع القرى المحيطة بها، رغم رفض أهالي القرى هذه الفكرة لقلة مواردهم».

«بعض الجهد أفضل من لا شيء».

نطقتُ بهذه الجملة كاعتذار أخير، كنتُ في الحقيقة أستدرج رضاها، شكرتني بلطف ثم عادتْ لسؤالها من جديد:

«لم تخبرني لماذا لم تطلب اللجوء حتى الآن؟».

«أنا كتير بكلمو، لكن هو طوالي مشغول، كمان الناس القدمو قبالو لي هسي ما أدوَهم الكرت الأصفر».

كعادتها دائماً ما تكون أمّ أوّاب إلى جانبي. خلّصني جوابها وحلّ محلّ حيرتي وبحثي عن إجابة مقنعة، لكنّ كارلا واصلت حصاري:

«إذا أردتَ، بإمكاني مساعدتك في الحصول على الكرت الأصفر».

اعتلتْ ملامحي الدهشة وكذلك أمّ أوّاب، فسارعتْ كارلا للاستدراك وهي تُرجع فنجانها الثاني:

«أقصد إذا أردتَ، بإمكاني إرشادك لأفضل الطرق في التقدم بطلب اللجوء».

«يسرّني ذلك حتماً. متى ما وجدتُ وقتاً سأخبرك».

أغلقتُ الباب بجوابي هذا، لكنّ اهتمامها المربك فتح أبواباً

في رأسي لم أعرف كيف أُغلقها، وهي التي ما فتئت منذ رأيتها أول مرة تقابل كل شيء هنا بلا مبالاة واضحة. دخل أمير فلحق بالفنجان الثالث، وتغيّرت معه وجهة الحديث.

«كيف هي الأوضاع في إرتريا الآن؟».

رمت كارلا بسؤالها ككرة لهب حارقة. التفتُّ إلى أمير فوجدتُ أثر مباغتة كارلا على ملامحه، ساد الصمت للحظات قبل أن تكسره أم أوّاب بجواب مقتضب وهي تقلّب فحم موقدها:

«ما بطّالة».

بدا أن أمّ أوّاب لم تُفلح في إنهاء الموضوع، فعادتْ كارلا بسؤال آخر:

«جيد.. هل يعني هذا أن بإمكانكم العودة قريباً؟»

«في أحلامنا فقط».

باغتنا جميعاً تعليق أمير، الذي أكمل حديثه وهو يعتدل في جلسته:

«لم يبْقَ هنا مَن ينتظر العودة. نحن نلومكم لأنكم تزورون المخيم مرة كل بضعة أعوام، حتى هذا لم يقم به أيّ مسؤول إرتري».

«ولا المعارضة يا ولدي».

ضغطت أمّ أوّاب على عبارتها كأنها ترغب في وضع حدٍّ للكلام، بينما لم أجد ما أقوله. وحدها كارلا كانت تنصتُ باهتمام، قبل أن تسأل مجدداً:

«ألهذا الحدّ هي الأمور سيئة؟ ربما كان جدي محقاً حين قال إن الإرتريين يحنّون لأيامنا».

«لا. ما للدرجة دي».

«بل إلى هذه الدرجة وأكثر».

كان أمير يرتجف وهو يردّ على أمّ أوّاب. شعرتْ كارلا بأن حديثها نكأ جراحاً، فبدتْ كمن يخفّفُ من وقعه:

«برأيي أننا لا نستطيع وضع الوطن في مقارنة مع الاستعمار، فالوطن مهما قسا هو جزء منا، مجرد التنكر له يشبه مريضاً يريد التخلّص من وجع يده بقطعها».

لم ينطق أحد، فزاد حرج الفتاة:

«أنا آسفة، يبدو أن أسئلتي لم تكن في محلّها».

استأذنتْ كارلا للحاق بعملها بعد أن انتزعت ابتسامة من أمير الذي أكّد لها أن لا شيء في أسئلتها. سادَ الصمت لبعض الوقت قبل أن تلتفت أمّ أوّاب لأمير وهي ترجوه ألا يتحدّث عن الوطن بسوء أمام الغرباء.

لا أعرف كيف تصون هذه العجوز إيمانها بالوطن كل هذه السنوات؟ لا أعرف من أين تُغذّي يقينها، وهي تتقلّب في العوَز؟

قبّل أمير رأسها وهو يعترف بخطئه، فمسحتْ على رأسه وهي تخبره ما فاته من حديثي مع كارلا.

«عظيم».

استغربتُ حماس أمير لفكرة استخراج الكرت الأصفر وهو

يعرف تماماً أنّ هذا ليس هدفي. لاحظ استغرابي فاضطر للشرح وهو يتأفّف:

«ألم يخبرنا الموظف الإداري أنّ موظفي المفوضية الكبار وحدهم من يستطيعون الوصول إلى سجلات اللاجئين في كافة المخيمات؟ كارلا هي من ستؤدي لنا هذه الخدمة».

كانتْ أمّ أوّاب تهزّ رأسها مؤيدة، فعرفتُ أن ما أخفيته عنها في النهار، أوصله لها أمير في المساء.

«وكيف سأطلب منها ذلك دون أن أحكي لها القصة، لا تقُل لي أننا سنعيد حيلتنا البليدة مع رجل الحماية».

بدا أنّ أمير لم يفكّر في هذا الأمر، لكنه سرعان ما اقترح أن نصارحها بالحقيقة:

«بدا لي أنّ الفتاة طيبة وستتفهم ظروفك، ثم إن هذا الأمر أسهل مئة مرة من استخراج الكرت الأصفر الذي وعدَتك به».

لم أستسغ فكرة أمير. غلب عليّ شعور بعدم الرغبة في إخبارها لم أفهم سببه. طلبتُ من أمير أن يجد لي مخرجاً آخر، لكنه ذكرني بأن هذه فرصة لا تعوّض وعادة ما تأتي هذه الوفود لأيام قليلة ثم تغيب لسنوات.

«ما رأيك إذن أن نتبادل الأدوار، أن تطرح عليها الموضوع بصفتك حبيب سلمى؟»

مثلي تماماً لم يفهم أمير سرّ تهربي من إخبارها بقصتي، لكنّه وافق في النهاية على مضض. طلبتُ أن نتحرك من فورنا، لكنه أقنعني بتأجيل ذلك لبعض الوقت، حتى يستعدّ لما سيقوله.

في طريقنا إلى المشفى الميداني كنتُ أسبقه هذه المرة، وأستعجله وأنا أرى قدمه العرجاء. مع الوقت كنتُ قد تجاوزتُ هذا الحرج، وأمير أكثر مَن ساعدني على ذلك.

كانتْ كارلا منهمكة في تقليب صفحات مجلد كبير، لمحتنا على مدخل الخيمة فتركتْ ما بيديها وأسرعتْ نحونا:

«هل جرى مكروه لأمّ أوّاب؟».

ارتبك أمير وهو يخبرها أنها بخير. عادتْ لتسأل إن كان أحد من الأهالي يعاني من شيء، فأعاد عليها أمير جوابه. صمتتْ في انتظار أن نخبرها بسبب مجيئنا المفاجئ، لكننا مثلها اخترنا الصمت. مضت لحظات قبل أن ينطق أمير ويزيح عنّي حرج الموقف:

«أردتُ أن أستشيرك في أمر حسّاس يخصني لا علاقة له بالطب، لكن يبدو أنك مشغولة الآن، سنعود في وقت لاحق».

همّ أمير بالتحرك لكني بقيتُ في مكاني. لم أشأ أن يتبرع بتفويت الفرصة وهو الذي صمّ أذني بالحديث عن الفرص الضائعة.

«لا عليك.. لست مشغولة وبالإمكان الاستماع إليك. هل تودّ أن نجلس بمفردنا؟».

أنهتْ كارلا جملتها وهي تنظر إليّ كي أتفهم الوضع وأترك لهما المكان. لم يكن هذا ما اتفقنا عليه. شعرتُ أنّ المرة الوحيدة التي اقترحتُ فيها فكرة عاد وبالها فوق رأسي. التفتُّ إلى أمير وكأني أنتظر منه ما يبقيني معهما، ففهمني أخيراً:

«لا. لا. الأمر ليس حسّاساً إلى هذا الحد، بإمكانه البقاء».

بدأ أمير مرتبكاً وغير مقنِع وهو يقصّ على كارلا حكايته المفترضة. كانت الفتاة تستمع باهتمام، بينما وددتُ أكثر من مرة أن أتدخل لأعدّل بعض التفاصيل. تجرّعتُ تشويهه لحكايتي، كان يتحدث عن سلمى ببرود قاتل، يصفها فيحطّ من جمالها إلى أدنى الدركات. كان يكرِّر أنها جميلة، و. . جميلة جداً، دون أن يصف بكلمة واحدة ذلك الجمال. كان واضحاً أنه يجتّر كلماته من خيال ضحل لم يجرّب العشق، أو الكذب على أقل تقدير. كانتْ كارلا تستمع وهي تنقّل نظراتها بينه وبيني.

«الأمر سهلٌ للغاية، سأسند هذه المهمة إلى أحد موظفي المفوضية. ربما سيتطلب ذلك بعض الوقت، لكني واثقة من إنجازه قبل مغادرتي المخيم بعد شهر. لا تقلق».

اندفعتُ بحماس ودون أن أشعر:

«شكراً، شكراً جزيلاً لك».

نظرتْ إليّ كارلا باستغراب فشعرتُ بتهوري، لكنّ أمير زاد الأمر تعقيداً حين اكتفى بشكري للفتاة وظلّ صامتاً كأن الأمر لا يعنيه.

عدنا إلى خيمة أمّ أوّاب ونحن نتبادل اللوم، كلٌ يلقيه على الآخر، لكني كنتُ سعيداً في داخلي بعدما أحسستُ بثقة كارلا في قدرتها على استجلاء الأمر.

(7)

زيارات كارلا إلى خيمة أمّ أوّاب أصبحتْ يومية، ومعها بدأتُ أقتربُ أكثر من الفتاة التي تداركتْ تعاظم يأسي بأمل جديد. كانت لا تكفُّ عن طمأنة أمير بقرب التوصل إلى سلمى كلما أعاد عليها السؤال تحت وطأة إلحاحي عليه، وكان أثر كلامها يتجاوز أمير ليغمرني بطمأنينة تضيء وجهي.

خلال ذلك، عرفتُ الكثير عن حياتها التي ومنذ التحاقها بالمفوضية لم تشهد استقراراً في مكان واحد:

«عملي أتاح لي الاقتراب من شعوب كثيرة، من همومهم ومعاناتهم. كنتُ أعتقد أني أعرف الكثير عنها وأنا هناك في إيطاليا، غير أني أدركتُ مدى جهلي. هناك هوّة بين الشمال والجنوب حتى في مقدار الحزن، الأحزان هنا أكثر قتامة وحضوراً».

كنتُ أُمطرها بالأسئلة عن الشعوب الأخرى، عن اللاجئين منهم على وجه الخصوص، وكنتُ أتوقف كثيراً عند المفقودين منهم.

«لا تخف، سنجدها».

بعثرني الارتباك أمام نظرة كارلا اللئيمة وهي تردُّ على سؤالي

بجواب مباغت. شعرتُ بها تعرّي حيَلي المتلاحقة بنظرة وحيدة، قبل أن تستثمر هذا الشعور وتوغل في إرباكي:

«هي حبيبتك، أليس كذلك؟»

بدت الأيام التالية لاعترافي أكثر راحة. تخلَّصتُ من احتجابي المربِك خلف أمير، وكشفتُ عن لهفتي أمام كارلا. كنتُ أقضي الساعات وأنا أحدّثها عن سلمى، شجّعني اهتمامها، ولهفتها للمزيد. كان شعوري تجاهها غريباً، كان مزيجاً من الإعجاب والحاجة، كنتُ معجباً بطريقتها في الكلام والضحك وحتى الغضب، دون أن يرتقي هذا الإحساس ليصبح شيئاً أكبر، وكنتُ محتاجاً لها وقد بدأتْ تخفّف جوعي العاطفي، دون أن تقضي عليه تماماً.

كارلا أيضاً لم تجد جواباً واضحاً حين سألتها عن سبب اهتمامها بي، وهي التي لا تمنح الآخرين هذا القدر من الاهتمام. اكتفتْ بأنني أثرت فضولها، قبل أن تستلطفني، ثم تتعاطف بشدة مع حكاية عشقي لسلمى.

سألتها عما بدا انطباعاً عاماً عن العاملين في المنظمات الدولية، الذين يطغى عليهم الاعتياد حتى يفقدوا، مع الوقت، شعورهم بمعاناة من يعملون على مساعدتهم. أجابت باقتضاب أن ذلك يحدث في كثير من المهن، ثم حرفت الكلام إلى وجهة أخرى، وجهة أجمل:

«ما رأيك أنْ نرسم سلمى، أنت بإحساسك، وأنا بريشتي هذه؟»

جهّزتْ كارلا أدواتها وانتظرتني على مدخل بياض اللوحة. كنتُ أصف لها سلمى بكلمات، بينما أغرق في كلماتي الخاصة:

«سلمى تميل إلى الطول، سمرتها صافية وشعرها أسود كثيف، على تخوم شفتها العليا شامة خفيفة، ولها لثغة ساحرة في الراء، عيناها لؤلؤتان لا تُملّ، في القلب منهما حدائق لوز. جبينها لا يكفُّ يحكي بشغف قصة ضياع العشاق، وعلى خديها حطّتْ حمائم الغرام وقد أنهتْ أطول الهجرات. يداها وطن دفء ينهي صقيع اغترابي، وعلى صدرها تنام الأمنيات غير عابئة بالمستحيل، ومن ضحكتها الصافية تجري ينابيع البهجة، ولحضورها ألق يصبغ الزمان والمكان، يُحيل لحظاتنا إلى ذاكرةِ عصية على الزمن. حين تأتي لا يعود شيء آخر أكثر سحراً ووهجاً».

قضتْ كارلا وقتاً في استحضار سلمى كما تسكنني، قبل أن تزيح عنها ستاراً وتكشف عن حبّي وقد تبدى أمامي في كامل نضارته. كانت اللوحة تشعّ روحاً وقرباً من سلمى.

اقتربت أمّ أوّاب من اللوحة وهي تمرّر يدها على ملامح سلمى:

«ما قايلة سلمى بتاعتك دي جميلة كده؟»

ضحكنا أنا وكارلا قبل أن نتوقف مع إكمال أمّ أوّاب لحديثها:

«كارلا ممكن أطلب منك حاجة؟ ارسمي لي أواب عليك الله؟».

ساد الصمت للحظات، قبل أن تفاجئنا كارلا باشتراط أن تستمع لأحمد المصطفى وهي ترسم، ضحكنا، لكنها عادت تقنعنا

أنها أصبحتْ تحبه حتى وهي عاجزة عن الإمساك بكل ما يقوله.

صدح أحمد المصطفى، فطوت كارلا لوحة سلمى، وشرعت في بياض جديد.

بدت أمّ أوّاب مبتهجة وهي تردِّد صفات ابنها الذي بدأ في التشكّل، تحلّقُ بملامحه، تصفه كأنه أمامها. كارلا أيضاً كانت مبتهجة وهي تجسّد خيال أمّ أوّاب، وتبعث فيه الروح، وكنتُ متعجباً من قدرة كارلا على منح الأحلام والآمال ألواناً وأشكالاً كتلك التي تسكن دواخلنا.

«خليهو باسم، عشان كل ما أشوفو يبتسم لي طوالي».

تسكب كارلا مزيداً من الألوان كي تطاول رغبة أمّ أوّاب، بينما أتأمل في صمت ذلك الشاب القادم من صبر العجوز المعتّق.

«خلي عيونه حزينة شوية.. شوية ما كتير.. حزن العيون مراية القلب النظيف».

تزداد مشقة كارلا للاقتراب من أوّاب كما تريده أمه، أو تراه، دون أن يقلّل ذلك من استمتاعها، بينما كنت أغوص أكثر في قدرة أمّ أوّاب على الاحتفاظ بالأمل طازجاً بداخلها، على تحييد مشاعر الفقد كي لا تطال نضارة أحلامها وأمانيها بعودة أوّاب.

«الوشم كمان ما ترسميه، السنين طالت ومسحت ليه كل عيوبه».

استغربتُ هذا الطلب، والوشم هو أقرب صفات أوّاب، وأكثرها صدقاً. لا أعرف إن كانت المرأة قد تخلّتْ عن الوشم

بعدما اقتربت من ابنها ولو عبر هذا البياض؟ أو أنها طلبت إزالته لتوسّع دائرة الاحتمالات، بعدما أصبح الوشم عائقاً ومقيّداً؟

لكنّ الذي أعرفه تماماً أن أوّاب لم يبتعد كثيراً طوال ما مضى من سنوات، وهو يسكن قلب هذه العجوز ووجدانها الحي.

حملتُ سلمى إلى خيمتي. للمرة الأولى ألاحظ جذع الحناء الذي أهدتنيه أمّ اوّاب وقد انتصب واكتملت ملامحه. علّقت اللوحة، فاحتلّت ابتسامة سلمى كامل المسافة فوق رأسي. شعرتُ بها أقرب من أي وقت مضى، وعلى غير العادة غاب الأرق وحلّت محله نشوة استيقظتُ على آثارها وهي تضوع في المكان.

(8)

«ليتكِ تبقين أكثر».

«سأفعل، لكن ابتداء من الغد».

لم أفهم حديث سلمى وهي تغادر مَرسى فاطمة بعد لقاء مرّ سريعاً، كعادة أوقاتي معها. جاء الغد وحمل معه سلمى مبتسمة وهي جالسة على أريكة حمراء وفستانها الأبيض يتمدَّد بدلال ليَطال شيئاً من سجاد البيت:

«بهذه الطريقة سأبقى معك أكثر».

دسستُ الصورة في جيبي كأغلى الأسرار. في طريق العودة كنتُ أُخرجها لأسرق منها لحظات قبل أن أُعيدها إلى الجيب، وسرعان ما أعود إلى السرقة من جديد. وضعتها إلى جانب سريري قبل أن يرشدني جبريل لتكبيرها فاحتلّتْ واجهة الغرفة التي كانت خالية إلا من سرير، فغدت مزدحمة بسلمى، وابتسامتها، والأريكة الحمراء، والفستان الأبيض وقد تمدد على سجاد البيت.

«لم يكن بيتي مبهجاً قبل أن تدخله ابتسامتكِ كالأمطار، فتحيله موطناً للفراشات».

«وماذا سيحصل فيه إذن حين أحلّ مكان الصورة؟»

كانت تلك هي أول إشارة إيجاب تردّ بها سلمى على عرض الزواج، قبل أن تنداح الأمنيات:

«أتمنى أن أقيم زفافي في مَرسى فاطمة، أن أفرش حجارته بالورود من إندا ماريام إلى الخلفاء الراشدين، أن يحضره سكان الحي الطيبين، ليشهدوا مآل حكايتنا بعد أن كانوا شهوداً عليها منذ البداية».

غرقتْ سلمى في أمنياتها وأغرقتني معها. كانت تخيط أحلامها بمغزل رغباتي فنرتدي معاً قماشاً متشرباً بالعشق حتى آخره. كانت تهيم بتفاصيل الليلة الحلم، تنظم أحداثها ساعة بساعة دون أن يفقد إيقاع الفرح وتيرته:

«سأحيل مَرسى فاطمة إلى عاصمة للحب، سأرقص على أنغام هيلين تارة، وعلى ما تختاره لي من أغاني فنانك تارة أخرى».

مثلي أحبّت سلمى موسى صالح، الذي كان واجهة لأغاني التغري، دون أن يكون هذا أقوى أسباب حبنا له. صالح الذي كان أمّياً، كان لا يكفّ عن شراء نسختين من الطبعة العربية من صحيفة إرتريا الحديثة ويتجول بها منتشياً في كمشتاتو، حتى إذا زادت سخرية رفاقه منه جاءت إجابته الهادئة لتسكب عليهم ماء بارداً:

«أشتري نسختين كل يوم، حتى لا يأتي من يتعذَّر بعدم رواجها ليوقفها».

كنتُ منتشياً في طريقي إلى السوق وأنا أسترجع أيامي مع سلمى. خطر لي العودة واصطحاب اللوحة معي غير أني عدلتُ خجلاً من الباعة والزبائن. لاحظ أمير نشوتي، فبادرته بالقصة قبل

أن يتطاول فضوله، فمال عليّ ضاحكاً:

«أتمنى ألا تأخذك اللوحة منّا فتحيلك إلى راهب لا يغادر صومعته.. بالمناسبة لا بد أن ننتهي من أعمالنا باكراً حتى نجهِّز لزفاف إبراهيم الحلبي».

قبل حلول المساء، كان أمير وبعض أصدقاء العريس قد انتهوا من تعليق أسلاك الإنارة التي أحالت المكان إلى هالة ضوء ساطعة، قبل أن يسرع لارتداء جلابية وعمامة اشتراهما خصيصاً لحضور زفاف صديقه، وأهداني أخرى مماثلة. عرجنا في طريقنا نحو أم أوّاب التي كانت في كامل زينتها بثوبها النيلي، وإلى جوارها كارلا التي نقشت يديها وقدميها بالحناء، وارتدت هي الأخرى ثوباً محلياً يميل إلى الأصفر أظهرها فاتنة.

«يبدو أن أم أوّاب اعتنت بكِ جيداً».

سابقت كارلا ضحكاتنا لترد عليّ بالطريقة ذاتها:

«ما فعله أمير معكَ لا يقلُّ عن هذا أبداً».

بلغنا الساحة المُضاءة، فبدت النساء بأثوابهن كنجمات ملونة تختال في ليل المخيم. اخترنا مكاناً قريباً، دوّت الموسيقى والزغاريد، فقدِمَت العروس في فستان يعلوه ثوب حريري أحمر مطرز بخيوط ذهبية، و«جدلة» تتوسط رأسها، وتحيط بها جنيهات ذهبية، بينما تتدلى «الحريرة» من معصمها الأيمن، وتنتهي بخرزة زرقاء لافتة. تتهادى العروس في مشيتها محاطة بعائلتها، والعيون تكاد تبتلعها، حتى بلغت «العنقريب»، فجلستْ في جانبه المفروش «بالقطيفة»، وهي تفرك الخرزة، وتسترق النظر إلى الحضور.

بدت كارلا في غاية السعادة وهي تتبع طقوس الزفاف، وتحاول مشاركة الأهالي في إطلاق الزغاريد دون جدوى، ثم ازداد حماسها مع قدوم العريس مع والدته، وهو يرتدي «السرتي» الفاخر، وتحيط بمعصميه أساور فضية، ويلوّح بسوط وسيف مذهَّب بانتشاء بالغ، يهتز معه هلال ذهبي يتوسط جبهته ومربوط إليها بشريط أحمر. دار العريس دائرة كاملة وهو يلوّح بسيفه للحضور حتى عاد وجلس إلى جوار عروسه، قبل أن يرفع عن وجهها الخمار.

«إبراهيم صديق قديم، وُلد في المخيم، توفي والده قبل عامين، وهو يتزوج بمريم المولودة أيضاً في الشجراب».

كان أمير يتحدث عن صديقه بحب وسعادة، قبل أن يخبرني ببدء طقوس «الجرتق».

تقدمتْ أمّ أوّاب وهي تحمل «الضريرة»، تفوح عطورها، حتى أصبحتْ في مواجهة العروسين، غمست يدها في الضريرة وأخرجتها بنية غامقة، صبغت منتصف رأس العريس، ثم مقدم رأس العروس، قبل أن تعود لتحمل إناءً لم أتبين ما بداخله وضعته أمام العروسين، فأدخل العريس يده وأخرجها مليئة بقمح وبلح ناولهما للعروس، التي بدورها أعادتهما إليه. تكرر هذا الأمر سبع مرات، قبل أن يقوم العريس بنثر القمح والبلح على الحضور. تقدمت بعده امرأة وهي تحمل كأسين من اللبن، شرب العروسان منهما ثم بدآ فيما يشبه اللعب، التراشق باللبن. علمتُ من أمير أن ذلك تيمّن باللبن لحياة بيضاء دون مشاكل، وأن أول من يبدأ رشّ اللبن تكون له السطوة في البيت.

ملتُ على أمير مستغرباً ألا أكون قد رأيت هذه الطقوس في إرتريا، وقد حضرتُ الكثير منها، فابتسم وهو يجيب:

«هذه طقوس سودانية بالكامل».

ظننتُ في البداية أن العروسين سودانيين، قبل أن يواصل أمير شرحه:

«مع الوقت، «تسَوْدَن» المخيم، بناسه وطباعهم وأفراحهم وحتى أحزانهم، فلم نعد نرى عروساً تلبس الثوب الأبيض لأنه في السودان حكر على المآتم. قليلون احتفظوا بما قدموا به، لكنهم يبدون أقل تحضراً».

عدتُ إلى الزفاف وقد أصبح أكثر صخباً، بعد أن بدأ العروسان في الرقص تحيط بهما دائرة كبيرة. كانت العروس تتلوى وتثني جذعها إلى الخلف، بينما العريس إلى جوارها يرقص بلامبالاة وعينه على عروسه.

«إبراهيم»..

صرخ أمير، التفت العريس نحوه، فبادرت العروس بالسقوط، رغم محاولات إبراهيم الإمساك بها، وسط صيحات الحاضرين وزغاريدهم. وحدها كارلا أصيبت بالذعر. نهضت العروس وقد اكتست ملامحها بالزهو، بينما يشير إبراهيم بيده ويتوعد أمير الذي مال عليّ ضاحكاً:

«وقع العريس في الفخ من المرة الأولى، ظننته سيصمد لمرتين أو ثلاث ويتجاهل محاولاتنا لإلهائه. هذه الرقصة/ اللعبة بمثابة التحدي بين العروسين، وكما رأيت يتواطأ الجميع لكي تفوز العروس».

ليتها تفوز دائماً.

هكذا حدّثت نفسي المحتشدة بأجواء الزفاف الذي تمنيناه أنا وسلمى.

«لن يتركونا نتزوج ما لم أذهب إلى ساوا».

بمرارة أخبرتني سلمى أن قانوناً جديداً صدر، يقف حائلاً بين الفتاة والزواج بتعقيدات كثيرة تحوّل حياتها إلى جحيم وتدفعها دفعاً للالتحاق بساوا، وأن ذلك يعني أعواماً من انتظار شيء قد لا يأتي.

«ما الحل إذن؟».

لم أكن أنتظر شيئاً، وأنا أرمي بسؤالي هذا. أطلقته كتنهيدة حارقة، قبل أن تحرقني. وحدها سلمى كانت تبحث عن الجواب، حتى وجدته:

«نتزوج سراً».

لم أكن حاضر الذهن للوهلة الأولى، وأنا أستمع لسلمى، غير أن ملامحها الجادة استفزت انتباهي، وهي تضيف بتصميم:

«وحالاً».

فشلتْ كل محاولاتي لإقناع سلمى أن رفضي لفكرتها لا يعني عدم رغبتي الاقتران بها. بدوت عاجزاً أمام منطقها الصارم، في تحدي عجزنا. كانت تنظر إلى الأمام بمعزل عن كل ما يحيط بنا.

«ووالدتكِ؟»

«أنا كفيلة بها».

تضاءل منطقي أمام إصرار سلمى. طلبتُ منها أن نؤجل

التفكير في الأمر لبعض الوقت. مرّت أيام، فعادت إليّ أكثر إصراراً. نقلتُ الفكرة إلى جبريل، فباركها بحذر:

«احرصا على ألا ينكشف الأمر، حتى لا تعاقَب أنت بالسجن».

لم يمر شهر على زواجنا الذي شهد عليه جبريل وشخص آخر من طرفه، حتى أخبرتني سلمى بملامح مضطربة أنها حامل، وأن ذلك جاء عرضاً. كانت تخشى أن أظن أنها تعمّدت ذلك كي تنال إعفاء من ساوا:

«لو انكشف أمري، سأخبرهم أن والد الطفل تركني وغادر إلى وجهة غير معلومة. لا تخَفْ لن يصلوا إليك».

اضطرب داخلي بمشاعر متناقضة. كنتُ فرحاً وخائفاً ومتوتراً. كنتُ مشوشاً أمام سعادة سلمى التي تحاول إخفاءها حتى تستبين ردة فعلي.

«على العكس.. أنا سعيد للغاية».

ما إن قلتُ ذلك بتردد، حتى كشفتْ سلمى عن سعادتها الطاغية. كانت تعيش اللحظة بكل جوارحها، وكنتُ معلقاً بكل هواجسي فيما سيأتي.

«سأدع لكَ أمر تسميته لو كان ذكراً، وسيكون اسمها فاطمة لو كانت أنثى».

واصلتْ سلمى انهمارها، بينما بدأتُ شيئاً فشيئاً أنشغل أنا أيضاً بهذه اللحظة الكثيفة، بالعودة عن الغد بكل هواجسه، إلى لحظة سلمى:

«سأدع لك أمر التسمية، سواء كان ذكراً أو أنثى».

كنتُ بهذا أُسلّم لها بقيادة هذا العالم/ اللحظة. أعترف لها بالفضل الذي أغرف منه فرحي وبهجتي. أضع حداً للتفكير فيما سيكون، على حساب ما هو كائن. أتحرر من الغد، طالما أنا سيّد يومي.

في طريق العودة بدت كارلا أكثرنا سعادة، كانت تشكر أمّ أوّاب التي أتاحت لها حضور الزفاف، بينما بدتْ أمّ أوّاب في شغل آخر:

«والله أتمنى إبراهيم وأمه يرتاحو خلاص».

طوال الطريق أخذت أم أوّاب تحكي لنا قصة إبراهيم علي، وهذا هو اسمه الحقيقي، بينما أُلصق بوالده لقب الحلبي إمعاناً في إذلاله.

طوال وجوده في المخيم عانى والد إبراهيم من بشرته البيضاء. كان الأهالي يحتقرونه ويعاملونه بازدراء بالغ. طرق أبواباً عديدة للزواج دون أن يجد مَن يقبل به، حتى قبلت به «سعيدة» اليتيمة، شديدة السواد، والتي كانت هي الأخرى تعاني بسبب لون بشرتها القاتم. وقد سعى والد إبراهيم لهذا الزواج بكل طاقته، كي ينجب ذرية ليست بيضاء ولا سوداء، وهو ما حدث مع إبراهيم الذي نجا من بياض والده وسواد أمه، ليصبح مقبولاً بين الناس.

«ليس هناك لون قبيح، هناك لون لا نقبل به».

بدتْ كارلا مندهشة، قبل أن تعلّق بشيء من الجدية، لكنّ أمّ أوّاب التفتت إليها بما يشبه التبرير:

«العادات دي جاتنا من العاصمة».

«من أسمرا؟» سألتها مستغرباً.

«لا. من الخرطوم».

(9)

صحوتُ متأخراً، فأسرعتُ صوب السوق. في الطريق مررتُ بالمشفى الميداني فلم ألمح كارلا، ولم أتوقف لأسأل عنها. حين وصلتُ فوجئتُ بها تقف مع أمير. بدا الارتباك على الاثنين، وسرعان ما طلب أمير منها المغادرة بحجة الانشغال.

«أراكَ حين تنتهي من عملك».

لوّحتْ لي كارلا وهي تغادر مسرعة. استفسرتُ من أمير عن سبب زيارتها ومغادرتها بهذا الشكل، فتهرّب من الإجابة، سألته إن كان للأمر علاقة بسلمى، فأقسم بالنفي، قبل أن يعترف أخيراً:

«أمّ أوّاب أخبرتْ كارلا بقصتي في سيناء، وجاءت لتعرض عليّ المساعدة.. هذا كل شيء».

مضى النهار سريعاً، فعرضتُ على أمير مرافقتي لخيمة أمّ أوّاب لكنه اعتذر على أن يلحق بي حال فراغه. قصدت المشفى فلم أجد كارلا فخمّنت أنها سبقتني إلى أمّ أوّاب.

«أصبحتُ أغار منكِ وقد استأثرتِ بهذه المرأة الحانية».

ابتسمتْ كارلا بفتور بينما جاء الرد من أمّ أوّاب وهي تتجه لطرف الخيمة:

«الله يخليكم، كلكم أولادي».

عاودتُ شكر كارلا على اللوحة، فردّت باقتضاب قبل أن تأخذ الحديث إلى وجهة أخرى:

«هل اخترتَ سلمى، أم أنك تعثّرت بها وحسب؟»

كان سؤال كارلا محيّراً، ولم يخطر ببالي من قبل. بقدر ما كان مقتضباً شدّني إلى أعماقه وأنا أبحث عن إجابته.

«أحببتُ سلمى دون أن أشغل نفسي بالأسئلة. أحببتها وتركتُ كل شيء آخر خلفي. لم أكن معنياً بتفسير مشاعري، بقدر ما كنتُ مشغولاً بعيشها، بالانغماس فيها إلى آخري. كان التوقف عن الارتواء لفهم دواعي العطش نوعاً من الترف لم أصل إليه».

«لن ترتوي ما لم تعرف سبب عطشك، فقد يموت من الظمأ من يجاور البحر الفسيح».

رمتْ كارلا بجملتها تلك والتفتتْ تجاه أمّ أوّاب التي كانت تدعونا لمرافقتها إلى المقبرة.

في الطريق كان لا يزال سؤال كارلا يرنُّ في أذني، أتجاهله فيعاود تطويقي بإحكام، إلى أن بدّده جلال الراقدين. كفّتْ كارلا عن الحديث وارتدتْ شيئاً من رهبة المكان. تركتنا أمّ أوّاب إلى رفاقها، كانت تتنقل بين القبور على مهل، تمسح بيديها على الشواهد، تتحدث إليها وكأنها تخفّفُ من وحشة أصحابها. التفتُّ إلى كارلا فوجدتها غارقة في تتبع أمّ أوّاب.

«تعثّرتُ بها. لكنّ هذا لا يغيّر من الأمر شيئاً، فأجمل أقدارنا تلك التي تباغتنا دهشة وبهاء. وسلمى قدري الأجمل وعشقي العظيم».

«لا أعرف لماذا كلنا نريد عشقاً عظيماً يفوق طاقتنا، ولا نقنع بحب عادي حتى لو كان كافياً؟ ألا توجد طريقة أخرى لنبدو أكثر فرادة؟»

كاللكمات كانت كلمات كارلا، وأنا أتلقاها دون أن أحمي نفسي. كان هجوماً مباغتاً فاضحاً ومستفزاً، لم أكن مستعداً له. اكتفت كارلا بنظرة سريعة نحوي بعد أنهت تساؤلاتها، وعادت إلى أمّ أوّاب التي كانت لا تزال تطوف على القبور كغيمة رحيمة.

«لا أدري لماذا أشعر أنك تقلّلين من عشقي لسلمى؟ لا أدري حتى لما هذا التعالي على العشق؟ ألا توجد طريقة أخرى لنبدو أكثر حكمة؟»

ضغطت على سؤالي الأخير وكأني أرد اللكمة بمثلها، لكنّ كارلا التي خرجتْ من انشغالها بأمّ أوّاب تحت وقع حديثي الحاد عادتْ إليّ بنبرة أكثر لطفاً:

«لا. لا أقلّل أبداً من مشاعرك، بل أراها جميلة وجارفة، لكنّي أريدك أن تضع اعتباراً للجانب الآخر من الصورة، فكما تفاجئنا أشياؤنا الجميلة بالمجيء، قد تفعل بالغياب».

«هل علمتِ شيئاً بخصوص سلمى؟»

قطعتْ أمّ أوّاب حديثنا وقد عادت متّشحة بحزن نبيل، فبادرتْ كارلا لمساعدتها على اجتياز عتبة المقبرة العالية:

«لا يغادرُ الأحباب متى وجدنا طريقة أخرى لإبقائهم.. لا يغادر الأحباب أبداً متى ظلّوا كذلك».

لا أعرف إن كان حديث كارلا موجهّاً فقط إلى أمّ أوّاب التي

أيّدتها بهزّ رأسها، قبل أن تعقّب في الاتجاه ذاته، ثم أمسكتْ بقلادتها وهي تميّز بين حبات الصدف والحلقات الذهبية، وبدأتْ في الحديث عن القلادة.

كلما أجبرها العوز، كانت أمّ أوّاب تلجأ إلى بيع إحدى حلقات قلادتها الذهبية، واستبدالها بأخرى من الصدف، حتى لم يبق من الحلقات إلا القليل، وكانت تعتقد أنها ستغادر الدنيا وتلحق بأحبائها مع آخر حلقة ذهبية في قلادتها.

عدنا إلى الخيمة، كان أمير ينتظرنا. سارعتْ أمّ أوّاب لإعداد القهوة، بينما اختلت كارلا بأمير لبعض الوقت قبل أن يعودا ليجداني أحترق بأسئلتي. أعدتُ سؤالي على كارلا فالتفتُّ نحو أمير الذي بدا مرتبكاً وكأنه المعني بالإجابة. سألته إن كان يعرف شيئاً، فأقسم مجدداً بالنفي، حتى جاءت الإجابة من كارلا أخيراً:

«لم نجدها في المخيمات، لكنّ هذا لا يعني أنها ليست في السودان. قد تكون تسرّبتْ إلى كسلا. قد تكون في الجوار في إحدى القرى المتناثرة حول الشجراب، أو أنها تسلّلتْ إلى الخرطوم باسم مستعار بحثاً عن أمان أكبر».

كنتُ قد توقفتُ عند كلماتها الأولى. على عتبة الوجع الأولى خلعتُ قلبي ومشيتُ حافياً على أحرف كارلا الحادة وقد تلحّفتْ بالملح. ارتطم وجهي بعتمة آخر النفق وقد كنتُ أنتظره مسكوناً بالضياء. تناثرتْ ملامحي على رصيف بارد هجره الانتظار.

«لا تستسلم، تمسّك بما تبقى من الأمل».

لا تدرك كارلا معنى أن يصل شخص إلى حافة الإنهاك، أن يفقد القدرة والرغبة في التشبث بأي شيء قد يخفف من وخز

مواجعه. لا تدرك كارلا معنى أن يكون الأمل كسكين في الخاصرة، كلما حرّكتها أوغلتْ في تمزيقي. لا تدرك كارلا أن الموت تسبقه انتفاضة، وقد استنفدتُ كل انتفاضاتي منذ أمد.

«لا تتصرف وكأنك بلغتَ آخر الطريق، من يعلم فلربما ما زلت في أوله».

ذاك وجع آخر. أن ينقضي عمر وأنا أراوح في حزني دون أن أصل إلى منتهاه، أن أعبر التيه لأصل إليه، أن تتعاظم مسافات الجرح لتبتلع خطواتي، وتخفي آخر أثر تركته خلفي.

ما أقسى أن ينكأ الجرح نفسه قبيل التئامه، أن يتلذّذ بالتمدد في كل الاتجاهات كمن أضاع بوصلة شفائه، أن يُعرف أوله، دون أن يكون له آخر.

ما أقسى أن يفقد شخص الرغبة في الالتفات خلفه، في المرور على هزائمه وقد أفرغها الوقت من الأسى، وأفقدها النسيان مرارتها الأولى. وحدهم المنتصرون يفعلون ذلك، أمّا البقية فتلتصق الخيبات بظهورهم كوشم لا يبتعد مهما أوغلوا في الهروب إلى الأمام.

وما أقسى ألا أملك خياراً آخر.

ما أقسى أن أفتقد الإحساس بالذنب، وحدها الشفقة أتسربل بها من رأسي إلى أخمص وجعي. أن تذنب يعني أن تجد مساراً للرجعة، للأوبة بقلب أرحب، وروح لا يشغلها الطين، لكنك حين لا تفعل تفقد آخر فرصك في اكتشاف طريق أخرى توصلك إليك. إلى سلمى.

(10)

هُزمت . .

لـم أكـن أعـرف قبـل اليـوم معـنـى أن يـسـيـر رجـل وهـو يـجـرُّ هزائمه، أو يحملها على ظهره كآخر ما يملك. معنى أن يتدثّر بها فينخر الصقيع روحه، أو يخلعها فلا يبقى من ملامحه شيء. لـم أكن أعرف قبل اليوم معنى أن تتراكم الهزائم حتى تدفن كبرياءه ورغباته، وما تبقّى من آمال كانت عظيمة.

أن تكون رجلاً مهزوماً يعني ألا تنتظر شيئاً. أن تتخلى طواعية عن كل راياتك، فلا تغدو لك وجهة. أن تكفر بكل احتمالات النصر، حتى تلك التي لا تكلّف شيئاً. أن تُصبح مُنهكاً، مُستسلماً، ومُترعاً بالخذلان.

الهزيمة تُفقدك توازنك، تطرحك أرضاً. تحرمك لذة الدهشة، وشهوة الاكتشاف. تقتل فضولك فتنكفئ على ذاتك المنكفئة أصلاً على أحزان قديمة. الهزيمة تُبقي على ملامحك، لكنها تسلبها الإحساس، فتغدو باهتاً فاتراً ومشدوهاً. الهزيمة تحصر اختياراتك في أكثر الأمور مرارة، فلا تعود مترفاً بما يكفي لاختيار أقلها سوءاً.

وأنا الآن أتجرّع المرارة دون أيّ خيار.

يمضي الوقت في خيمتي وقد تغمّس بالكدر. يطلع الصباح

فأنتظر رحيله، دون أن يأتي المساء بجديد. عبثاً باءت محاولات أمير لإخراجي من عزلتي التي اخترتها هرباً من كل شيء، حتى نفسي. كنتُ كمَن يهرب من الألم إليه. ضجيج رأسي أنهك روحي التي تتلمّس موطن سلام تركن إليه دون جدوى.

صورة سلمى المعلَّقة أمامي، بدت كصليب يشتهي وضع حدٍّ لعذابي بعذابات أكبر. أمعن النظر فيها فأمتلئ بمرار يزحف على روحي الذاوية ببطء قاتل، ويقتلع في طريقه كل رغبة في الحياة. أُشيح بنظري عنها وأُطرق في الأرض فيرتدّ المرار إلى حلقي بقوة تصيبني بالاختناق. أُعاود الاستسلام لحديث رأسي.

«إذا فكرتَ يوماً في تركي سأقتلك، لن أنتظرك حتى تفعل ذلك».

ضحكتُ حينها وأنا أشاهد الغيرة تتربع على ملامح سلمى، لم أكن أعرف معنى الموت قتلاً على يد امرأة، لكني اليوم وقد عرفت، لا يزال جهلي يتعاظم بجريمتي التي استدعت كل هذا الموت الكثيف.

لم أكن أملك سبباً واحداً لموتي المتكرر هذا، أو حتى لحياتي التي انتهت صلاحيتها قبل أن تبدأ. كنتُ فارغاً إلا من جهلي الذي يفاقم ألمي بإصرار دؤوب.

كانت سلمى لا تزال تبتسم.

فكرتُ في تمزيق الصورة، في بعثرتها إلى أجزاء متناهية الصغر، بحيث لا يعود ممكناً إعادتها لهيئتها الأولى، تلك الهيئة التي لا تتورع عن نبش الألم داخلي كلما ركن إلى خدر ما. فكرتُ

على الأقل في إخفاء ابتسامتها التي لا تناسب حالي، في طمسها ولو مؤقتاً حتى أتمكن من فهمها في هذا الجو الملبّد بالقتامة. ولم أستطع.

كان العجز يسربل روحي وأطرافي، كنت عاجزاً حتى عن إظهار هذا العجز، بعد أن تبخّرت دموعي وتركت الكثير من الملح خلفها.

«هل أستطيع الدخول؟»

تجاوز صوت كارلا الكثير من حواجز الملح حتى وصل إليّ خافتاً حذراً. لم أكن أقوى على الرد، رفعتُ رأسي ونظرتُ إليها، قبل أن أعود تحت وطأة رأسي الثقيل إلى الإطراق في الأرض. كنتُ أشعر بقوة ما تضغط على مؤخرة رأسي، تُبقيه على حالته تلك، في المقابل لم أكن قادراً على المقاومة، أو بالأحرى لم أكن راغباً فيها، على أمل أن تتساقط أوجاعي التي تملأ رأسي واحدة تلو الأخرى.

«هل أنتَ بخير؟».

كانت كارلا تعرف أني لستُ كذلك، لكنها أرادت بسؤالها فتح كوة في جدار الملح لتنفذَ منها إليّ. كان سؤالها يتجاوز حقول ألغام، ويرقى عتبات متراصّة دون انتظام ليصل سليماً معافى، قبل أن يرتطم في النهاية بوجهي المثخن بالخيبات.

«قلنا نجيك بالجَبَنة، لو إنت ما داير تجينا».

نفضني صوت أمّ أوّاب، وهو ينشر حنوّه في المكان بشكل باغت قسوة لحظتي. التفتُّ إليها فوجدتها تحملُ «الجَبَنة» بيدها

المرتعشة، بينما يقف أمير خلفها وقد حمل «الكانون» والفحم وكيس البنّ. رمقته بنظرة غاضبة، فتفادى النظر إليّ.

«ح تخلينا واقفين كده في الباب؟»

لم تكد أمّ أوّاب تنهي جملتها حتى حملتُ الجَبَنة، وانكببتُ على يدها أقبّلها، كنتُ أحوج ما أكون إلى يد الرحمة هذه تنتشلني من قاع حريقي، وتغمرني برداً وسلاماً.

قدوم أمّ أوّاب لم يكن محاولتها الأولى لإخراجي ممّا أنا فيه، فقد أرسلت لي راقياً، كان لسوء حظي هو الشيخ الذي نهرني عند مدرسة البنات.

اقتحم الشيخ خيمتي وبيده زجاجات بلاستيكية مملوءة بالماء، بينما أمّ أوّاب ترقبه من المدخل. لم أكد أفهم ما يجري حتى بدأ ما يشبه تدليكي وهو يردد آيات قرآنية بوتيرة متصاعدة، وكأنه يستحث شيئاً لا أعرفه. كان يضغط على مفصل يدي بقوة مفرطة، ويداري صراخي برفع صوته وهو يقرأ الآيات، قبل أن يمسك بإحدى الزجاجات ويرتشف منها، ثم يبصق الماء المخلوط بلعابه على يدي. انتقل الأمر إلى اليد الأخرى، ثم صدري، وأنا أدعو الله ألا يقترب لعابه من وجهي.

«فيها عين جارية». . «فيها عين جارية». . «فيها عين جارية». .

زاد حنقي، وأنا أراه يردد آية لا علاقة لها بما يعتقده عيناً. أردتُ إخباره، غير أن انشغالي بحماية وجهي استحوذ عليّ، إلى أن وقع المحذور:

«فيها عين جارية». . تفووو

لم يتركني الشيخ إلا حين أخبرته أني شعرت بشيء غامض يغادر جسدي عبر قدمي اليسرى. ابتسم بزهوّ وهو يرمق أمّ أوّاب التي سارعت لإخراج جنيهات معقودة بمنديلها، فغادر وهو يحمل زجاجاته وقد فرغت تماماً.

«لو كنّا نعرف أن قهوة أمّ أوّاب ستخرجك من حالتك هذه لما تأخرنا في الإتيان بها».

بالكاد ارتسمتْ على وجهي ابتسامة باهتة لحديث أمير. كانت روحي لا تزال تعود بشكل متدرج لا يسمح لي بالتفاعل تماماً مع ما يجري حولي، لكني في الوقت نفسه كنتُ غاضباً من أمير الذي أخفى عني خبر سلمى، وهو يعلم حالي.

بدأتْ أمّ أوّاب في إعداد قهوتها، وجلستْ كارلا إلى يميني، بينما انحشر أمير فيما تبقى من مساحة الخيمة إلى يساري. استغرق أمير بحماس في حكايات السوق التي حدثت في غيابي، بينما كنت نصف شارد، دون أن يفوتني تفاعل كارلا وأمّ أوّاب المصطنع مع حديث أمير بغية نشر جوّ من البهجة داخل خيمتي الكئيب.

أنهى أمير حكاياته، وهو يتفحص أثرها في وجهي، بينما ابتدرتني أمّ أوّاب بقهوتها. مددتُ يدي بتثاقل، فاهتزت لحرارة الفنجان الذي أمسكْته من وسطه دون انتباه.

«ولا يهمك، القهوة لمن تتدفق خير».

مدّت لي أمّ أوّاب بقطعة قماش وهي تحاول مداراة ارتباكي، قبل أن تعود إلى ملء فنجاني من جديد وتضعه أمامي هذه المرة.

تناولته وأنا أستجمع تركيزي وارتشفتُ منه رشفة سريعة، رفعتُ رأسي بعدها لأجد الجميع يصوبون أنظارهم إليّ وكأنهم أمام حدث استثنائي.

«سأرحل بعد أيام».

باغتتني كارلا بجملتها المقتضبة. ظللتُ ممسكاً بفنجاني دون أن أرفعه، أو حتى أعتدل في جلستي. كنتُ لا أزال أعيد عبارتها حرفاً حرفاً، وقبل أن أنتهي منها عادت إليّ بالمزيد:

«قضيتُ بينكم وقتاً جميلاً لن أنساه، سأحاول العودة متى كان ذلك ممكناً، لكني قبل ذلك أتمنى أن تنتهي المعاناة وتعودوا إلى وطنكم».

سيل الأمنيات التي سكبتها كارلا في أذني لم تخفِّف صدمتي. تملكني شعور غريب لم أستطع فهمه ولا تحديده. كنتُ أُدرك وجودها المؤقت في حياتي، لكنّ تآلفي السريع معه أكسبه معنى مختلفاً لا يجعلني أتقبل رحيلها بهذه السهولة. رفعتُ رأسي، نظرتُ إليها، نظرتُ في عينيها مباشرة، ولم أنطق، كنتُ أستجديها كي تبقى وألا تفاقم من شعوري بالفقد.

لم أكن مستعداً لأي فقْد آخر، كنتُ مجوّفاً وفارغاً بما يكفي لتكفّ أشيائي عن التساقط.

«والله ح نفقدك يا بنتي».

توغل أمّ أوّاب في استحضار الفقد، تسلّمُ به، تهيّئني له وتبني يقيناً جارحاً على أنقاض شكّي الذي كنتُ أحتمي به.

وكنتُ لا أزال أنظر إليها، في عينيها مباشرة.

«سنفتقدكِ حتماً».

خرجتْ كلماتي عرجاء مكبّلة بالتردُّد. خرجتْ كراية بيضاء يرفعها آخر الناجين وقد استنزفته المقاومة. سلّمتُ بالفقد قدراً يلاحق خطواتي أينما اتجهتْ، وطوقاً لا فكاك منه.

«أحببتُ أن أُقدم لك عرضاً قبل رحيلي».

كنتُ لا أزال تحت وقع الفقد حين جاءني استدراك كارلا. التفتُّ إلى أمّ أوّاب وأمير فبدت ملامحهما خالية من أي فضول، فأدركتُ معرفتهما بعرض كارلا التي لم تنتظر كثيراً:

«ما رأيك أن تعود معي إلى إيطاليا؟ هناك ستبدأ حياة جديدة وتضع نهاية لمعاناتك».

أربكني عرض كارلا، أربكتني أكثر ملامحها الجادّة وهي تنتظر ردي. كنت مشوشاً وغير قادر على استيعاب عرضها عوض أن أتخذ قراراً فيه. من جديد نظرتُ إلى أمير وأمّ أوّاب التي أدركتْ حالتي فاختارت أن تبادر بالكلام:

«وافق يا ولدي، سافر وفارق المكان الشوم ده، ما تبقى زينا».

التفتُّ إلى أمير فوجدته يحمل رأياً مماثلاً، وبحماس أكثر من العادة. بقيتُ شاخصاً في وجهه ففهم حاجتي للمزيد.

«لا أدري، ربما تكون إيطاليا مكاناً ملائماً كي تبدأ من جديد. كي تجد وطناً ولو بديلاً».

على الفور أعادني أمير إلى حديث كداني الذي لم أستطع نسيانه:

«الوطن البديل قد يُبقيك حياً، لكنه لا يمنحك الحياة. هو بالضبط كزوجة الأب، مهما بدت حنونة لا تنسى أنك من امرأة أخرى».

لكني فقدتُ وطني..

كنتُ كمن يجيب كداني، يرجوه أن يتفهم حالي.

«ماذا قلت؟ ليس أمامنا الكثير من الوقت».

حاصرتني كارلا أكثر. كانتْ حيرتي تتعاظم. نقّلتُ بصري بين الثلاثة فلم أخرج بشيء غير مزيد من الحيرة.

كان البقاء حُكماً بالموت في مكان لم أكن لأفكّر في المجيء إليه لولا سلمى، وكان السفر مغامرة جديدة إلى مجهول آخر لا أقوى عليها بعد توالي هزائمي وانتكاساتي. كنتُ في منطقة وسطى بين نارين دون أن يكون لي حق البقاء فيها إلى الأبد. كنتُ كمن يبحث عن خلاصه، بينما كل الطرقات تؤدي إلى عبودية جديدة.

«ها؟».

نزعتْ عني كارلا ترف ما تبقى من وقت، وضعتني تماماً أمام حتمية الاختيار بكل ما فيه من قسوة وحدّية. للحظة خطر لي أن المجهول قد يحمل في كنفه شيئاً مختلفاً، بينما أسفر الشجراب عن ملامحه كاملة، ولم يعد من سبيل لمفاجآت سارّة. التفتُّ إلى أمّ أوّاب وأمير قبل أن أعود إلى كارلا:

«سأغادر معكِ».

(11)

وضّبتُ حقيبتي الصغيرة وألقيتُ نظرة أخيرة على الخيمة. كانتْ لا تزال صورة سلمى في مكانها. ترددتُ كثيراً قبل أن أطويها وأدسّها بين أغراضي. كان لا يزال أمامي بعض الوقت قبل موعد مغادرتي المخيم، لكني آثرتُ الخروج.

وحدها نبتة الحناء تقف شامخة وسط أشيائي المنكسرة. ليتني كنتُ مثلها، لا أحفل كثيراً بالمكان، أينما وُضعتُ أرفع رأسي للسماء. ليتني كنتُ أكثر تحرراً وأقلّ ارتباطاً بكل ما يشدني إلى الأرض. أعدتُ سقاية النبتة للمرة الأخيرة، ومضيتُ. كنتُ كمن يهيئُها لقادم جديد بكل انكساراته.

بدتْ ملامح المخيم مختلفة وأنا أراها للمرة الأخيرة. تسرّب إليّ شعور بمفارقة مكان ممتلئ بالألفة. قادتني خطاي إلى خيمة أمّ أوّاب، المكان الذي خفّف كثيراً من غربتي، وجدتُ المرأة الصابرة في انتظاري، احتضنتني طويلاً، بكيتُ، فمسحتْ على رأسي، بكيتُ أكثر. لطالما غمرتني يدها بالطمأنينة، لكنها اليوم تُشعرني بفداحة خسارتي وأنا أغادر هذه الخيمة إلى الأبد.

قَدِم أمير وابتسامته الحزينة تغطّي وجهه، لا أعرف متى سينجو

فرح هذا الرجل من الاختلاط بحزنه المعتّق هذا؟ لم يمضِ وقت طويل حتى جاءتْ كارلا مبتهجة:

«كل شيء على ما يرام؟»

هززتُ رأسي وأنا أستلم منها مظروفاً ممتلئاً بأوراقي.

«أها عندكم وقت؟ أعمل ليكم جبَنَة أخيرة تتزكروني بيها؟».

جدّدتْ أمّ أوّاب مواجعي، فمنذ الصباح وأنا أتذوق طعم الأشياء في الشجراب للمرة الأخيرة، لم أكن مستعداً بما يكفي لمواجهة هذا الشعور، تذوق قهوتها للمرة الأخيرة. بعض الأمور لا ينبغي لها أن تنتهي، أن يكون لها مرة أخيرة، وهي بهذا القرب والتأثير.

تتسلل حميمية الأماكن إلينا ببطء، حتى تلك التي لا نشعر بودٍّ كبير نحوها، تستقر تحت جلودنا، تختبئ في زوايا قصية من وجداننا، حتى إذا حان موعد فراقها، خرجتْ في كامل زينتها لتخلق حالة تأبين مؤثرة.

«طُعُم بون».

شعرتُ بيد أمّ أوّاب أكثر ارتعاشاً وهي تأخذ مني الفنجان الثالث، حتى هي كانت تصطلي بإطرائي الأخير. نهضتْ كارلا فتبعتها. وقف أمير قبالتي وهو ينظر في عيني بحزنه المعهود قبل أن يحتضنني وهو يهمس في أذني:

«صدقني لم أكن أعلم بخبر سلمى..»

شعرتُ بصدقه يغمرني، طويت غضبي وابتسمت.

«انتبه لنفسك واترك أحزانك خلفك، لا تحملها معك، فالإيطاليون لن يجدوا وقتاً لمآسيك».

ضحك أمير وشاركته الضحك، قبل أن نسكت فجأة لنلتفت لأحزاننا. عدتُ إلى البكاء فعاد معي، لتتحول خيمة أمّ أوّاب إلى مفرخة للحزن.

صعدتُ إلى الحافلة المخصَّصة لبعثة المفوضية. اخترتُ مكاناً قرب النافذة وجلستْ كارلا إلى جواري. لم أرفع عيني عن أم أوّاب وأمير اللذين بقيا على مدخل الخيمة وهما يلوّحان لي بين الوقت والآخر.

كنتُ سارحاً باتجاه خيمة أمّ أوّاب حين استرعى انتباهي قادمون جدد وقد تسربلوا بوعثاء السفر؛ ثيابهم الممزقة، وأقدامهم الحافية وقد تيبّست حوافها. نظراتهم الهائمة لم تكن تقوى على الثبات، أعينهم الزجاجية يكاد يشطرها الخوف. كنتُ أنقّلُ بصري بينهم، دون أن أتوقف عند أحد، كنتُ أخاف أعينهم الخائفة. أخاف الحزن، أخاف قطرة أخرى منه، وأنا المترع به.

عين زجاجية أخرى تمر. هذه المرة لم أستطع تجاوزها. التقتْ أعيننا، فسرتْ فيَّ قشعريرة مربكة. أخرجتُ رأسي من النافذة، كان الرجل لا يزال ينظر إليّ، في عينيّ تماماً، قبل أن يبتسم ويشيح ببصره. كانت الابتسامة الغادرة نفسها؛ كان منجوس.

لم يكن يخطر ببالي أن ثمة شيء بإمكانه أن يخلع عن منجوس ملامحه القاسية المتغطرسة، ويلبسه ملامح المغلوبين، وهيئتهم،

وحتى مشيتهم المنهكة. لم يكن يخطر ببالي أنه قادر على ذلك، وقد قضى عمره كله يحمل سوطاً لا يهدأ.

تلاشى ما تبقى من كرهي لمنجوس. أصبحتُ أُشفق عليه، بعد أن فقد سوطه، وسلّم ظهره لجلاّدين آخرين. أشفقُ عليه، وهو مقبل على حياة لم يعتدها، لم يلمسها. أن تصبح جلاداً أسهل ألف مرة، من أن تكون مغلوباً، فحياة المغلوبين سامقة، لا يطالها كل أحد.

أُشفقُ على منجوس لأنه سيكون مضطراً لأن يحزن، والحزن دفق من ماء قديم، لا تناله كل أرض. أُشفق عليه لأنه قد يبكي، فينتبه متأخراً جداً لمقدار خسارته، وقد أضاع عمره دون أن يغسل روحه، دون أن يزيح عنها ما تراكم، حتى عادتْ شيئاً آخر.

أُشفق عليه أمام حجم فجيعته، حين ينكفئ على وجعه، فيعرف معنى أن تقترب منك، تختلي بك، وتعانقك. يا لفجيعة منجوس حين يُدرك حجم حرمانه منه، من ذاته الأولى، البعيدة، قبل أن تعتليها ذوات أخرى مشوهة.

«هل تعرفه؟»

بدا سؤال كارلا معقداً. هل أعرف منجوس؟ لا أعرف. ما أعرفه تماماً أنه للتو بدأ حياته الحقيقية، أو يكاد. وأنه بمجرد أن أصبح مغلوباً، منح مكانه لجلاد جديد، وحده هذا المكان لا يبقى شاغراً.

أخرجني أحد مشرفي البعثة من شرودي وهو يشرح طريق الرحلة:

«قبيل السفر إلى روما سنتوقف ليوم في كسلا ويومين في الخرطوم، طوال الطريق سترافقنا حراسة أمنية، لكن لا مانع من اتخاذ الحذر. قد نضطر للافتراق في كسلا أو في الخرطوم لأسباب مختلفة، لذا وتحت أي ظرف طارئ، لنعد في حال الافتراق إلى آخر نقطة جمعتنا».

انتفضتُ لجملته الأخيرة. من جديد أعادني حديثه إلى درس الكشافة الذي أخبرتني به سلمى. لا تكفّ هذه الفكرة تدور حولي من مكان إلى آخر. لا يُعقل أن يُلحّ عليّ أمر لأتعثر به مراراً دون أن يخصني، دون أن أكون معنياً به عن الآخرين.

نهضتُ من مكاني كالملدوغ، تجاهلتُ سؤال كارلا ونزلتُ من الحافلة، درتُ حولها حتى أصبحتُ مواجهاً للنافذة التي كنت أجلس قبالتها، كانت كارلا قد أخرجتْ رأسها تتبعني والذعر بادٍ في ملامحها.

«لن أذهب معكِ. . سأعود إلى مَرسى فاطمة».

رميتُ بجملتي تلك في وجه كارلا، وهرولتُ نحو الخيمة. تركتُ خلفي كارلا وهي تصرخ وتستوقفني. تركتُ أمير وأمّ أوّاب اللذين تفاجآ من تصرفي، تركتُ الشجراب بأكمله خلفي، ولم أكن أرى أمامي في تلك اللحظة غير مَرسى فاطمة.

مَرسى فاطمة 2

(1)

كنتُ أسير بخطى سريعة كتلك التي كانت تسبق لقائي بسلمى. مررتُ بخط سيري المعتاد نفسه، تجاوزتُ موقف الباصات ودرتُ دورة كاملة حول كنيسة إندا ماريام التي كانت تعجّ بالمصلين حتى تبدى أول مَرسى فاطمة. كان الشارع لا يزال يتفتح بغنج في يوم أحد وقد تخلى عن ضجيج الطلبة الصباحي.

لفحتني نسائم باردة أعرفها تماماً، كعادة الهواء حين يجد مسارات ضيقة. انثال حنيني للمكان طازجاً دون أن تُفقده الفترة الماضية نضارته وبهائه. بدا كل شيء في مَرسى فاطمة على حاله. لا، بدا أجمل، وكأنه طوال ما مضى من وقت كان يتجهز لمقدمي، لعودتي مثقلاً بالشوق ومبللاً بالحنين.

على مدخله صافحني الشارع بحرارة العشاق، ضمّني بولهٍ بادٍ على محياه، غمرني بالألفة حتى امتلأتُ فنسيت رهق أيامي السابقة، نسيت ساوا، ونسيت الشجراب الذي تركته على حاله مثخناً بالهموم والأوجاع. تركتُ كارلا التي كادت تغادر غاضبة قبل أن تعود لتودعني:

«أتمنى لك التوفيق، وأرجو أن يصبَّ قرارك هذا في خانة آمالك».

تركتُ أمّ أوّاب التي كانت أكثر الناس سعادة بخبر عودتي:

«ارجع يا ولدي، إنت لسه صغير».

تركتها وهي تعبثُ بقلادتها التي لم يبق فيها سوى حلقة ذهبية واحدة. تركتها وقد باحت لي بسرّها:

«أنا الحاجّة حليمة».

هزّني الأسى، والمرأة العجوز تخلع عنها آخر أمل ترتديه. صافحتني باسمها العاري أخيراً، وهي تتقلب في صقيع الفقد. بدتْ كمن يتنازل عن درعه وسيفه، ويسلّم آخر حصونه. بدا اليأس ينشب أظافره الطويلة في روح عرفتها سامقة.

«أنا الحاجّة حليمة».

ما أقسى هزيمة آخر المشوار. ما أقسى ألا نصل، ما أقسى أن نصل، لكن للوجهة للخاطئة. ما أقسى أن نتوقف طواعية، أن نفقد إيماننا بما مضى، وما هو آتٍ.

تركتُ أمير الذي كان قلقاً من تبعات قراري:

«كيف ستعود وأنت هارب من ساوا؟»

أخبرته أني لن أتراجع عن قراري حتى لو كان السجن في انتظاري، وأني لا أزال أحمل بطاقة إعفائي من التجنيد، قد تجنبني نقاط التفتيش، وقد كان.

لم تغادر كارلا إلا حين أفشتْ لي السرّ، كان عرض السفر موجهاً في الأساس لأمير حين علمتْ بقصته، لكنه رجاها أن تساعدني عوضاً عنه. يأبى أمير إلا أن يقيّدني بالفضل حتى آخر

عمري. بدا سعيداً حتى وأنا أتنازل عن فرصتي بعد أن أضعتها عليه.

تقدمتُ صوب متجر العم بطرس، كان منشغلاً بوضع معلبات جديدة على أحد الرفوف العالية، وقد استند إلى كرسيه الخشبي، لم يلحظ وجودي ولم أشأ أن أقطع انشغاله، كنتُ أريد بعض الوقت لنفسي مع هذه الفوضى المحببة. طفتُ ببصري في المكان فتسربتْ إليّ حميميته العالية، ضوء خافت، ورائحة غبار خفيفة تنجو دائماً رغم اجتهاد العم بطرس في تنظيف المتجر كل صباح.

تقدمتُ قليلاً فاصطدمتْ قدمي بطرف طاولة أصدرتْ صوتاً فالتفتَ إليّ العم بطرس، تمعّن فيّ قبل أن أقطع شكه باليقين:

«نعم هذا أنا».

نزل من كرسيه بسرعة بدت غير متوائمة مع سنه الكبيرة، واحتضنني وهو يسأل عن سبب غيابي:

«أين ذهبت؟ لقد قلقنا عليك وخشينا أن يكون قد أصابك مكروه. هل التقيتَ سلمى؟ لقد بحثتْ عنك كثيراً، كانت تأتي كل يوم لتسألني إن كنتُ قد رأيتك، ظلّتْ تتردد إلى مَرسى فاطمة لأيام طويلة قبل أن تختفي هي الأخرى».

صُعقتُ لحديث العم بطرس. شعرتُ بكلماته كزلزال يحرِّك الأرض من تحت قدمي، كموج عاتٍ يجرفني دون أن أقوى على صده.

«رأيتَ سلمى هنا؟».

أعدتُ السؤال على الرجل أكثر من مرة، وكان يرد بالإيجاب

دون أن يجعلني ذلك أكتفي. كنتُ في جوع لا ينتهي لإجابته المباغتة، وقد أعادت الدم إلى عروقي، لكن دفعة واحدة، تكاد تقتلني. تركته وأنا أركض باتجاه منزل سلمى، كنت كأحصنة السباق لا ترى شيئاً آخر غير نهاية المسار أمامها، وكان منزل سلمى هو النهاية الوحيدة لمساري.

زادت سرعتي لا شعورياً وأنا ألمح البيت من بعيد، نحيّت إنهاك الدقائق التي قضيتها أركضُ من شارع إلى آخر. بلوغ حيّها أحيا كل شيء داخلي.

توقفتُ أمام الباب الأخضر تماماً، أخذتُ لحظات سريعة لالتقاط أنفاسي وتعديل هندامي الذي لم أعد أهتم به منذ غياب سلمى. وطرقتُ الباب. تنحيتُ جانباً ثم عدت لطرق الباب، حدّثتُ نفسي بضرورة الانتظار لوقت أكثر قبل أن أعاود الطرق، لكني طردتُ أفكاري وعدت إلى طرق الباب، وهذه المرة لم أتحرك. بقيت واقفاً قبالته. انتظرتُ أن يجود الحظ بسلمى وهي تفتح لي باباً للجنة، للعمر الجديد وقد تخلص من ذنوبه وآثامه وعاد كيوم لقائنا الأول، مبهجاً شفيفاً. انتظرتُ أن يخرج وجهها الوضّاء ليغمرني بالنور، ويضيء عتمة روحي.

عدتُ لطرق الباب. كان الطرق في صدري أقوى وأكثر تسارعاً، كان قلبي يتقافز بين ضلوعي كحبات الذرة حين تطالها النار، كنتُ أشعر بقلبي يقفز حتى يصطدم بسقف عالٍ قبل أن يهوي بقوة ليرتطم بهوة سحيقة، وقبل أن يستقر يعود ليقفز من جديد.

طرقتُ الباب. انتبهتُ أني طرقتُ كثيراً دون أن يجيبني أحد،

عاودتُ الطرق أقوى، ولم يجبني أحد. بدأتُ أطرق بكل قوتي ولم أجد إجابة. التفتُّ إلى الباب المجاور، تذكرتُ جارهم الذي أخبرني بهرب سلمى إلى السودان، طرقتُ بابه، ودون أنتبه بدأتُ أطرق بكل قوتي وكأني أواصل ما بدأته عند باب سلمى، ففوجئتُ بالرجل يفتح الباب وملامح غضبه تسبقه. تلعثمتُ وأنا أعتذر تارة وأسأل عن سلمى وأمها تارة أخرى.

«لا أعرف عنهم شيئاً، ولا أريد أن أعرف».

لم يسمح لي الرجل بقول المزيد، بعد أن أغلق بابه بقوة تعادل تلك التي كنتُ أطرق بها. عدتُ أطرق باب سلمى بهستيريا وأنا أصرخ باسمها: سلمى.. سلمى..

جلستُ على عتبة الباب لا أدري ماذا أفعل. بقيتُ ساهماً في المارة حتى انتبهتُ لضوء الشمس وهو يسقط على عيني مباشرة. خطر لي جبريل، فنهضتُ من فوري إلى السوق. أمضيتُ الوقت على مقربة من المحل حتى غادر العم برهان لصلاة الظهر، وجدته وقد جلب شاباً مكاني كان يتحدث إلى جبريل، الذي ما إن رآني حتى أخرسته المفاجأة، فهرولتُ إليه واحتضنته. وقف الشاب بيننا وهو يرقب تقاطع كلماتنا التي كانت تخرج مبتورة دون أن تخلّ بأشواقنا الكاملة.

«هل التقيتَ سلمى؟»

لم ينتظرني جبريل حتى أخبره بذهابي إلى بيت سلمى فباغتني بسؤاله، لكنّ المباغتة تضاعفتْ حين واصل حديثه:

«أخبرتها أنك قررتَ الذهاب إلى ساوا كي تبحث عنها،

فقررتْ بدورها أن تفعل الشيء نفسه، لقد لحقتك إلى ساوا».

تلعثم جبريل قليلاً، وهو يحاول أن يشرح لي كيف قُبلتْ في ساوا وهي حامل. بدا كمن يريد اختراع كلمات منزوعة الوجع دون جدوى، إلى أن سدد لي أخيراً كلماته/ طعناته، في قلبي:

«لم يكن أمامها إلا أن تجهض.. فعلتُ المستحيل كي أُثنيها عن قرارها، لكنها كانت قد حسمتْ أمرها. أخبرتني أنها ستتخلى عن أي شيء، متى أصبح حائلاً بينكما».

لم تكن سلمى وحدها التي أجهضتْ..

كم هو غريب أن تتبدل غاياتنا من الشيء إلى نقيضه. أن نتخلى عن مخاوفنا لصالح مخاوف أخرى. كم هو غريب أن ندفع الثمن مرتين رغماً عنا؛ مرة للحصول على شيء، وأخرى للتخلص منه.

لم تكن سلمى وحدها التي أجهضتْ..

تحتشد الآن أمامي كل الأحلام المبتورة، الأمنيات المؤجلة، والأوجاع المكدسة. أشعر بنفسي عديمة الجدوى، وقد اختزنت وجع اللحظة الكثيفة. تحررتْ من الغد، بعد أن غمرها اليوم بعبودية لا تنتهي.

لم تكن سلمى وحدها التي أجهضتْ..

لم يبق شيء. لن يبقَ شيء. يتهاوى إيماني بكل ما حولي. يعتلي الشك ناصية تفكيري في جدوى ما كان وما سيكون. يتسرب طعم الأشياء، لتصبح عديمة المعنى.

لم تكن سلمى وحدها التي أجهضتْ..

لا أجد شيئاً أستند إليه.. يا لتعاستي. لا أجد شيئاً يستند إليّ.. يا لتعاستي. ما أقسى هذه الوحدة الصاخبة بالفقد، بالوجع، بالطرقات التي لا تُفضي إلى شيء.

خرجتُ من السوق مذهولاً. هذه المرة كنت أسير باتحاه منزل روتّا منكسراً، بينما ترنّ في أذني آخر كلمات جبريل:

«عرفتُ منها أن والدتها خبأتها في منزل أحد أقربائها بمجرد أن علمتْ بنوايا المدرسة في ترحيلها إلى ساوا. عرفتُ أنها لم تشأ أن تُخبر أحداً أنها حامل منك كي لا يلحق بك الأذى».

بلغتُ منزل روتا، التي أربكها طرقي المستمر على الباب، وما إن عرّفتها بنفسي حتى صرختْ:

«أين سلمى، ألم تأتِ معك؟»

«عرفتُ أنها غادرتْ إلى ساوا بعد تركي للمعسكر. لهذا جئتُ أسألك عنها».

صمتتْ روتا لبعض الوقت وعلى وجهها علامات صدمة حاولتْ مداراتها، قبل أن تقذف بلهب في وجهي:

«ما أعرفه أنها وبمساعدة إلسا هربتْ من ساوا باتجاه السودان بحثاً عنك. ظننتُ أنكما التقيتما هناك».

لم أعِ ما قالته بعد ذلك. كنتُ مصدوماً بما يكفي من فكرة أن تكون سلمى خلفي، أن تطاردني عوض أن أطاردها. كنتُ مصدوماً من كوني أتبع مساراً خالياً من آثارها، بينما آثاري تملأ طريقها نحوي.

بدتْ حياتي كدائرة كبيرة، لا تتيح الالتقاء بمن أريد، طالما أننا نتبع الاتجاه ذاته، والقدر نفسه من الشوق والاحتياج. بدا كل شيء خلفي وأنا الذي قضيتُ العمر كله في انتظار ما سيأتي.

يا لهذا الوجع، والمشوار لا يُحصي خطواتي. يأخذ مني عوض أن يعطيني. يُفنيني ويقتات على يقيني.

يا لهذا الوجع، فاتحة الطريق ومنتهاه. دليله، وناسه. أيامه، ولياليه.

يا لهذا الوجع، وقد غدا كل شيء.

(2)

في مَرسى فاطمة كان كل شيء يبدو دائرياً، الطريق والمحال والبيوت. كل شيء.

رأسي أيضاً كانت تسكنه دوائر كثيرة. كنتُ منشغلاً بتتبع تلك الدوائر، من أين تبدأ وإلى أين تنتهي، قبل أن يقطع جبريل انشغالي بمحاولة جديدة:

«هل أنت بخير؟ تعال معي».

سئمتُ إصرار جبريل على إعادة هذا السؤال على مسامعي خلال الأيام الماضية، وسئمتُ أكثر جوابي الذي فقد معناه لفرط تكراره:

«نعم أنا بخير، لكن سأبقى قليلاً».

لم أكن حزيناً هذه المرّة. شعرتُ أني تجاوزت هذا الشعور. كنتُ فقط مشغولاً بعدّ الدوائر التي مررتُ بها دون أن أنتهي منها/ مني.

ولم أكن مستعجلاً كذلك، فالحياة داخل دائرة، مهما بدت كبيرة، لا اعتبار فيها للزمان، بعد أن استأثر المكان بكل شيء.

وكنتُ ساكناً للغاية، رغم كل الألم. وحدها الدائرة تمنحك هذا الشعور بالاعتياد لفرط انتظام كل شيء فيها، وتكراره.

إلى جانب مَرسى فاطمة، بدا ساوا دائريًّا أيضاً، الجنود والخيام والعذابات، وحتى الجبال التي في طريقها للهدم بمعاول قاصرة.

مثله كان الشجراب، غير أنه تفرّد بتشعب دوائره، الواحدة تفضي إلى أخرى دون أن تفضي جميعها إلى شيء.

حتى سلمى، كانت دائرة وسط كل تلك الدوائر، غير أنها كانت تتبع مساراً مغايراً.

لهذا لم أعد حزيناً ولا مستعجلاً، بل وأصبحتُ ساكناً للغاية، لأن سلمى، حتماً، ستعاود المرور بمسارها الذي سلكته أول مرة..

هنا في مَرسى فاطمة..

حيث تبدأ كل المسارات، وإليه تنتهي.

حجي جابر

مَرسى فاطمة

أخبرته كم هي سلمى نقية. احتضنتني قبل أن تبتلعني أسمرا بقسوتها، اختارتني من بين كل الذين كانوا يلهثون خلفها. منحتني دون سواي قلباً لا أزال أسمع نبضاته القريبة.

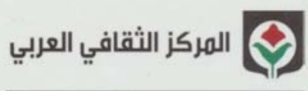
بدا كداني متأثراً وهو يستمع إليّ. لم يقاطعني، وكان هذا كل ما أحتاجه لأفرغ شحنة الخيبة التي تسكنني:

«سلمى بالنسبة لي هي أيضاً حلم بحجم الوطن، بين يديها أشعر بالأمان، ولجبينها الأسمر أنتمي. سلمى لغتي وحدودي وخارطة وعيي واحتياجاتي. أوَلا يستحق هذا الوطن أن ألهث خلفه حتى لو استقرّ هنا، في ساوا؟»

أكملتُ كلمتي الأخيرة بصعوبة وأنا أغالب النشيج. احتضنني كداني فبكيتُ بحرقة المفجوع. كان بكائي المرّ يتعالى كلما حاولتُ قمعه، وكأنه وجد أخيراً طريقه للخلاص عبر استعبادي.

«لا تنس يا صديقي أن أعظم العشق لا يأتي مكتملاً، فيظل الاكتمال حلماً معلّقاً بسقف أمانينا. الامتلاء فعلٌ لا يليق بالعاشقين».

حجي جابر، روائي إرتري من مواليد مدينة مصوع الساحلية 1976. صدرت له عن المركز الثقافي العربي رواية **سمراويت** الحائزة على جائزة الشارقة للإبداع العربي 2012.






ISBN 978-9953-68-646-2

صورة الغلاف للفنان هنري ماتيس